رواية

حياة الكاتب السرّيّة

غيوم ميسو





نوفل

في ذكرى ١١٢٢

حياة الكاتب السرّية

صدرت عام 2020 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks



صورة الغلاف: **Mathieu Persan ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**
طباعة: **المطبعة العربية**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-655-2
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-656-9

Original title:
La vie secrète des écrivains by Guillaume Musso

رواية

حياة الكاتب السرّية

غيوم ميسو

نقلتها من الفرنسية رانيا الغزال



نوفل



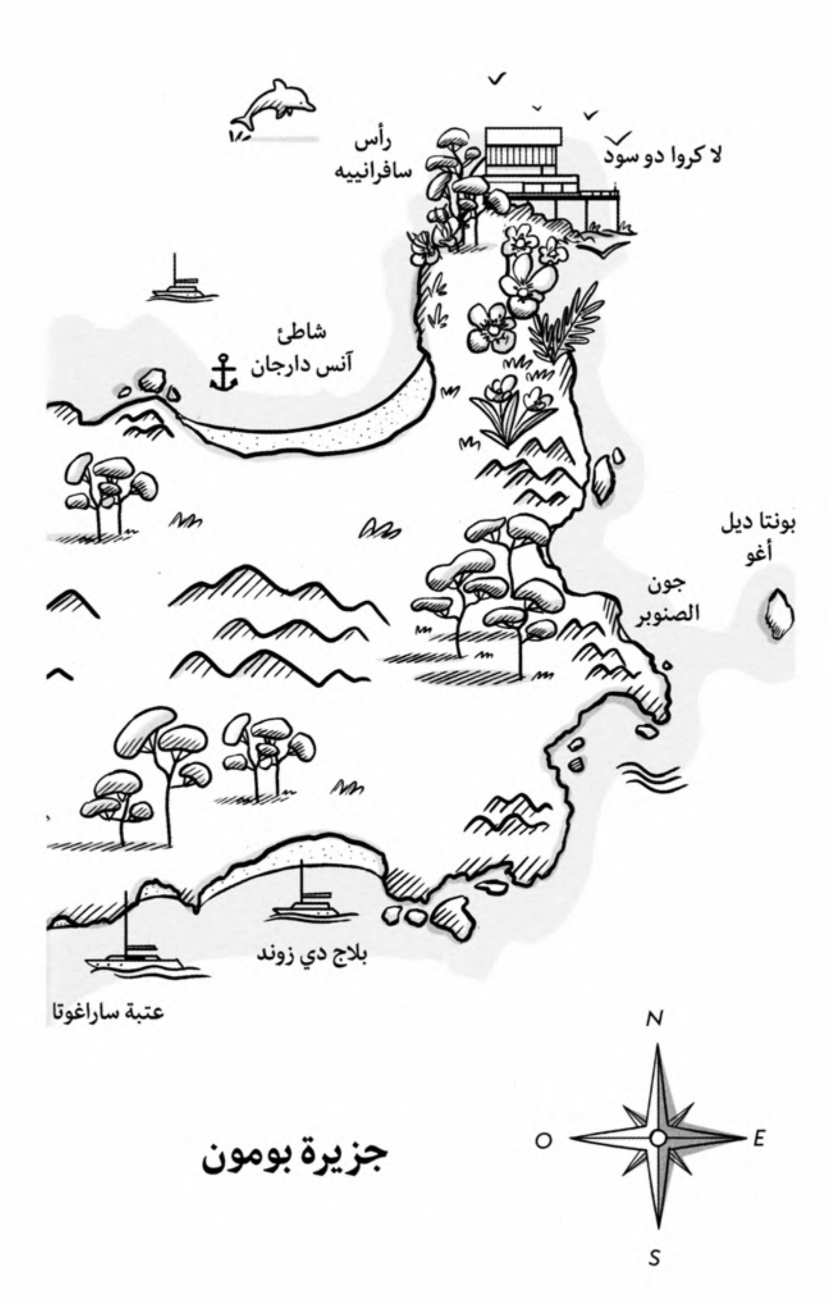
أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

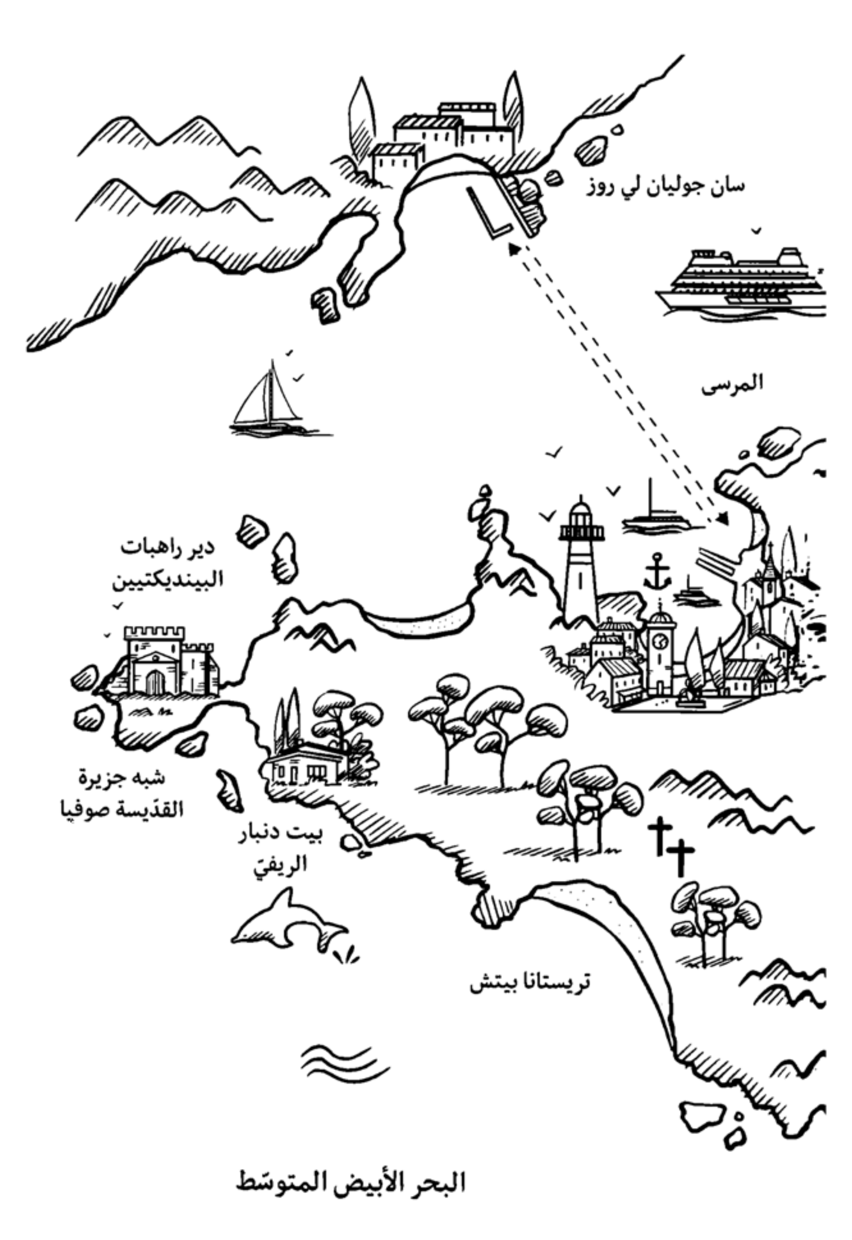

أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

للبقاء في قيد الحياة، يجب أن تروي القصص.

أمبرتو إيكو،

من رواية «جزيرة اليوم السابق»


رأس
سافرانييه
لا كروا دو سود
شاطئ
آنس دارجان
بونتا ديل
أغو
جون
الصنوبر
بلاج دي زوند
عتبة ساراغوتا
N
O
E
S
جزيرة بومون


سان جوليان لي روز
المرسى
دير راهبات
البينديكتيين
شبه جزيرة
القدّيسة صوفيا
بيت دنبار
الريفيّ
تريستانا بيتش
البحر الأبيض المتوسّط

مقدّمة

لغز ناثان فاولز
(«لو سوار» – 4 مارس 2017)

بعد غيابه عن الساحة الأدبية منذ قرابة عشرين عامًا، لا يزال مؤلّف الرواية الأسطورية «لوريلاي سترانج» يُثير ذهول القراء من الفئات العمرية كافّة. فالروائي الذي عزل نفسه عن العالم، وانتقل للعيش على جزيرةٍ في البحر الأبيض المتوسّط، يرفض رفضًا قاطعًا التواصل مع الإعلام. تحقيق عن مُنعزل جزيرة بومون.

هي ظاهرة تُعرف بـ«تأثير سترايسند»: كُلّما حاولت إخفاء أمر ما، أثرتَ المزيد من الفضول حوله. وقد وقع ناثان فاولز ضحيّة هذا التأثير بنتائجه العكسية منذ غيابه المفاجئ عن عالم الأدب في سنّ الخامسة والثلاثين. أثارت حياة الأديب الفرنسي الأميركي، بفعل هالة الغموض التي تُحيط بها، الكثير من الشائعات والثرثرات طوال هذين العقدين.

ولد فاولز في نيويورك في العام 1964 من أب أميركي وأمّ فرنسية، وأمضى طفولته في ضواحي باريس، لكنّه عاد إلى الولايات المتّحدة ليكمل دراسته، أولًا في أكاديمية فليبس الثانوية، ومن ثمّ

في جامعة ييل. انخرط في مجال العمل الإنساني بعد نيله إجازة في القانون والعلوم السياسية، فعمل بضعَ سنوات مع منظّمة العمل ضدَ الجوع ومنظّمة أطبّاء بلا حدود في السلفادور وأرمينيا وكردستان بشكل خاصّ.

الأديب الناجح

عاد ناثان فاولز إلى نيويورك في العام 1993 ونشر روايته الأولى بعنوان «لوريلاي سترايننج»، عن رحلة اكتشاف الذات التي قامت بها فتاة مراهقة مُحتجزة في مستشفًى للأمراض النفسية. لم يُحقّق الكتاب نجاحًا سريعًا، ولكن بعد بضعة أشهر، تصدّر كتابه قائمة المبيعات، بعدما انتشرت الأصداء عنه بالتواتر، خصوصًا بين القرّاء المراهقين. بعد مرور عامين، ومع إصدار عمله الثاني بعنوان «مدينة أميركية صغيرة»، وهو عبارة عن رواية طويلة متعدّدة الشخصيّات ومتشعّبة الأحداث، في ألف صفحة تقريبًا، فاز فاولز عن جدارة بجائزة بوليتزر، وفرض نفسه كأحد الروائيين الأكثر إبداعًا في الأدب الأميركي.

في أواخر العام 1997، فاجأ الروائي عالم الأدب أول مرّة. فبعد أن استقرّ في باريس، نشر روايته الجديدة باللغة الفرنسية مباشرةً. «المحطّمون» هي قصّة حبّ مؤثّرة، كما أنّها أيضًا رحلة تأمّل في الحداد والحياة الداخلية وقوّة الكتابة. بفضل هذه الرواية، اكتشفه الجمهور الفرنسي فعليًا، لا سيما أثناء استضافته في حلقة خاصّة من برنامج «بويون دو كولتور» الثقافي في شاشة فرنسية، إلى جانب سلمان رشدي وأمبرتو إيكو وماريو فارغاس يوسّا. وقد حلّ مرّة أخرى ضيفًا على البرنامج نفسه في نوفمبر 1998، خلال لقاء اتّضح لاحقًا أنّه كان ظهوره الإعلامي الأخير. فبعد سبعة أشهر، كان فاولز بالكاد قد

بلغ سنّ الخامسة والثلاثين، عندما أعلن بالفعل، في مقابلة مثيرة مع وكالة فرانس برس، قراره القاطع التوقّف عن الكتابة.

مُنعزل جزيرة بومون

لم يتراجع الروائي عن قراره اعتزال الكتابة منذ ذلك الحين. فقد استقرّ فاولز في منزله في جزيرة بومون، حيث لم ينشر بعد ذلك أيّ عمل له، وامتنع أيضًا عن أيّ مقابلة صحافية. كما رفض جميع العروض لاقتباس رواياته للسينما أو التلفزيون (وقد فشلت مؤخّرًا محاولات نتفليكس وأمازون المتكرّرة لإقناعه، وذلك، رغم العروض المالية المغرية التي قُدّمت له بحسب ما يُقال).

منذ عشرين عامًا تقريبًا وصمْت «منعزل بومون» المطبق يُعزّز التخيّلات والافتراضات. لماذا اختار ناثان فاولز، وهو فقط في الخامسة والثلاثين من عمره، وفي ذروة نجاحه، أن ينعزل طوعًا عن العالم؟

«ما من لغز يُحيط بقرار ناثان فاولز بحسب جاسبر فان ويك، وكيله القديم الدائم. ما من سرّ ليُكشف. ناثان أكمل حياته واختار إنجاز أمور أخرى. لقد طوى للأبد صفحة الكتابة وعالم النشر.» عندما سُئل عن حياة الأديب اليومية، بقيت إجابة فان ويك مُبهمة: «على حدّ علمي، ناثان يهتمّ بأعماله الخاصّة.»

لكي نعيش بسعادة، علينا أن نعيش في الخفاء

ليقضي على أيّ بصيص أمل متبقٍّ لدى القرّاء، أكّد وكيل الروائي أنّه «لم يكتب سطرًا واحدًا منذ عشرين عامًا»، وقال مشدّدًا: «غالبًا ما قُورِنَت «لوريلاي سترايْنج» برواية «الحارس في حقل الشوفان»، إلّا أنّ فاولز ليس سالينجر: هو لا يُخفي في منزله صندوقًا مليئًا بالمخطوطات.

لن تصدر أبدًا رواية جديدة لناثان فاولز، ولا حتى بعد وفاته. وهذا أمرٌ مؤكّد.»

لم يردع هذا التصريح قَطّ من هم أكثر فضولًا عن السعي إلى معرفة المزيد. فعلى مرّ السنين، قصد الكثير من القرّاء والصحافيين جزيرة بومون ليحوموا حول منزل فاولز. كانوا يجدون بابه مغلقًا دائمًا، ما ولّد الشكّ والريبة في نفوس سكّان الجزيرة. وليس أمرًا مستغربًا مطلقًا في مكان رُفع فيه الشعار الآتي: «لكي نعيش بسعادة، علينا أن نعيش في الخفاء»، حتى قبل وصول الروائي إلى الجزيرة. وتكتفي أمانة سرّ رئاسة البلدية بالتوضيح أنّ «البلدية لا تُفصح عن أيّ معلومة حول هويّة سكّانها، مشاهير كانوا أو سواهم.» نادرًا ما يوافق سكّان الجزيرة على التحدّث عن الكاتب. أولئك الذين يوافقون على التكلّم معنا يقلّلون أهمّية وجود مؤلّف «لوريلاي ستراينج» على جزيرتهم. تقول إيفون سيكار، زوجة الطبيب الوحيد على الجزيرة: «ناثان فاولز لا يعيش مختبئًا في منزله، أو متقوقعًا على نفسه. غالبًا ما نلتقي به يقود سيّارته من طراز ميني موك حين يأتي للتسوّق في إدز كورنر، وهو السوبرماركت الوحيد في المنطقة.» وأوضح صاحب الحانة في الجزيرة قائلًا: «إنّه يرتاد الحانة أحيانًا، خصوصًا أثناء إعادة عرض مباريات نادي أولمبيك مارسيليا.» وأضاف أحد الزبائن الذين يتردّدون إلى الحانة بانتظام أنّ «ناثان ليس بالرجل البربري الهمجي الذي يصفه الصحافيون في بعض الأحيان. إنه رجل لطيف، خبير في كرة القدم ويحبّ الويسكي الياباني». وثمّة موضوع واحد يمكن أن يثير غضبه: «إذا حاولت أن تحدّثه عن كتبه أو عن الأدب، فهو سيغادر المكان حتمًا.»

فراغ في الوسط الأدبي

لفاولز الكثير من المعجبين بين زملائه الكتّاب. توم بويد على سبيل المثال، الذي يكنّ له إعجابًا مطلقًا. «لقد أثار في داخلي بعض أروع الانفعالات والمشاعر أثناء المطالعة، وهو بلا شكّ أحد الروائيين الذين أدين لهم بالكثير»، يصرّح مؤلّف «ثلاثية الملائكة». والأمر سيّان بالنسبة إلى توماس دوغاليه، الذي يعتبر أنّ فاولز ابتكر من خلال ثلاثة كتب مختلفة تمامًا عملًا فريدًا سيصنع التاريخ. ويقول الروائي الفرنسي: «بالطبع، يؤسفني مثل أيّ شخص آخر أنّه اعتزل العمل الأدبي. يفتقر عصرنا إلى قلمه. حبّذا لو يعود ناثان إلى الساحة الأدبية من خلال رواية جديدة، إنّما أعتقد أنّه لن يحدث أبدًا.»

إنّه أمر محتمل بالفعل، لكن يجب ألّا ننسى أنّ فاولز اختار هذه الجملة للملك لير، ليستهلّ بها روايته الأخيرة: «النجوم، هذه النجوم في الأعلى، هي التي تتحكّم في وجودنا.»

جان ميشيل دوبوا



الكاتب الذي لم يعد يكتب

دار نشر كالمان ليفي
21، شارع مونبارناس
75006 باريس

رقم التعريف: 379529

السيد رافاييل باتاي
75، شارع أريستيد بريان
92120 مونروج

باريس، في 28 مايو 2018

حضرة السيد المحترم،

لقد تلقّينا مخطوطتكم بعنوان «خجل القمم» ونشكركم على الثقة التي تُولون دار النشر خاصّتنا إيّاها.

راجعت لجنة المطالعة مخطوطتكم بعناية، وللأسف هي لا تتوافق ونوع الأعمال التي نبحث عنها حاليًا لنشرها.

نأمل أن تجدوا دار نشر لهذا العمل في أسرع وقت ممكن.

مع أطيب التحيّات،

لجنة القراءة

ملاحظة: تبقى المخطوطة تحت تصرّفكم في مقرّنا مدّة شهر واحد. في حال أردتم استلامها عبر البريد، نرجو منكم أن ترسلوا إلينا ظرفًا مرفقًا بطابع.

1

صفةُ الكاتب الرئيسية

صفةُ الكاتب الرئيسية أن يتمتّع
بمؤخّرة جيّدة.

داني لافرييه

الثلاثاء 11 سبتمبر 2018

1.

كانت الرياح تصفِقُ الأشرعة فتلوح مُرفرفة في سماء صافية. غادر المركب الشراعي شواطئ الريفييرا الفرنسية بُعيد الساعة الواحدة بعد الظهر وهو يُبحر الآن بسرعة خمس عقد في اتّجاه جزيرة بومون. كنت جالسًا بجانب الربّان قرب مقصورة الملاحة، وقد أسكرني هواء البحر بوعوده، شاردًا أتأمّل مياه المتوسّط المتلألئة تحت أشعّة الشمس الذهبية.

كنت في صباح اليوم نفسه قد غادرت الاستوديو حيث أقيم في الضواحي الباريسية لألحق بقطار الساعة السادسة المتوجّه إلى أفينيون. في مدينة البابوات، ركبت الحافلة متوجّهًا إلى هييريس،

ثمّ أخذتُ سيّارة أجرة أوصلتني إلى ميناء سان جوليان لي روز الصغير، وهو الرصيف الوحيد الذي تنطلق منه العبّارات إلى جزيرة بومون. بسبب تأخّر الشركة الوطنية الفرنسية للسكك الحديد المرّة الألف، فاتتني الرحلة الوحيدة المتوفّرة في منتصف النهار بخمس دقائق. بينما كنت أتسكّع على الرصيف وأنا أجرّ حقيبتي، عرض عليّ، مشكورًا، ربّان مركب شراعي هولندي أن أرافقه، فيما كان على وشك الإبحار لإحضار ركّابه من الجزيرة.

كنت قد بلغت الرابعة والعشرين من عمري وأعيش مرحلة صعبة من حياتي. تخرّجت قبل عامين في إحدى كلّيات التجارة في باريس، لكنّني لم أبحث عن وظيفة تناسب اختصاصي. فلم أتابع دراستي هذه سوى ليطمئنّ بال والديّ. ولم أكن أريد أن أعيش حياتي تحت رحمة الإدارة أو التسويق أو الشؤون المالية. على مدى العامين الماضيين، كنت أعمل في وظائف صغيرة عدّة لدفع الإيجار، لكنّني كرّست طاقاتي الإبداعية كلّها لتأليف رواية بعنوان «خجل القمم»، وقد رُفِضَت من حوالى عشر دور نشر.

علّقت رسائل الرفض كلّها على اللوح فوق مكتبي. كلّ مرّة غرزت فيها دبّوسًا في سطح الفلّين، كنت أشعر كما لو أنّني أغرزه في قلبي. فاكتئابي بلغ مستوى شغفي بالكتابة. لحسن الحظ لم يكن هذا الاكتئاب يدوم طويلًا. فقد تمكّنت دائمًا، حتى الآن، من إقناع نفسي بأنّ هذا الفشل يُمهّد للنجاح. ولكي أقتنع بذلك كنت أتذكّر أمثلة معروفة. كثيرًا ما ردّد ستيفن كينغ أنّ ثلاثين ناشرًا رفضوا «كاري». كما وجد نصف الناشرين في لندن أنّ المجلّد الأول من «هاري بوتر» طويل جدًّا بالنسبة إلى الأطفال. وواجهت رواية «الكثبان» لفرانك هربرت حوالى عشرين رفضًا قبل أن تصبح رواية الخيال العلمي الأكثر مبيعًا في العالم. أمّا فرانسيس سكوت فيتزجيرالد، فقد كسا جدران

مكتبه في ما يبدو برسائل الرفض المئة والاثنتين والعشرين المرسلة من المجلّات التي عرض عليها قصصه القصيرة.

.2

لكنّ أسلوب كويه هذا الذي يعتمد على إقناع الذات بدأ يبلغ حدّه. فرغم رغبتي الملحّة في الكتابة، كنت أجد صعوبة في العودة إليها. لم تكن عقدة الكاتب أو نضوب الأفكار ما يعيقني. بل كان هذا الشعور السيّئ بعدم القدرة على التقدّم في كتابتي. الشعور بعدم معرفتي إلى أين عليّ التوجّه. كنت بحاجة إلى نظرة مُختلفة إلى عملي. حضور مُتعاطف ولا يقبل بأيّ تنازل في الوقت نفسه. في بداية العام، تسجّلت في دورة للكتابة الإبداعية من تنظيم دار نشر مرموقة. لقد عقدت آمالًا كبيرة على ورشة الكتابة هذه، لكن سرعان ما أصبت بخيبة أمل. فالكاتب الذي نظّمها، برنارد دوفي، وهو الروائي الذي بلغ ذروة نجاحه في التسعينيات، قدّم نفسه صائغًا للأسلوب، على حدّ قوله. كان يردّد طوال الوقت: «يجب أن يرتكز عملك كلّه على اللغة لا على القصّة. فالقصّة موجودة فقط لخدمة اللغة. هدف الكاتب الوحيد هو البحث عن الشكل والإيقاع والتناغم. هنا يكمن الإبداع الوحيد، لأنّه ومنذ أيّام شكسبير، كُتبت القصص كلّها أصلًا.»

الألف يورو التي أنفقتها على درس الكتابة هذا، في ثلاث جلسات مدّة كلّ منها أربع ساعات، أغضبتني وأفلستني. ربّما كان دوفي محقًّا، لكنّني شخصيًّا كنت أخالفه الرأي تمامًا: لم يكن الأسلوب غاية في حدّ ذاته. فالصفة الرئيسية التي على الكاتب أن يتمتّع بها هي أن يعرف كيف يأسر قارئه بقصّة جيّدة. قصّة يمكنها أن تقتلعه من وجوده وتضعه في صلب حميمية الشخصيات وواقعها.

لم يكن الأسلوب سوى وسيلة لإنعاش الرواية وجعلها نابضة بالحياة. لا يهمّني أصلًا رأي كاتب أكاديمي مثل دوفي. فالنصيحة الوحيدة التي كنت أرغب في سماعها، الوحيدة المهمّة بالنسبة إليّ هي من مثلي الأعلى منذ زمن: ناثان فاولز، كاتبي المفضّل. اكتشفت كتبه في أواخر سنوات المراهقة، بعد أن كان فاولز قد توقّف عن الكتابة منذ فترة طويلة. روايته الثالثة، «المحطّمون»، قدّمتها لي هديّة انفصال ديان لابوري، حبيبتي في السنة الأخيرة من المدرسة. لقد هزّت الرواية كياني أكثر من خسارة حبّ لم يكن حبًّا بالفعل. تابعت قراءة روايتيه الأوليين: «لوريلاي سترابنج» و«بلدة أميركية صغيرة». ومنذ ذلك الحين، لم أقرأ قَطّ شيئًا بهذا القدر من الإثارة. بدا لي أنّ فاولز يتوجّه إليّ مباشرة بكتاباته الفريدة. كانت رواياته سلسة وحيّة وتخطف الأنفاس. رغم أنّني لم أكن يومًا معجبًا بكاتب واحد فقط، قرأت كتبه مرارًا وتكرارًا لأنّها كانت تتحدّث عنّي، والعلاقات مع الآخرين، وصعوبة التحكّم في دفّة الحياة، وضعف البشر، وهشاشة وجودنا. كانت تمنحني القوّة وتعزّز رغبتي في الكتابة.

في السنوات التي تلت تقاعده، حاول كتّاب آخرون أن يتشرّبوا أسلوبه، أو يستنشقوا عالمه، أو يقلّدوا طريقته في حبك القصّة، أو يحاكوا رهافة إحساسه. لكن بالنسبة إليّ لم يصل أحد إلى مستوى كاحله. لم يكن هناك سوى ناثان فاولز واحد. شئنا أم أبينا، كنّا مرغمين على الاعتراف بأنّ فاولز مؤلّف فريد. حتى عند مطالعة مؤلّفاته من غير كشف اسمه، يكفي أن تقرأ صفحة من أحد كتبه لتعرف أنّه هو من كتبها. ولطالما اعتبرت أنّ هنا تظهر علامة الموهبة الحقيقية. أنا أيضًا شرّحت رواياته محاولًا كشف أسرارها، ثمّ بدأت أطمح إلى التواصل معه. رغم أنّه لم يكن لديّ أمل بتلقّي أيّ ردّ، فقد

راسلته مرّات عدّة من خلال دار النشر التي يتعامل معها في فرنسا ووكيله الأدبي في الولايات المتّحدة. كما أرسلت إليه مخطوطتي.

ثمّ قبل عشرة أيّام، رصدت عرض عمل في الرسالة الإخبارية من موقع جزيرة بومون الرسمي. الوردة القرمزية، وهي مكتبة صغيرة في الجزيرة، تبحث عن موظّف. تقدّمت بطلب مباشر عبر إرسال بريد إلكتروني إلى المكتبيّ، وفي اليوم نفسه، اتّصل بي صاحب المكتبة غريغوار أوديبير عبر تطبيق فيس تايم ليبلغني بأنّه قبل طلبي. كانت الوظيفة متاحة مدّة ثلاثة أشهر. لم يكن الأجر مغريًا، لكنّ أوديبير وفّر لي المسكن ووجبتين في اليوم في فور دو كافيه، أحد المطاعم في ساحة القرية.

كنت سعيدًا لأنّني حصلت على هذه الوظيفة التي كما ظننت أنّني فهمت من المكتبيّ ستمنحني الوقت للكتابة في بيئة مُلهمة. كما كنت واثقًا من أنّها ستمنحني فرصة لقاء ناثان فاولز.

.3

ناور الربّان مناورة أبطأت سرعة المركب الشراعي.

– اليابسة أمامنا! صرخ وهو يشير بذقنه إلى طيف الجزيرة الذي لاح في الأفق.

تقع جزيرة بومون على بعد ثلاثة أرباع الساعة بالقارب من شواطئ الريفييرا، وهي جزيرة هلالية الشكل، كناية عن قوس دائرة بطول خمسة عشر كيلومترًا وعرض ستّة كيلومترات. لطالما قيل عنها أنّها أشبه بواحة برّية محمية. إحدى لآلئ البحر الأبيض المتوسّط، حيث تتعاقب الخلجان الصغيرة بمياهها الفيروزية، والجُوَن، وغابات الصنوبر، وشواطئ الرمل الناعم. إنّها الريفييرا الفرنسية الأزلية، من دون سيّاح، ولا تلوّث، ولا باطون.

كان لديّ متّسع من الوقت خلال الأيام العشرة الماضية لمراجعة الوثائق التي جمعتها عن الجزيرة. منذ العام 1955، أصبحت بومون ملكًا لآل غاليناري، وآل غاليناري عائلة موقّرة من الصناعيين الإيطاليين استثمرت في أوائل الستّينيات مبالغ طائلة لتأهيل الجزيرة، وقامت بأشغال عامّة شملت إمدادات المياه وتعبيد الأرض، فأنشأت من العدم أوّل رصيف بحري على ساحل الكوت دازور.

على مرّ السنين، استمرّت الجزيرة في التطوّر وفق مسار واضح: عدم التضحية أبدًا برفاهية سكّانها على مذبح حداثةٍ مزعومة. وبالنسبة إلى سكان الجزيرة، كان للتهديدات وجهان محدّدان: مقتنصو فرص تحقيق الأرباح والسيّاح.

بهدف الحدّ من انتشار البناء، اعتمد مجلس الجزيرة قاعدة بسيطة تقضي بتحديد عدد عدّادات المياه المتوفّرة. إنّها استراتيجية مُستوحاة من تلك التي اعتمدتها بلدة بوليناس الصغيرة في كاليفورنيا فترة طويلة. أمّا النتيجة على مدى ثلاثين عامًا فكانت أنّ عدد السكّان لم يتخطَّ يومًا الألف وخمسمئة نسمة. لم يكن هناك أيّ مكتب عقاري في بومون: جزء من العقارات كان ينتقل من عائلة إلى أخرى، والجزء الآخر كان ينتقل بحسب عملية اختيار مشتركة. أمّا السياحة، فقد ضُبِطَت بفضل مراقبة مشدّدة للقنوات التي تربط الجزيرة بالقارّة. في أوج الموسم السياحي كما في منتصف الشتاء، يُبحر مركب واحد فقط، «المغامر» الشهير، الذي أطلق عليه من دون مبرّر تسمية «العبّارة»، ثلاث رحلات ذهابًا وإيابًا يوميًّا، فقط لا غير، في الساعة 8 صباحًا، وفي الساعة 12:30 من بعد الظهر، وفي الساعة 7 مساءً، من رصيف بومون إلى سان جوليان لي روز. ويكون كلّ هذا وفق العادة القديمة: من دون حجوزات مسبقة ومع إعطاء الأولوية دائمًا لسكّان الجزيرة.

توخّيًا للدقّة، لم تكن بومون تُعارض زيارة السيّاح، لكنّها لم تُخصّص لهم أيّ ترتيب. لم يكن في الجزيرة سوى ثلاثة مقاهٍ، ومطعمين، وحانة. لم يكن هناك فندق والإيجارات لدى السكّان كانت نادرة. وكان كلّما زاد المجهود لثني الناس عن زيارة الجزيرة، ازداد الغموض الذي يحيط بالمكان وأصبح مرغوبًا أكثر. إضافة إلى السكّان المحليين الذين يعيشون هنا طوال السنة، امتلك بعض الأثرياء منازل صيفية فيها. على مدار العقود الماضية، تحمّس بعض الصناعيين والفنّانين لهذه المنطقة الريفية الراقية الهادئة. وقد تمكّن صاحب إحدى شركات التكنولوجيا المتطوّرة وشخصان مرموقان أو ثلاثة في صناعة النبيذ من شراء الفيلّات. ولكن، بغضّ النظر عن الشهرة أو الثروة، كانوا جميعهم يفضّلون التواري عن الأنظار. لم يرفض أهل الجزيرة استقبال أناس جدد، شرط أن يحترموا القيم التي لطالما تميّز بها طابع بومون. في الواقع، كان الوافدون الجدد في كثير من الأحيان هم الأشدّ حماسة في الدفاع عن الجزيرة التي احتضنتهم.

كان هذا التقوقع الذاتي يثير الكثير من الانتقادات، حتى أنّه كان يغضب الذين يقصيهم. في مطلع الثمانينيات، كانت الحكومة الاشتراكية قد أعدّت مخطّطات لشراء بومون، وكانت الحجّة الرسمية تصنيف الموقع، ولكن في الواقع، أرادت إنهاء وضع الجزيرة الاستثنائي. أدّى القرار إلى موجة احتجاج عارمة، فما كان من الحكومة إلّا التراجع عنه. ومنذ ذلك الحين، اقتنعت الإدارة بالواقع: جزيرة بومون هي مكان مميّز. وفي الحقيقة، كانت ثمّة جنّة صغيرة تقع فعلًا على رمية حجر من شواطئ الريفييرا، في أحضان المياه البلّورية. هي قطعة من فرنسا لكنّها لم تكن تشبه فرنسا فعليًا.

4.

ما إن وطأت قدماي اليابسة حتى جررت حقيبتي على أرصفة المرسى. لم تكن المارينا شاسعة، لكنّها كانت مُجهّزة جيّدًا، نابضة بالحياة ومليئة بالسحر. كانت البلدة الصغيرة تمتدّ حول الخليج كأنّها مدرّج من المنازل الملوّنة المتلألئة تحت سماء رمادية. ذكّرني بريقها وتناثرها العفوي على المرتفع بجزيرة هيدرا اليونانية التي زرتها في سنّ المراهقة برفقة والديّ. ولكن بعد هنيهة، وأنا أجوب الأزقّة الضيّقة والمنحدرة، وجدت نفسي في إيطاليا الستينيّات. لاحقًا، وبعد أن توجّهت صعودًا، رأيت الشواطئ وكثبانها الرملية البيضاء أول مرّة، فتراءت لي مساحات ماساتشوستس الرملية. هذا الاحتكاك الأول مع الجزيرة، الذي حصل على وقع صرير دواليب حقيبتي وهي تزيّح أرصفة الطرق الرئيسية المؤدّية إلى وسط المدينة – كشف لي سرّ غرابة جزيرة بومون وسحرها الذي يكمن خصوصًا في اختلاط كلّ تلك العناصر العابرة التي يصعب تحديدها. كانت بومون أشبه بالحرباء، فهي موقع فريد من نوعه لا يراعي شروط أيّ تصنيف إلى درجة أن لا جدوى من محاولة تحليله أو شرحه.

وصلت بسرعة إلى ساحة البلدة الرئيسية. هذا المكان الذي يتّسم بطابع قرى بروفانس، بدا لي هذه المرّة أنّه خارج من إحدى روايات جيونو. كانت ساحة الشهداء العصب الرئيسي لبومون. باحة مُظلّلة ينتصب فيها برج الساعة، ونصب تذكاري لشهداء الحرب، ونافورة غنائية، وملعب البوتشي.

تحت العرائش كان مطعما الجزيرة متلاصقين: أن سان جان إيفير ولو فور دو كافيه. على تـرّاس هـذا الأخير، رصـدتُ غريغوار أوديبير وقـد عرفته مـن ملامحه القاسية. كان يُنهي تـناول طبق

الخرشوف بالفلفل. بدا معلّمًا في إحدى المدارس القديمة: لحية صغيرة خالطها شيب، وصديرية صغيرة، وسترة بكمّين طويلين من الكتّان المغضّن.

تعرّف المكتبيّ إليّ أيضًا، ودعاني بلباقة السيّد المرموق إلى مائدته، حيث قـدّم لي ليموناضة كما لو كنت في الثانية عشرة من عمري.

– أفضّل أن أبلّغك بذلك على الفور: سأقفل المكتبة في نهاية العام، أبلغني الخبر من دون أيّ مقدّمة.

– ماذا تقصد؟

– لهذا السبب أبحث عن موظّف: لتوضيب الأغراض، والاهتمام ببعض مهمّات المحاسبة، وإجراء عملية الجرد النهائية الكبرى.

– هل ستُعلن إفلاسك؟

أومأ برأسه مغمّسًا قطعة الخبز بما تبقّى من زيت الزيتون.

– لكن ما السبب؟

– لم يعد الوضع مقبولًا. تراجعت أعمالي بشكل متواصل على مرّ السنين ولن تتحسّن. في النهاية أنت تعرف القصّة: تفسح السلطات العامّة المجال لازدهار شركات الإنترنت العملاقة التي لا تدفع ضرائبها في فرنسا.

تنهّد المكتبيّ، مستغرقًا في التفكير بضعَ ثوانٍ، ثمّ تابع بنبرة فيها شيء من الاستسلام والاستفزاز:

– ومن ثمّ فلنكن واقعيين: لماذا تُتعب نفسك وتقصد المكتبة في حين يمكنك أن تحصل على كتاب بثلاث نقرات على هاتف آيفون!

– لأسباب كثيرة! هل حاولت أن تجد مشتريًا مهتمًّا؟

هزّ أوديبير كتفيه.

– لا أحد مُهتمّ بذلك. ما من منتجٍ اليوم أقل ربحًا من الكتاب. مكتبتي ليست الأولى التي تغلق أبوابها ولن تكون الأخيرة.

سكبَ في كأسه ما تبقّى من خمر في الكوز وأفرغها بجرعة واحدة.

– دعني أصطحبك إلى المكتبة لتجول فيها، قال لي ذلك وهو يُثني منديله ويقوم عن كرسيّ المائدة.

لحقت به وعبرت الساحة متوجّهًا نحو المكتبة. في الواجهة الحزينة حتى الموت، عُرضت كتب أكلها غبارٌ تراكم عليها منذ أشهر عدّة في ما يبدو. دفع أوديبير الباب وتنحّى جانبًا لأمُرّ.

كان داخل المكتبة كئيبًا أيضًا. منعت الستائر السميكة نفاذ أيّ بصيص نور إلى الداخل. لا شكّ في أنّ رفوف خشب الجوز لها طابعها المميّز، لكنّها لم تحتضن سوى مراجع كلاسيكية ومتخصّصة لا بل مُتحذلقة. قُل إنّها الثقافة مُجسّدة في شكلها الأكاديمي البحت. بحسب الصورة التي بدأت أكوّنها عن شخصية أوديبير، تخيّلته في لحظة مُصابًا بنوبة قلبية إذا ما أرغم على بيع قصص الخيال العلمي، أو روايات الفنتازيا، أو كتب المانغا.

– سأريك غرفتك، قال لي مشيرًا إلى درج خشبي في الجزء الخلفي من المكتبة.

كانت شقّة المكتبي تقع في الطابق الأول. أمّا غرفتي فكانت في الطابق الثاني، وهي عبارة عن استوديو مطاول على شكل علّية. حين فتحت الأبواب الشفّافة أصدرت مفاصلها صريرًا مزعجًا، وفوجئت بشرفة–ترّاس مُطلّة على الساحة. أبهجني المنظر المُذهل المُشرف على البحر، ومتاهة الأزقّة المتعرّجة التي تمرّ بين الأبنية الملبّسة بالحجر الأصفر قبل أن تفضي إلى الشاطئ.

بعد أن وضّبت أغراضي، نزلت للقاء أوديبير في المكتبة للاستفسار عمّا يريده منّي فعليًّا.

– لا يعمل الواي فاي بشكل جيّد، حذّرني وهو يشغّل جهاز كمبيوتر قديمًا. في أغلب الأحيان ستضطرّ إلى إعادة تشغيل العلبة المثبتة في الطابق العلوي.

وفي انتظار تشغيل الكمبيوتر، أوصل المكتبيّ لوح تسخين صغيرًا في الكهرباء، وملأ آلة القهوة ماءً.

– قهوة؟

– بكلّ سرور.

بينما كان يُعدّ فنجاني القهوة تجوّلت في المكتبة. على لوحة الفلّين خلف المكتب، ثُبِّتَت الصفحات الأولى من أعداد قديمة من مجلّة «ليفر إيبدو»، يعود تاريخها إلى حقبة كان فيها رومان غاري لا يزال يؤلّف الروايات (بالكاد أبالغ...). رغبت في أن أفتح الستائر على آخرها، وأزيل السجّاد الأرجواني الرثّ، وأعيد ترتيب الأرفُف وطاولات عرض الأعمال الأدبية بشكل كامل.

وكما لو أنّ أوديبير كان يقرأ أفكاري، قال:

– المكتبة موجودة منذ العام 1967. ومع أنّها لا تبدو اليوم في أبهى حلّة، لكنّها كانت في الماضي مؤسّسة حقيقية. قصدها الكثير من المؤلّفين الفرنسيين والأجانب لإجراء لقاءات أو لتوقيع أعمالهم.

أخرج من أحد الأدراج السجلّ الذهبي المغلّف بالجلد وأعطاني إيّاه لكي يحثّني على تصفّحه. وفي الصور رأيت ميشيل تورنييه، وجان ماري غوستاف لو كليزيو، وفرانسواز ساغان، وجان دورميسون، وجون إيرفينغ، وجون لو كاريه و... ناثان فاولز.

– هل ستقفل المكتبة حقًّا؟

– من دون أيّ ندم، أكّد لي. لم يعد الناس يقرأون، هذا هو السبب.

أوضحت له:

– ربّما يقرأ الناس اليوم بشكل مختلف، لكنّهم ما زالوا يقرأون.

أطفأ أوديبير الغاز ليوقف صفير آلة القهوة الإيطالية.

– حسنًا، أنت تعرف ما أقصد. أنا لا أتحدّث عن الكتب الترفيهية، أنا أتحدّث عن الأدب الحقيقي.

طبعًا «الأدب الحقيقي» الشهير... كان دائمًا لحظة مع أشخاص مثل أوديبير حيث يعود هذا التعبير، أو تعبير «الكاتب الحقيقي»، ليبرز مجدّدًا. إلّا أنّني لم أسمح لأيّ شخص بأن يملي عليّ ما يجب قراءته أو عدم قراءته. وأن ينصّب المرء نفسه حكمًا ويقرّر ما إذا كان عمل ما يندرج ضمن خانة الأدب أم لا هو بالنسبة إليّ ضرب من الغرور لا أحتمله.

– هل تعرف الكثير من القرّاء الحقيقيين حولك؟ سألني المكتبيّ والحماسة بادية على وجهه. أنا أقصد القرّاء الأذكياء الذين يمضون أوقاتًا لا يستهان بها في قراءة الكتب الجدّية.

ومن دون أن ينتظر إجابتي، واصل حديثه بشغف أكبر:

– بيني وبينك، ما عدد القرّاء الحقيقيين المتبقّين في فرنسا؟ عشرة آلاف؟ خمسة آلاف؟ ربّما أقلّ.

– أجدك متشائمًا.

– لا لا! علينا الاعتراف بذلك: لقد أصبحنا في صحراء أدبية. اليوم، الكلّ يريد أن يكون كاتبًا ولم يعد أحد يقرأ.

لكي أضع حدًّا لهذا الحديث، أشرت إلى صورة فاولز في الألبوم.

– ناثان فاولز، هل تعرفه؟

تجهّم أوديبير وبات وجهه عبوسًا حذرًا.

– قليلًا. حسنًا، هذا إن كان يمكن معرفة ناثان فاولز...

قدّم لي فنجانًا من القهوة بلون الحبر وثقله.

– عندما جاء فاولز لتوقيع كتابه هنا في العام 1995 أو 1996، كانت المرّة الأولى التي تطأ فيها قدمه الجزيرة. وقد أُغرم بها فورًا.

لا بل ساعدته بنفسي لشراء منزله «لا كروا دو سود». لكن بعد ذلك، لم يعد هناك تقريبًا أيّ علاقة تربط بيننا.

– هل يقصد المكتبة أحيانًا؟

– لا أبدًا.

– إذا ذهبت لرؤيته، فهل تعتقد أنّه سيوافق على توقيع كتاب لي؟

هزّ أوديبير رأسه وهو يتنهّد:

– أنصحك فعلًا أن تنسى هذه الفكرة: فهي أفضل طريقة ليُطلق النار عليك.

مقابلة وكالة فرانس برس مع ناثان فاولز

وكالة فرانس برس – 12 يونيو 1999 (مقتطف)

هل تؤكّد أنّك تضع حدًّا لمهنتك كروائي في سنّ الخامسة والثلاثين، وأنت في ذروة مجدك؟

نعم، لقد سئمت من كلّ ذلك. أكتب بجدّية منذ عشر سنوات. لقد أمضيت عشر سنوات وأنا أجلس كلّ صباح على كرسيّ أحدّق في لوحة المفاتيح. لا أرغب في هذه الحياة بعد الآن.

قرارك نهائي؟

نعم. الفنّ مسيرة طويلة، والحياة قصيرة.

لكنّك أعلنت في العام الماضي أنّك تعمل على تأليف رواية جديدة بعنوان موقّت هو «صيف لا يقهر»...

لم يتجاوز المشروع مرحلة صوغ المسوّدة وقد تخلّيت عنه نهائيًّا.

ما الرسالة التي توجّهها إلى جمهور القرّاء الكبير الذي ينتظر كتابك المقبل؟

فليتوقّف عن الانتظار. لن أؤلّف كتبًا بعد الآن. فليقرأ أعمال مؤلّفين آخرين. وما أكثرهم.

هل مهنة الكتابة صعبة؟

نعم، مع أنّها على الأرجح أقلّ صعوبة من وظائف أخرى كثيرة. ما يسبّب التعقيدات ويثير القلق هو الجانب اللامنطقي للكتابة: فأن تؤلّف ثلاث روايات، لا يعني أنك ستتمكّن من كتابة الرابعة. لا طرائق، ولا قواعد، ولا مسارات مُحدّدة بعلامات. في كلّ مرّة تبدأ كتابة رواية جديدة، تكون القفزة هي نفسها في المجهول.

في الواقع ماذا تُجيد غير الكتابة؟

يبدو أنّني أجيد إعداد طبق شرائح العجل بشكل ممتاز.

هل تعتقد أنّ رواياتك ستنتقل إلى الأجيال المقبلة؟

آمل ألّا يحصل ذلك.

ما الدور الذي يمكن أن يؤدّيه الأدب في المجتمع المعاصر؟

لم أطرح على نفسي هذا السؤال قطّ ولا أنوي أن أفعل ذلك اليوم.

هل قرّرت أيضًا التوقّف عن إجراء المقابلات؟

لقد أُجرِيَت مقابلات كثيرة معي... إنّه أسلوب مشوّه للوقائع ولم يعد له أهمّية سوى الترويج. في معظم الأحيان – كي لا أقول دائمًا – يُنقَل كلامك بشكل غير دقيق، ومقتطع، وخارج سياقه. لقد حاولت كثيرًا، لكنّني لا أشعر بالرضا بتاتًا عن «شرح» رواياتي، أو حتى الإجابة عن أسئلة حول خطّي السياسي أو حياتي الخاصّة.

لكنّ معرفة سيرة الكتّاب الذين نقدّرهم تسمح لنا بفهم كتاباتهم بشكل أفضل...

على غرار مارغريت أتوود، أعتقد أنّ الرغبة في مقابلة روائي لأنّك تحبّ كتابًا له هي مثل الرغبة في مقابلة بطّة لأنّك تحبّ الفوا غرا.

لكن أليس مشروعًا الشعور برغبة في طرح الأسئلة على كاتب عن معنى عمله؟

لا، هذا ليس مشروعًا. العلاقة الوحيدة المقبولة مع الكاتب هي قراءة أعماله.



2

تعلّم مهنة الكتابة

تبدو الفروسية حالة مستقرّة مُقارنة
بمهنة الكتابة.

جون ستاينبيك

بعد مرور أسبوع
الثلاثاء 18 سبتمبر 2018

.1

منخفض الرأس، ويداي متشبّثتان بالمقود، تابعت الدوس للوصول إلى قمّة الطرف الشرقي من الجزيرة. كنت أتصبّب عرقًا. بدت درّاجتي المستأجرة تزن طنًّا وكانت حقيبة ظهري ترهق كتفَيّ.

سرعان ما أُغرِمتُ أنا أيضًا ببومون. خلال الأيّام الثمانية التي عشتها هنا، استفدت من وقت فراغي لاستكشاف زوايا الجزيرة كافّة والتعرّف إلى تضاريسها.

الآن أصبحت أعرف جيّدًا الساحل الشمالي لبومون. حيث يقع الميناء، والمدينة الرئيسية، وأجمل الشواطئ. كان يصعب الوصول

إلى الساحل الجنوبي الذي غزته المنحدرات والصخور، فالمنطقة برّية أكثر من الساحل الشمالي ولكنّها لا تقلّ جمالًا عنه. لم أغامر في الذهاب إلى هناك سوى مرّة واحدة فقط، إلى شبه جزيرة القدّيسة صوفيا، قاصدًا الدير الذي يحمل الاسم نفسه حيث لا يزال يعيش حوالى عشرين راهبة من راهبات البينديكتيين.

في الجهة المقابلة، لم يكن الوصول ممكنًا إلى رأس سافرانييه التي كنت متّجهًا إليها حاليًّا من الطريق العامّ الذي يبلغ طوله 40 كيلومترًا ويلفّ الجزيرة. للوصول إلى هناك، كان عليّ أن أجتاز آخر شاطئ في الشمال – شاطئ آنس دارجان وأن أسلك طريقًا ترابيًّا ضيّقًا مسافة كيلومترين وسط غابة صنوبر.

وفقًا للمعلومات التي تمكّنت من جمعها خلال الأسبوع، يقع مدخل مقرّ ناثان فاولز في نهاية هذا الطريق، الذي يحمل اسمًا جميلًا: درب علماء النبات. عندما وصلت أخيرًا إلى هناك، لم أجد سوى بوّابة من الألومنيوم مُحاطة بسور خارجي شاهق مصنوع من كُسارة الصخور الزيتية. لم يكن هناك صندوق بريد أو ذكر لاسم المالك. كان المنزل يعرف باسم لا كروا دو سود، لكن لم تكن هناك إشارة إلى ذلك في أيّ مكان. كان هناك فقط بعض اللافتات التي ترحّب بحفاوة بالزوّار: ملكية خاصّة، ممنوع الدخول، كلب شرس، منطقة مراقبة بالفيديو... لم يكن هناك حتى إمكانية لقرع الجرس أو الإشارة إلى وجود أحد في الملكية بأيّ شكل من الأشكال. كانت الرسالة واضحة للغاية: «كائنًا من تكون، أنت غير مرحّب بك».

ترجّلت عن درّاجتي وسرت مشيًا على طول السور. فجأة، تحوّلت الغابة إلى أحراش كثيفة من الخلنج، والآس، والخزامى البرّية. بعد خمسمئة متر بلغت منحدرًا يُعانق البحر.

رغم احتمال أن تتكسّر عظامي، رحت أنزلق على الصخور حتى وجدت نقطة أرتكز عليها. زحفت على طول جرف حتى تمكّنت من تجاوزه لبلوغ نقطة بات فيها الجدار أقلّ انحدارًا. بعد أن تغلّبت على هذه العقبة، واصلت السير في محاذاة الشاطئ نحو خمسين مترًا تقريبًا، وعند منعطف إحدى الكتل الصخرية، لمحتها أخيرًا: فيلّا ناثان فاولز.

بُنِيَت الفيلّا على مُنحدر الجرف، فبدت محفورة في الصخر. بحسب التقاليد العريقة للفنّ المعماري الحديث، كان شكلها متوازي الأسطح ومزخرفًا ببلاط من الخرسانة المسلّحة الخامّ الخشنة. كانت مؤلّفة من ثلاثة طوابق مُحاطة بشرفات ومتّصل بعضها ببعض بدرج من حجر يؤدّي بشكل مباشر إلى البحر، حيث بدت قاعدة المبنى منصهرة مع الجرف. كانت تضمّ سلسلة من النوافذ الدائرية الشبيهة بنوافذ المراكب. وقد بدا من الباب العالي والواسع الذي اخترقها أنّها مرسًى للقوارب. هو مرسًى خشبي في نهايته قارب بمحرّك هيكله خشبي لامع.

بينما كنت أواصل التقدّم بحذر على الصخور، ظننت أنّني لمحت ظلًّا يتحرّك على الشرفة المتوسّطة. هل يُمكن أن يكون فاولز نفسه؟ وضعت يدي فوق عينيّ لحجب الشمس محاولًا تمييز خيال هذا الشخص بشكل أفضل. كان خيال رجل يثبّت... بندقيّة على كتفه.

.2

بالكاد كان لديّ الوقت لألقي بنفسي وراء صخرة حين سمعت أزيز طلقة نارية في الهواء. على بُعد أربعة أو خمسة أمتار خلفي، أدّى ارتطام رصاصة إلى تطاير شظايا حادّة سقطت بالقرب من أذنيّ. بقيت

منبطحًا على الأرض مدّة دقيقة كاملة. كان قلبي يخفق بقوّة، وجسدي كلّه يرتجف فيما قطرات العرق تتصبّب على طول عمودي الفقري. لم يكذب أوديبير. كان فاولز قد فقد صوابه تمامًا وكان يُطلق النار على الذين يغامرون ويتسلّلون إلى داخل ممتلكاته. بقيت ممدّدًا على الأرض؛ لم أعد أتنفّس. بعد هذا التحذير الأول، صاح فيّ صوت المنطق لأنقذ نفسي من دون أي تردّد أو تفكير. ومع ذلك، قرّرت عدم التراجع. بل على العكس، نهضت وتابعت تقدّمي نحو المنزل. نزل فاولز الآن إلى الطابق السفلي، على العتبة المرتفعة المطلّة على الصخور. أصابت طلقة ثانية جذع شجرة كانت الرياح قد اقتلعتها. فانفجر الجذع وتطايرت شظايا الخشب الميت وخدشت وجهي. شعرت بخوف لم يسبق أن انتابني من قبل. أصررت بعناد تقريبًا رغمًا عنّي على القفز من صخرة إلى أخرى. ناثان فاولز، الرجل الذي كنت عاشقًا لرواياته، لا يمكن أن يكون قاتلًا مُحتملًا. ولكي يُبرهن لي العكس، أدّت طلقة ثالثة إلى تطاير الغبار على بعد خمسين سنتيمترًا فقط من حذاء الكونفرس الذي كنت أنتعله.

سرعان ما أصبحت على بعد أمتار قليلة منه.

– ارحل من هنا! هذه ملكية خاصّة! صاح من أعلى العتبة.

– هذا ليس سببًا لكي تُطلق النار عليّ!

– بالنسبة إليّ هو سبب كافٍ!

أبهرتني أشعّة الشمس. كنت عاجزًا عن تمييز تفاصيل طيف فاولز وهو يقف بعكس الضوء. متوسّط القامة إنّما قوي البنية، كان يعتمر قبّعة بنما ويضع نظّارة شمس بانعكاسات زرقاوية. الأهمّ هو أنّه كان لا يزال يوجّه بندقيّته نحوي، مستعدًّا لإطلاق النار.

– ماذا تفعل هنا بحقّ الجحيم؟

– جئت لرؤيتك يا سيد فاولز.

سحبت حقيبة الظهر لإخراج مخطوطة «خجل القمم».

– اسمي رافاييل باتاي. ألّفت رواية. أتمنّى أن تقرأها لتعطيني رأيك.

– لا آبه إطلاقًا بروايتك. ولا يحق لك أبدًا أن تأتي وتتربّص بي في عقر داري.

– أنا أحترمك جدًّا وبالتالي لن أتجرّأ أبدًا على التربّص بك.

– ومع ذلك، هذا ما تفعله الآن. لو كنت حقًّا تحترمني، لاحترمت أيضًا حقّي في عدم التعرّض للإزعاج.

انضمّ إلى فاولز على التراس كلب فظيع من فصيلة غولدن ريتريفر وبره ذهبي اللون، وراح ينبح في اتّجاهي.

– لماذا واصلت التقدّم وأنا أطلق النار عليك؟

– عرفت أنّك لن تقتلني.

– ما الذي أوحى لك بذلك؟

– لأنّك كتبت «لوريلاي ستراينج» و«المحطّمون».

سمعته يضحك هازئًا وأنا ما زلت معميًّا من الضوء المُعاكس.

– إن كنت تعتقد أنّ الكتّاب يتمتّعون بالفضائل الأخلاقية التي ينسبونها إلى شخصياتهم، فأنت ساذج حقًّا. لا بل حتى غبي بعض الشيء.

– اسمع، أنا لا أودّ سوى بعض النصائح منك. لتحسين كتاباتي.

– نصائح؟ لم تجعل أيّ نصيحة كاتبًا أفضل ممّا كان! لو كانت لديك ذرّة من الذكاء، لكنت فهمت ذلك بنفسك.

– أن تعير الآخرين قليلًا من الانتباه لا يضرّ أحدًا.

– لا يُمكن أحدًا أن يعلّمك كيفية الكتابة. هذا أمرٌ عليك أن تتعلّمه بنفسك.

بدا فاولز مُفكّرًا، واسترخى لحظة ليداعب رأس كلبه قبل أن يُكمل:

– حسنًا، أردت نصيحة، وها قد حصلت عليها. ارحل من هنا الآن.

– هل يمكن أن أترك لك مخطوطتي؟ سألته وأنا أخرج الصفحات المُجلّدة من حقيبتي.

– لا، لن أقرأها. لا أمل بذلك.

– تبًّا، أنت صعب المراس!

– رغم ذلك سأقدّم لك نصيحة أخرى مجّانية: افعل شيئًا آخر في حياتك بدلًا من أن تصبح كاتبًا.

– هذا ما ينصحني به والداي طوال الوقت.

– هذا يُثبت أنّهما أقلّ غباء منك.

.3

هبّت رياح قوية مفاجئة فتسبّبت في تدفّق موجة على الصخرة حيث كنت موجودًا. لتجنّبها، تسلّقت مجموعة أخرى من الصخور، ما جعلني أقرب إلى الروائي.

كان قد أعاد وضع بندقيّة البومب أكشن تحت كتفه. كانت من طراز ريمنجتن وينجماستر، مزوّدة بذراع مزدوجة منزلقة، كتلك التي كنّا نراها أحيانًا في الأفلام القديمة، حتى لو كانت مصنّفة بندقيّة صيد.

– ما اسمك على فكرة؟ سألني بعد أن انحسرت الموجة.

– رافاييل، رافاييل باتاي.

– وكم عمرك؟

– أربع وعشرون سنة.

– منذ متى وأنت ترغب في الكتابة؟

– منذ فترة طويلة. هذا فقط ما يهمّني.

اغتنمت فرصة الاستحواذ على انتباهه، واسترسلت في مونولوج لأشرح له إلى أيّ درجة شكّلت القراءة والكتابة، منذ طفولتي، خشبة خلاص ساعدتني على تحمّل رتابة العالم وتفاهته. وكيف بنيت بفضل الكتب حصنًا داخليًا...

– هل ستواصل سرد الكليشّيهات فترة طويلة؟ قاطعني سائلًا.

– ليست كليشّيهات، احتججت منزعجًا وأنا أعيد وضع مخطوطتي في حقيبة الظهر.

– لو كنت في عمرك اليوم، لكانت لديّ طموحات أخرى غير الرغبة في أن أصبح كاتبًا.

– لماذا؟

– لأنّ حياة الكاتب هي الشيء الأقلّ روعة في العالم، تنهّد فاولز. أنت تعيش كالأحياء الأموات، وحيدًا ومنقطعًا عن العالم. تبقى في ثوب النوم طوال النهار وتؤذي عينيك مسمّرًا أمام الشاشة وأنت تتناول البيتزا الباردة وتتحدّث إلى شخصيات خياليّة ستفقدك صوابك في نهاية المطاف. تمضي لياليك وأنت تعصر أفكارك لتكتب جملة لن يلحظها ثلاثة أرباع قرّائك القلائل. هذه هي خلاصة أن تكون كاتبًا.

– لكنّ الأمر لا يقتصر على ذلك...

تابع فاولز كلامه كما لو أنّه لم يسمع شيئًا:

– وأسوأ ما في الأمر هو أن تصبح في نهاية المطاف مُدمنًا هذه الحياة المقرفة لأنّك تتوهّم أنّك الخالق، بواسطة قلمك ولوحة مفاتيحك، وتملك القدرة على ترقيع الواقع.

– يسهل عليك قول ذلك. لقد حصلت على كلّ شيء.

– علامَ حصلت؟

– ملايين القرّاء، والشهرة، والمال، والجوائز الأدبية، ونساء في سريرك.

– بصراحة، إذا كنت تكتب فقط للحصول على المال والنساء، فاختر مهنة أخرى.

– أنت تعرف ما أقصد.

– لا. ولا أعرف حتى لماذا أجادلك.

– سأترك لك مخطوطتي.

اعترض فاولز، لكنّني لم أضيّع الوقت ورميت الحقيبة نحو التّراس حيث كان يقف.

تفاجأ الروائي وحاول أن يحيد بعيدًا من الحقيبة كي لا تصيبه. زلّت قدمه اليمنى وسقط على الصخرة.

كتم صيحة، وحاول النهوض على الفور مُطلقًا شتيمة:

– تبًا وتبًا ألف مرّة. كاحلي!

– أنا مُحرج. سأساعدك.

– لا تقترب منّي! إن كنت تريد مساعدتي، فابتعد قدر المستطاع ولا تعد أبدًا!

التقط بندقيّته وصوّبها نحوي. هذه المرّة، لم أعد أشكّ في أنّه قادر على أن يرديني فورًا. استدرت وهربت، منزلقًا على الصخور، متشبّثًا بيد واحدة ومن ثمّ بالأخرى وقد نسيت كرامتي تقريبًا للهروب من غضب الروائي.

وأنا أبتعد من المكان، تساءلت كيف يمكن أن يتلفّظ ناثان فاولز بهذا الكلام المُحبط اليوم. كنت قد قرأت مقابلات لا تعدّ ولا تُحصى أُجرِيَت معه قبل العام 1999. قبل انسحابه من الساحة الأدبية، لم يكن فاولز يتردّد ولو لحظة في التحدّث إلى وسائل الإعلام.

كان كلامه دائمًا لطيفًا ويسلّط الضوء على حبّه للقراءة والكتابة. ما الذي جعله ينقلب من النقيض إلى النقيض؟

لماذا قد يتخلّى رجل في ذروة مجده فجأة عن كلّ ما يحبّ أن يفعله، وعن كلّ ما يبنيه ويؤمن عيشه، ليعيش في عزلة؟ ما الذي خرّب حياة فاولز إلى درجة أنّه تخلّى عن كلّ ذلك؟ اكتئاب شديد؟ حداد؟ مرض؟ لم يتمكّن أحد من الإجابة عن هذه الأسئلة.

إحساس في داخلي أنبأني بأنّني إن تمكّنت من كشف لغز ناثان فاولز، فسأنجح أيضًا في تحقيق حلمي بنشر كتاب.

حين عدتُ إلى الغابة، ركبت درّاجتي وتوجّهت مجدّدًا نحو الطريق للوصول إلى المدينة. كان يومي مُثمرًا. ربّما لم يقدّم لي فاولز درس الكتابة الذي كنت أتوقّعه، لكنّه فعل ما هو أفضل من ذلك: لقد أعطاني موضوعًا رائعًا لتأليف رواية، ومنحني الطاقة التي أحتاج إليها لكي أباشر كتابتها.

3

قائمة مشتريات الأدباء

لا أنتمي إلى زمرة الأدباء الرديئين الذين يزعمون أنّهم لا يكتبون إلّا لأنفسهم. لا يكتب المؤلّف لنفسه سوى قائمة المشتريات التي يرميها بعد شراء حاجياته. كلّ الكتابات عداها (...) هي رسائل موجّهة إلى شخص آخر.

أمبرتو إيكو

بعد ثلاثة أسابيع

الإثنين 8 أكتوبر 2018

.1

كان القلق الشديد يتأكّل ناثان فاولز من الداخل.

كان يجلس في كنبةٍ ويرفع قدمه اليُمنى المثبّتة بالجصّ على مقعدٍ منخفض منجّد بالصوف الناعم. كان مشوّش التفكير. فكلبه برونكو، الكائن الوحيد الذي يهمّه وجوده على هذه الأرض، مفقود منذ يومين. كان من عادة الغولدن ريتريفر أن يختفي ساعة

أو ساعتين أحيانًا، لكن ليس أكثر. لا شكّ في أنّ مكروهًا قد أصابه. حادث، إصابة، خطف.

في الليلة السابقة، اتّصل ناثان بجاسبر فان ويك، وكيله الأدبي من نيويورك، وصلة الوصل الأساسية التي تربطه بالعالم الخارجي، والشخص الأقرب ما يكون إلى الصديق، ليطلب منه نصيحة. عرض جاسبر أن يتّصل شخصيًّا بجميع التجّار في بومون. كما طلب من أحد موظّفيه إعداد إعلان صغير يعد بمنح مكافأة قدرها ألف يورو لمن يعثر على الكلب، وأرسلها إليهم عبر البريد الإلكتروني. لم يبقَ الآن سوى الانتظار والتمنّي بأن يُعثَر عليه.

تنهّد ناثان وهو يتأمّل كاحله المُجبّر. شعر برغبة في شرب كأس ويسكي رغم أنّ الساعة لم تكن قد تخطّت الحادية عشرة صباحًا بعدُ. مرّ عشرون يومًا وهو محتجز يلازم المنزل بسبب هذا اللعين رافاييل باتاي. في البداية، ظنّ أنّه أصيب بالتواء بسيط في الكاحل وأنّ علاجه لن يتطلّب سوى وضع كيس من الثلج على المفصل، وتناول بعض أقراص الباراسيتامول. ولكن عندما استيقظ صباحَ اليوم التالي لاقتحام ذاك الفتى حرمة منزله، أدرك أنّ الأمور ستكون أكثر تعقيدًا. فلم تقتصر الإصابة على انتفاخ كاحله، لا بل تعذّر عليه أن يخطو خطوة واحدة من دون أن يصرخ من شدّة الألم.

مرغمًا، اضطرّ أن يستدعي جان لويس سيكار، الطبيب الوحيد في بومون، صاحب الأطوار الغريبة، الذي يتنقّل منذ ثلاثين سنة في أرجاء الجزيرة كافّة على درّاجة نارية قديمة. لم يكن تشخيص سيكار للإصابة يدعو إلى التفاؤل قطّ، فأربطة الكاحل كانت مقطوعة، وغلاف المفصل ممزّقًا، وأحد الأوتار ملتهبًا بشدّة.

أمره سيكار بالراحة التامّة. ووضع له جبيرة من الجصّ بلغت ركبته تقريبًا، وهذا ما أفقده صوابه منذ ثلاثة أسابيع.

كان فاولز يتنقّل متّكئًا على عكّازيه، ويدور حول نفسه كأسد مُحتجز في قفص، كما كان يتناول مضادّات التخثّر لتجنّب الإصابة بجلطة. لحسن الحظ، كان سيتحرّر من سجنه هذا بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة. في أولى ساعات صباح ذلك اليوم، هو الذي نادرًا ما كان يستخدم هاتفه، اتّصل بالطبيب العجوز ليتأكّد من أنّه لم ينس موعدهما. حتى أنّه حاول إقناع سيكار بالمجيء في اليوم نفسه، لكنّ محاولته باءت بالفشل.

.2

أيقظ رنين الهاتف الجداري فاولز من سباته. لم يكن الروائي يملك هاتفًا محمولًا أو بريدًا إلكترونيًّا أو حاسوبًا. هاتفه عبارة عن سمّاعة قديمة من الباكليت مثبّتة على عمود خشب يفصل بين غرفة الجلوس والمطبخ. لم يكن فاولز يستخدم هذا الهاتف إلّا لإجراء المكالمات. لم يكن يُجيب قطّ على الاتّصالات التي ترده، بل كان يترك المجيب الآلي في الطابق العلوي يتولّى المهمّة. لكن اليوم دفعه اختفاء كلبه إلى تغيير عاداته. نهض من مكانه، وهو متّكئ على العكّازين، وجرّ نفسه ليصل إلى الهاتف.

كان المتّصل جاسبر فان ويك.

– لديّ خبر سارّ لك يا ناثان: لقد وجدنا برونكو!

تنفّس فاولز الصعداء.

– هل هو بخير؟

– هو بحال جيّدة جدًّا، أكّد وكيله الأدبي.

– أين عُثر عليه؟

– رأته امرأة شابّة على الطريق بالقرب من شبه جزيرة القدّيسة صوفيا واقتادته إلى إدز كورنر.

– هل طلبت من إد أن يأتيني ببرونكو؟

– الشابّة مُصرّة على اصطحابه بنفسها إليك.

شعر ناثان بأنّها مكيدة مُدبّرة. كانت شبه الجزيرة تقع في الطرف الآخر من بومون، في الاتّجاه المقابل لرأس سافرانييه. ماذا لو كانت هذه المرأة قد خطفت كلبه لكي تتمكّن من الوصول إليه؟ في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، تمكّنت الصحافية بيتي إيبس من خداع سالينجر حين كذبت بشأن هويّتها وحوّلت مُحادثة عادية أجرتها معه إلى مقابلة عرضتها في الصحف الأميركية.

– من هي هذه المرأة بالضبط؟

– ماتيلد مونّي. إنّها سويسرية، كما أعتقد. قصدت الجزيرة في إجازة. استأجرت غرفة في النزل بالقرب من دير راهبات البينديكتيين، وهي صحافية في صحيفة «لو تان» في جنيف.

تنهّد فاولز منزعجًا. ألم يكن ممكنًا أن تكون بائعة زهور، أو جزّارة، أو ممرّضة، أو كابتن طائرة؟

هل يجب أن تكون صحافية؟

– انس الأمر يا جاسبر، لست مطمئنًّا لهذا الوضع.

أحكم إغلاق قبضته وضرب العمود الخشب. كان بحاجة إلى كلبه، وكان برونكو بحاجة إليه، لكنّه كان عاجزًا عن قيادة سيّارته ليذهب ويحضره. إلّا أنّه لم يكن سببًا يختبئ خلفه للوقوع في الفخ. صحافية في «لو تان»... تذكّر مراسلًا لهذه الصحيفة كان قد أجرى مقابلةً معه في الماضي في نيويورك. هو رجل ادّعى التواصل الفكري معه، لكنّه لم يفهم الرواية البتّة. ربّما هؤلاء هم الأسوأ: الصحافيون الذين يكتبون مراجعة جيّدة عن كتابك من دون أن يفهموا أيّ شيء فيه.

– ربّما هي مجرّد مصادفة أن تكون صحافية، أردف جاسبر.

– مصادفة؟ هل أنت غبي أم إنّك تعبث معي؟

– اسمع، لا تقلق يا ناثان. دعها تأتِ إلى لا كروا دو سود، واستعد كلبك منها ثمّ اطردها على الفور.

أمسك فاولز بسمّاعة الهاتف بيد واحدة، ثمّ دلّك جفنيه ليفكرّ بضع ثوانٍ إضافية. شعر بالضعف لأنّه أسير قدمه المجبّرة، وكره ذلك الشعور المقيت بأنّه وضع في موقفٍ خارج عن سيطرته.

– حسنًا، قال مستسلمًا للفكرة رغم كلّ شيء. عاود الاتّصال بها. عاود الاتّصال بماتيلد مونّي تلك. قل لها أن تأتي في وقت مبكر من بعد الظهر، وزوّدها بالإرشادات للوصول إلى هنا.

.3

إنّها الظهيرة. بعد جدال دام عشرين دقيقة، تمكّنتُ من بيع نسخة من كتاب مانغا بعنوان «حيّ بعيد»، وهو من روائع الكاتب الياباني تانيغوتشي، فابتسمت. والحال أنّه وفي أقلّ من شهر، تمكّنت من تغيير المكتبة. بالطبع، لم يكن التحوّل جذريًا، بل أتى على شكل سلسلة من التغييرات المهمّة، أصبحت على أثرها المكتبة مساحة أكثر إشراقًا وأكثر تهوئة، يجد فيها الزبائن استقبالًا ودّيًا أكثر. حتى أنّني تمكّنت من إقناع أوديبير بأن يسمح لي بطلب بعض الكتب التي تحثّ على الخيال أكثر من التفكير. أمّا الهدف فكان إرسال إشارات صغيرة تصبّ جميعها في الخانة نفسها: الثقافة مِتعة أيضًا.

لا بدّ لي هنا من الاعتراف بأنّ المكتبي كان له الفضل بذلك لأنّه منحني الحرّية المطلقة. كان يدعني وشأني في المكتبة التي لم يكن يتردّد إليها إلّا نادرًا، كما أنّه لم يكن يخرج من شقّته في الطابق الأول سوى ليذهب ويشرب بعض كؤوس الخمر في الساحة. عندما اطّلعتُ على تفاصيل دفتر الحسابات، اكتشفت أنّه يبالغ في وصف

سوء حالة المكتبة. فقد كان الوضع بعيدًا من الكارثي. وفي التفاصيل أنّ المكتبة هي ملك لأوديبير، لذا، كان يستفيد، شأنه شأن الكثير من التجّار في بومون من دعم سخي يغدقه عليهم سموّ الأمير غاليناري، صاحب الجزيرة. فبقليل من الإرادة وحسن النيّة وبعض الجهد، كان من الممكن أن تستعيد المكتبة عزّها. حتى أنّني وجدتُ نفسي أحلم بإعادة الكتّاب إليها يومًا ما.

– رافاييل؟

أطلّ بيتر مكفارلين، صاحب المخبز في الساحة، برأسه من باب المكتبة. كان اسكتلنديًّا ودودًا، غادر قبل خمس وعشرين عامًا جزيرة لينتقل إلى أخرى. اشتهر بإعداد أطيب تارت بالبصل المكرمل والأنشوفة، وخبز الفوغاس التقليدي. وكان قد أطلق على مخبزه اسم «بريد بيت» استكمالًا لتقليد سخيف نوعًا ما ولا يمتّ لرقي بومون المعتاد بصلة، إلّا أنّ السكّان كانوا متمسّكين جدًّا به، ألا وهو إعطاء كلّ متجر اسمًا قائمًا على التلاعب بالكلمات. وحدهم أصحاب الطباع الحادّة مثل إد رفضوا الامتثال.

– هل ستأتي لشرب كأس قبل تناول الغداء؟ سألني بيتر.

كلّ يوم، كنت أتلقّى دعوة من أحد الجيران لشرب كأس. ففي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، كان الجميع يجلسون على التراسات للاستمتاع بكأس من الباستيس، أو بكأس تيرا دي بيني، النبيذ الأبيض مفخرة الجزيرة. في البداية، وجدت هذا التقليد غريبًا، لكن سرعان ما أدمنته بدوري. في بومون، الجميع يعرف بعضهم بعضًا. أينما ذهبت فستلتقي حتمًا بوجه مألوف فتدردش قليلًا. كان الناس يخصّصون الوقت الكافي للعيش والدردشة مع بعضهم بعضًا. بالنسبة إليّ، كان هذا الأمر جديدًا، لا سيّما أنّني عشت طوال حياتي في

ضواحي باريس، تحت سماء رمادية كئيبة، وسط عدائية الناس تجاه بعضهم بعضًا، وفي ظلّ تلوّث مخيف.

جلست مع بيتر على ترّاس مقهى فلور دو مالت. رحت أحدّق في الوجوه حولي بلا مبالاة، بحثًا عن امرأة شقراء شابّة، هي واحدة من زبائن المكتبة كنت قد التقيت بها في اليوم السابق. اسمها ماتيلد مونّي، وكانت في إجازة في بومون حيث استأجرت غرفة في نزل بالقرب من دير راهبات البينديكتيين. اشترت منّي روايات ناثان فاولز الثلاث رغم أنّها زعمت قراءتها في ما مضى. بدت لي ذكية ومرحة ومشرقة. تحدثّنا مدّة عشرين دقيقة، ومنذ ذلك الحين لا أنفكّ أفكّر بها، وتراودني فكرة لقائها مجدّدًا.

إن كان من أمر واحد سلبي خلال هذه الأسابيع الأخيرة فهو لا شكّ في أنّني لم أكتب سوى القليل. لم أحرز أيّ تقدّم يذكر في مشروعي حول لغز ناثان فاولز الذي أطلقت عليه اسم «حياة الكاتب السرّية». كنت أفتقر إلى المضمون ولم أكن مسيطرًا على الموضوع إطلاقًا. كنت قد أرسلت رسائل إلكترونية عدّة إلى جاسبر فان ويك، وكيل فاولز الأدبي، الذي لم يُجبني يومًا بالطبع؛ وكنت سألت أهالي الجزيرة عنه، لكن لم يُخبرني أحد أمرًا كنت أجهله.

– ما هذه القصّة الغريبة؟ سأل أوديبير، الذي انضمّ إلينا حاملًا كأس نبيذ وردي في يده.

بدا المكتبيّ قلقًا. منذ عشر دقائق، انتشرت إشاعة لا تصدّق في الساحة، وتناقلها عدد لا بأس به من الناس. بحسب الإشاعة، اكتشف متنزّهان هولنديّان جثّة على شاطئ تريستانا بيتش، وهو الشاطئ الوحيد على الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة. المكان خلّاب ولكنّه خطير. ففي العام 1990، قُتل مراهقان كانا يلعبان بالقرب من المنحدرات. كان حادثًا مروّعًا صدم سكّان الجزيرة وهزّ مشاعرهم.

على مقربةٍ من مجموعات صغيرة من الناس كانوا يتحدّثون بصخب، لمحت آنج أغوستيني، أحد الشرطيين في البلدية وهو يُغادر المكان. تبعته تلقائيًا في الأزقّة حتى أدركته لحظة وصوله إلى حيث كانت درّاجته النارية الثلاثية العجلات مركونة بالقرب من الميناء.

– أنت ذاهب إلى تريستانا بيتش، أليس كذلك؟ هل يمكنني مرافقتك؟

التفت أغوستيني متفاجئًا بعض الشيء لأنّني اقتفيت أثره. كان رجلًا أصلع ضخمًا من أصولٍ كورسيكية، لطيفًا وقارئًا نهمًا للقصص البوليسية، ويعشق الأخوين كوهين. وقد عرّفته ذات مرّة بروايات المفضّلة لسيمينون: «المنتحرون»، و«الرجل الذي كان يراقب مرور القطارات»، و«الغرفة الزرقاء».

هزّ كتفيه كمن لا فرق عنده وأجاب:

– اركب إن كنت مصرًّا.

سارت المركبة التي كانت من طراز بياجيو بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومترًا في الساعة على طول الطريق العام. بدا أغوستيني قلقًا. الرسائل التي تلقّاها على هاتفه الخلوي كانت مثيرة للقلق وتلمّح إلى جريمة قتل لا إلى مجرّد حادث.

– أمر لا يُصدّق، قال مُتمتمًا، لا يمكن أن تقع جريمة قتل في بومون.

فهمت ما قصده. لم يسبق أن حدثت في بومون أعمال إجرامية. لم يحصل تقريبًا أيّ اعتداء، وعمليات السرقة قليلة جدًّا. يشعر الناس بالأمان إلى درجة أنّهم يدعون مفاتيحهم في ثقب باب البيت، أو يتركون أطفالهم في العربات خارج المتاجر. تعدّ الشرطة المحلّية أربعة أو خمسة عناصر فقط، ويقتصر الجزء الأكبر من عملهم

على التحدّث مع السكّان، وإجراء الدوريات، والإبلاغ عن أجهزة الإنذار المعطّلة.

4.

كلّما تعرّج الساحل بسبب التضاريس الوعرة، ساءت حال الطريق التي كنّا نسلكها. استغرق الوصول إلى شاطئ تريستانا بيتش 20 دقيقة بالتمام والكمال. عند المنعطفات، كنّا نرى الفلل البيضاء الكبيرة أحيانًا، عندما لا تخبّئها هكتارات من غابات الصنوبر فتحجبها عن الرؤية تمامًا.

فجأة، تغيّر المشهد بشكل جذري ليحلّ مكانه سهل صحراوي يُطلّ على شاطئ من الرمال السوداء. بدت بومون في تلك المنطقة أشبه بآيسلندا أكثر من بوركيرول.

– ما هذه الفوضى هنا؟

ضغط آنج أغوستيني دوّاسة الوقود، فوصلت سرعة المركبة إلى خمسة وأربعين كيلومترًا في الساعة على المنحدر المستقيم، وهو يشير إلى نحو عشر سيّارات تقريبًا كانت تقطع الطريق. كنّا كلّما اقتربنا، اتّضح الوضع أكثر. طُوِّقَت المنطقة بالكامل من رجال الشرطة الذين جاؤوا من المدينة. ركن أغوستيني مركبته إلى جانب الطريق وسار في مُحيط المنطقة المعزولة بأشرطة بلاستيكية. لم أفهم شيئًا ممّا يحدث. كيف تمكّن هذا العدد من الرجال – وهم عناصر الشرطة القضائية في طولون، لكن كان هناك أيضًا سيّارة تابعة للشرطة الجنائية – من الانتشار بهذه السرعة في هذا الجزء الوعر من الساحل؟ كيف وصلت سيّاراتهم الثلاث المطبوعة عليها شارات الشرطة؟ لماذا لم يرهم أحد عند وصولهم إلى الميناء؟

تسلّلت بين حشد المتفرّجين ورحت أستمع لكلّ الأحاديث التي دارت هناك. فتمكّنت شيئًا فشيئًا من إعادة نسج الخطوط العريضة للسيناريو الذي توالت أحداثه صباحًا. قُرابة الساعة الثامنة صباحًا، اكتشف طالبان هولندّيان كانا يخيّمان في البرّية جثّة امرأة. اتّصلا فورًا بمركز شرطة طولون التي حصلت على إذن لاستخدام الحوّامات التابعة للسلطات الجمركية لإرسال مجموعة من رجال الشرطة وثلاث سيّارات إلى الجزيرة. للحفاظ على مزيد من السرّية، نزل رجال الشرطة مباشرة في قاعدة ساراغوتا، على بعد نحو عشرة كيلومترات من هنا.

التقيت أغوستيني على مسافة قريبة، على تلّ صغير إلى جانب الطريق. بدا مستاءً وذليلًا بعض الشيء لعدم تمكّنه من الولوج إلى مسرح الجريمة.

– هل تعرّف أحدٌ إلى الضحّية؟ سألته.

– ليس بعد، لكن يبدو أنّها ليست من سكّان الجزيرة.

– لماذا جاء رجال الشرطة بهذه السرعة وبهذا العدد؟ لماذا لم يبلّغوا أحدًا؟

نظر إلى هاتفه الخلوي مستغرقًا في أفكاره.

– بسبب طبيعة الجريمة، والصور التي أرسلها الهولندّيان.

– هل التقطا صورًا؟

أومأ أغوستيني برأسه إيجابًا.

– لقد تمّ تداولها بضع دقائق على تويتر قبل سحبها. لكنّ لقطات الشاشة ما زالت موجودة.

– أيمكنني رؤيتها؟

– بصراحة لا أنصحك بذلك، لا يمكن مكتبيًا تحمّل هذا المشهد.

– هـذا مجّـرد كـلام فـارغ! كـان بإمكاني أن أراهـا أنـا أيضًا على تويتر.

– كما تشاء.

أعطاني هاتفه. ما رأيته أشعرني بالغثيان. أظهرت الصور جثّة امرأة. وجدت صعوبة في تحديد سنّها لتشوّه وجهها بسبب العنف الذي تعرّضت له. حاولت أن أبلع ريقي، لكنّ المشهد المرعب شلّ حلقي. بدا جسم المرأة العاري مسمّرًا إلى جذع شجرة كينا ضخمة. كبّرت الصورة على شاشة اللمس. لم تكن المرأة معلّقة بمسامير على الجذع، بل بأزاميل لقطع الخشب أو أدوات مخصّصة لنحّاتي الصخور طحنت عظامها وانغرزت في جسدها.

.5

خلف مقود الشاحنة المكشوفة، كانت ماتيلد مونّي تعبر الغابة الممتدّة حتى رأس سافرانييه. في مقعد السيّارة الخلفي، كان برونكو يراقب المناظر الطبيعية وهو ينبح. كان الطقس جميلًا. امتزجت رائحة نسيم البحر العليل بعبير الكينا والنعناع. وقد شقّت انعكاسات شمس الخريف البرونزية طريقها بين أوراق شجر الصنوبر الثمري والسنديان الأخضر.

حين بلغت السور الملبّس بحجر الشست البلّوري، ترجّلت ماتيلد من السيّارة واتّبعت التعليمات التي زوّدها بها جاسبر فان ويك. بالقرب من بوّابة الألمنيوم، وخلف حجرٍ لونه غامق أكثر من لون الحجارة الأخرى، كان ثمّة جهاز تواصل داخلي مخفي. رنّت ماتيلد لتُعلن عن وصولها. سُمع صوت طقطقة ومن ثمّ فُتحت البوّابة.

دخلت حديقةً أشبه بالمتنزّه البرّي. سلكت دربًا غير معبّدة تمرّ بين أشجار السكويا وأجمة الغار التي كثّفت الغطاء النباتي. ثمّ

التفّ المسار في اتّجاه مُنحدر حادّ، فظهر في الوقت نفسه البحر ومنزل فاولز، وهو عبارة عن بناء بأشكال هندسية من الحجر الأمغر والزجاج والإسمنت.

ما إن ركنت الشاحنة بجوار ما يفترض أن يكون سيّارة الكاتب، وهي من طراز ميني موك باللون المحيّر، ولها مقود ولوحة قيادة من الخشب الملمّع، حتى قفز الكلب من السيّارة وأسرع إلى صاحبه الذي كان في انتظاره أمام الباب.

كان ناثان متّكئًا على عكّازه، فطار فرحًا بعودة رفيقه. تقدّمت ماتيلد نحوه. كانت قد تخيّلت الكاتب أشبه برجل الكهف، أو قل أشبه بعجوز بربري وفظّ، شعره طويل، يرتدي ملابس بالية، وقد أرخى لحيته حتى بلغ طولها عشرين سنتيمترًا. غير أنّ الرجل الواقف أمامها كان مختلفًا تمامًا. فقد حلق ذقنه حديثًا، وقصّ شعره قصيرًا. كان يرتدي قميص بولو من الكتّان لونه أزرق سماوي مثل عينيه، وبنطالًا من القماش، وينتعل حذاءً رياضيًا من الجلد المشمّع.

– ماتيلد مونّي، عرّفت عن نفسها ومدّت يدها لمصافحته.

– أشكرك على إعادة برونكو.

داعبت بيدها رأس الكلب.

– لقاؤكما بعد غياب مصدر سرور.

أشارت ماتيلد إلى العكّاز والكاحل المُجبّر.

– آمل ألّا تكون الإصابة خطيرة جدًّا.

نفى فاولز بحركة من رأسه.

– غدًا ستصبح مجرّد ذكرى سيّئة.

تردّدت قليلًا، ثمّ قالت له:

– أنت لم تعد تذكر ربّما، لكن سبق أن التقينا.

أثارت كلماتها الريبة في نفسه، فتراجع خطوة إلى الوراء وردّ:

– لا أعتقد ذلك.

– بلى، منذ وقت طويل.

– في أيّ مناسبة؟

– سأدعك تتحزّر.

.6

كان فاولز يعرف أنّه سيذكّر نفسه لاحقًا بأنّه في تلك اللحظة بالذات كان عليه أن يضع حدًّا لكلّ شيء، وأن يلتزم فقط بترديد ما سبق أن اتّفق عليه مع فان ويك، «شكرًا لك ووداعًا» ويدخل المنزل. عوضًا عن ذلك، بقي صامتًا. ووقف شامخًا عند الباب، كما لو أنّ ماتيلد مونّي رمته بسحرها. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا بحبكة جاكار وسترة جلدية، وتنتعل صندالًا له كعب عالٍ وأشرطة رفيعة يزيّنها مشبك موصول ببكلة عند الكاحل.

لم يكن سيعيد تأدية المشهد الأوّل من رواية «التربية العاطفية» فيصف هذا اللقاء الأوّل «بأنّه رؤيا»، لكنّه استسلم برهة حتى الثمالة لسحر تلك المرأة الشابّة، أو قل إنّه مزيج لذيذ من الإحساس المُرهف والحيوية والإشراق المنبعث منها.

كانت ثمالة تحت السيطرة. نشوة رقيقة سمح لنفسه بها. جرعة صغيرة من الشعر الأشقر تذكّر بنور الشمس الدافئ مثل حقول القمح. لم يكن لديه أدنى شكّ ولو لحظة واحدة في قدرته على السيطرة على مسار الأحداث وعلى وضع حدّ لتأثير هذا السحر لحظة يشاء وبسرعة البرق.

– تدين لي بحسب الإعلان بمكافأة قدرها ألف يورو، لكنّني أعتقد أنّني سأكتفي بكوب شاي مُثلّج، قالت ماتيلد مبتسمةً.

تجنّب فاولز عيني مُحاورته الخضراوين، وأوضح لها بفتور أنّه، بعد أن أصبح عاجزًا عن الحركة، لم يذهب للتسوّق منذ فترة طويلة وأنّ خزائن المطبخ لديه كانت فارغة.

– إذًا، كوب من الماء يفي بالغرض، أجابت بإصرار. الجوّ حارّ.

عادةً، كان بارعًا بما فيه الكفاية لتحليل الشخصيات بالفطرة. وغالبًا ما كانت انطباعاته الأولى صائبة. ولكن هذه المرّة، كان متردّدًا بعض الشيء، فقد انتابته أحاسيس متناقضة. انطلق جرس الإنذار في رأسه لتحذيره من ماتيلد. ولكن كيف يمكن مقاومة هذا الوعد الغامض والمبهم الذي حملته في داخلها؟ هالة تنتشر أينما حلّت، رقيقة كشمس الخريف.

– ادخلي، قال لها أخيرًا مستسلمًا.

.7

كان المنظر خلّابًا. السماء تعانق البحر في زُرقةٍ لامتناهية، على مدّ العين والنظر.

فوجئت ماتيلد بالنور الساطع في كلّ أنحاء المنزل. كان المدخل يُفضي مباشرة إلى صالون مفتوح على غرفة طعام ومطبخ. كانت للغرف الثلاث واجهات زجاجية ضخمة مُطلّة على البحر حتى تخال أنّك تبحر وسط الأمواج. عندما دخل فاولز المطبخ ليملأ كوبين من الماء، استسلمت ماتيلد لسحر المكان. كانت تشعر بالأمان هنا على وقع هدير الأمواج المتكسّرة. ألغت فُتحات الأبواب المنزلقة المساحات بين الداخل والتّراس، ما خلق شعورًا سلسًا بالإرباك، إلى درجة أنّه كان يصعب التفرقة بشكل مُطلق ما إذا كنت في الداخل أو في الخارج. وسط غرفة الجلوس، تدلّت مدفأة ملفتة بموقد معلّق. أمّا الدرج، فكان من الإسمنت اللمّاع، تقودنا درجاته المفرّغة إلى الطابق الأعلى.

لطالما تخيّلت ماتيلد أن يكون هذا المكان أشبه بعرين مُظلم، لكنّها كانت مخطئة تمامًا هذه المرّة أيضًا.

لم يأت فاولز ليدفن نفسه في جزيرة بومون، بل على العكس، أراد أن ينفرد بالسماء والبحر والرياح.

– هل يمكنني أن ألقي نظرة على الشرفة؟ سألت حين أعطاها فاولز كوبها.

لم يُجب الروائي، بل اكتفى بمرافقة ضيفته نحو الشرفة الملبّسة بحجر الشست البلّوري الذي يوحي بالتوجّه نحو الفراغ. عند الاقتراب من الحافّة، شعرت ماتيلد بالدوار. فعلى هذا الارتفاع، استوعبت هندسة المنزل بشكل أفضل. كان المنزل متّكئًا على المُنحدر ومؤلّفًا من ثلاثة طوابق، وكانت هي تقف على الترّاس في الدور المتوسّط. انحنت ماتيلد لترى مسار الدرج الحجري الذي يؤدّي إلى عتبة الطابق الأسفل. امتدّ أمامها جسر عائم صغير يسمح بالنفاذ المباشر إلى البحر، ويشكّل مرسًى ليخت رائع من طراز ريفا أكواراما بهيكل من الخشب اللمّاع، تلألأت أجزاؤه المطلية بالكروم تحت أشعّة الشمس.

– تخال نفسك حقًّا على متن سفينة.

– نعم، أجاب فاولز بهدوء، سفينة تبارح مكانها وتبقى راسية طوال الوقت عند رصيف الميناء.

تحدّثا بضع دقائق عن أمور عادية. ثمّ رافقها فاولز إلى الداخل، فاقتربت ماتيلد، التي كانت تتجوّل في أرجاء المكان كما لو أنّها في متحف، من رفّ وُضعت عليه آلة كاتبة.

– ظننت أنّك توقّفت عن الكتابة، سألت وهي تُشير إلى الآلة.

داعب فاولز منحنيات الآلة – من طراز الباكليت الأخضر الفاتح ماركة أوليفيتي.

– إنّها جزء من الديكور فقط. حتى أنّها لم تعد مزوّدة ببكرة حبر، قال ذلك وهو يضغط المفاتيح. لا شكّ في أنّك تعلمين أنّ أجهزة الكمبيوتر كانت متوفّرة في زمني.

– إذًا لم تستخدمها لكتابة...

– لا.

رمقته بنظراتها المتحدّية.

– أنا واثقة في أنّك لا تزال تكتب.

– أنت مخطئة. لم أكتب جملة واحدة منذ زمن، ولا حتى ملحوظة في كتاب، ولا حتى قائمة تسوّق مقتضبة.

– لا أصدّق. لا يتوقّف المرء بين ليلةٍ وضحاها عن نشاط كان يزاوله كلّ يوم و...

قاطعها فاولز سئمًا:

– اعتقدتُ في وهلة أنّك مُختلفة عن الآخرين وأنّك لن تثيري هذا الموضوع، لكنّني كنت مخطئًا. أنت تُعدّين تحقيقًا، أليس كذلك؟ هل أنت صحافية؟ أتيت إلى هنا لتكتبي مقالتك الصغيرة حول «لغز ناثان فاولز»؟

– لا، أقسم لك بذلك.

أرشدها الروائي إلى الباب.

– ارحلي الآن. لا يمكنني أن أمنع الناس من تحليل الأمور وفق تجاربهم الخاصّة، لكنّ لغز فاولز هو بالتحديد أنّه ما من لغز في الأساس، هل فهمتِ؟ وهذا ما يُمكنك كتابته في صحيفتك.

لم تتحرّك ماتيلد قيد أنملة. لم يتغيّر فاولز كثيرًا مُذ قابلته في الماضي. كان كما تذكّرته: متنبّهًا وودودًا، لكنّه كان صريحًا. وأدركت أنّها لم تفكّر فعلًا في احتمال أن يكون فاولز ما زال كما عهدته.

– بيني وبينك، ألا تشتاق إلى ذلك؟

– أن أمضي عشر ساعات في اليوم أمام الشاشة؟ لا. أفضّل أن أمضيها في الغابة أو على الشاطئ وأنا أتنزّه برفقة كلبي.

– ما زلت لا أصدّقك.

هزّ فاولز رأسه وهو يتنهّد.

– توقّفي عن إقحام العواطف في هذه المسألة. كانت مجرّد كتب.

– مجرّد كتب؟ هل أنت فعلًا من يقول ذلك؟

– نعم، والكلام في سرّك، هي كتب مُبالغ في تقديرها.

تابعت ماتيلد طرح أسئلتها:

– وكيف تمضي أيّامك الآن؟

– أتأمّل، وأشرب، وأطبخ، وأشرب، وأسبح، وأشرب، وأتنزّه نزهات طويلة، و...

– هل تقرأ؟

بعض القصص البوليسية أحيانًا وكتبًا عن تاريخ الرسم أو علم الفلك. أعيد قراءة بعض القصص الكلاسيكية، ولكن لا أهمّية لكّل ذلك.

– لِمَ لا؟

– أصبح الكوكب جحيمًا: دول كثيرة تشهد صراعات دموية، والناس يصوّتون للمجانين الساخطين ويضيّعون أوقاتهم على وسائل التواصل الاجتماعي.

– ما علاقة ذلك بقرارك؟

– لذلك أعتقد أنّ هناك أمورًا أكثر أهمّية من معرفة السبب الذي دفع ناثان فاولز منذ عشرين عامًا إلى التوقّف عن الكتابة.

– يواصل القرّاء مُطالعة كتبك.

– لا حيلة لي، لا أستطيع منعهم. ومن ثمّ أنت تعرفين جيّدًا أنّ النجاح يقوم على سوء فهم. دوراس قالت ذلك، صحيح؟ أو ربّما مالرو. عندما يبيع كتاب ما أكثر من ثلاثين ألف نسخة فاعلمي أنّه سوء فهم...

– هل يراسلك قرّاؤك أيضًا؟

– في ما يبدو. أخبرني وكيلي بأنّه يتلقّى الكثير من الرسائل البريدية الموجّهة إليّ.

– هل تقرأها؟

– تمزحين بالطبع.

– لماذا؟

– لأنّ الأمر لا يهمّني. لو كنت قارئًا لما فكّرت في مراسلة روائي أعجبني كتابه. بصراحة، هل تخالين نفسك تراسلين جيمس جويس لأنّ كتابه بعنوان «يقظة فينيغان» أعجبك؟

– لا. أوّلًا لأنّني لم أتمكن قطّ من قراءة أكثر من عشر صفحات من هذا الكتاب، ولأن جيمس جويس قد توفّي قبل ولادتي بأربعين عامًا.

هزّ فاولز رأسه.

– اسمعي، أشكرك على إعادة كلبي، ولكن من الأفضل أن تغادري الآن.

– نعم، هذا رأيي أيضًا.

خرج معها ورافقها إلى سيّارتها. ودّعت الكلب، لكنّها لم توجّه إلى فاولز أيّ كلمة.

تفرّج عليها وهي تشغّل السيّارة، مسحورًا بالأناقة المُجسّدة في حركاتها، ومسرورًا في الوقت نفسه بأنّه سيتخلّص منها. في اللحظة

التي همّت بالانطلاق، اقترب من النافذة المفتوحة وسألها عمّا كان يقضّ مضجعه من دون كلل:

– لقد ذكرت منذ قليل أنّه سبق أن التقينا منذ فترة طويلة. أين حصل ذلك؟

سمّرت عينيها الخضراوين في عينيه.

– ربيع 1998 في باريس. كنت في الرابعة عشرة من عمري. جئت لمقابلة المرضى في دار المراهقين. حتى أنّك وقّعت لي نسخة من «لوريلاي سترايتنج». نسخة أصلية باللغة الإنكليزية.

لم يُحرّك فاولز ساكنًا، كما لو أنّ هذا التفصيل لا يُذكّره بشيء على الإطلاق، أو أنّه ذكرى من الماضي البعيد.

– لقد قرأت «لوريلاي سترايتنج»، تابعت ماتيلد. ساعدني كثيرًا. ولم يكن لديّ انطباع قطّ بأنّه كتاب مبالغ في تقديره ولا بأنّ ما فهمته من قراءته كان يشكّل جزءًا من سوء فهم ما.

طولون، 8 أكتوبر 2018

شعبة «السلطات المعنية في المياه الإقليمية»

قرار صادر عن المحافظة رقمه 2018/287

يقضي بإنشاء منطقة حظر موقّتة للملاحة والأنشطة البحرية

في اتّجاه جزيرة بومون (الريفييرا) وجوارها.

إدوارد ليفيبور فريق السرب البحري

العميد البحري لمنطقة البحر الأبيض المتوسّط

بناءً على المادّتين 131-13-1° و610-5 ر من قانون العقوبات،

وبناءً على قانون النقل، ولا سيّما المادّتين ل5242-1 ول5242-2،

وبناءً على المرسوم الرقم 1167-2007 الصادر في تاريخ 2 أغسطس 2007، بصيغته المُعدّلة، حول رخص القيادة والتدريب على قيادة المراكب السياحية المزوّدة بمحرّك،

وبناءً على المرسوم الرقم 112-2004 الصادر في تاريخ 6 فبراير 2004 بشأن تنظيم الإجراءات المُتّخذة من الدولة في البحر.

ونظرًا إلى فتح تحقيق جنائي بعد اكتشاف جثّة في جزيرة بومون، في موقع يُسمى تريستانا بيتش،
ونظرًا إلى ضرورة منح القوى الأمنية الوقت للتحقيق في الجزيرة،
ونظرًا إلى ضرورة الحفاظ على الأدلّة التي تسمح بالبحث عن الحقيقة.

القرار

المادّة 1: أُنشِئَت، في مُحيط إقليم فار، منطقة تُحظّر فيها الملاحة والأنشطة البحرية ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها 500 متر حول شواطئ جزيرة بومون وبشكل عمودي لها بما في ذلك أنشطة نقل الركّاب من الجزيرة وإليها، وذلك اعتبارًا من تاريخ نشر هذا القرار.
المادّة 2: لا تسري أحكام هذا القرار على السفن والمراكب البحرية العاملة ضمن إطار مهمّات الخدمة العامّة.
المادّة 3: أيّ مخالفة لهذا القرار، ولأيّ قرار مُتّخذ لتطبيقه، تعرّض صاحبها لملاحقة قانونية وعقوبات وتدابير جزائية منصوص عليها في المادّتين ل5242-1 ول5242-6-1 من قانون النقل وبموجب المادّة ر610-5 من قانون العقوبات.
المادّة 4: إنّ المدير الإقليمي للأراضي والمياه الإقليمية التابعة لإقليم فار والضبّاط والعناصر المفوّضين في شؤون شرطة الملاحة مسؤولون، كلٌّ ضمن صلاحياته، عن تنفيذ هذا القرار الذي سيُنشر في مجموعة الإجراءات الإدارية الخاصّة بالمحافظة البحرية لمنطقة البحر الأبيض المتوسّط.

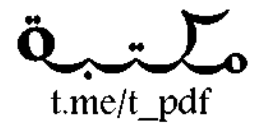
العميد البحري لمنطقة البحر الأبيض المتوسّط
إدوارد ليفيبور

4

إجراء مُقابلة مع روائي

1) يطرح المُحاور عليك أسئلة تهمّه، ولا تهمّك.
2) يستخدم من إجابتك ما يناسبه فقط.
3) يترجمها وفق مفرداته وطريقة تفكيره.

ميلان كونديرا



الثلاثاء 9 أكتوبر 2018

.1

مُذ أتيت للعيش في بومون، اعتدت الاستيقاظ مع بزوغ الشمس. وبعد أن أستحمّ سريعًا، أذهب لألتقي بأوديبير الذي اعتاد تناول وجبة الفطور في ساحة البلدة على ترّاس مقهى فور دو كافيه أو فلور دو مالت. كان مزاج المكتبيّ مُتقلّبًا. فتارة يكون صامتًا ومنغلقًا على نفسه، وتارةً مُلسنًا وكثير الكلام. ولكنّني أعتقد أنّه كان يكنّ لي معزّة كبيرة رغم ذلك، أو ما يكفي منها في أيّ حال لكي يدعوني إلى مائدته كلّ صباح ويقدّم لي الشاي والخبز المُحمّص مع مربّى التين. كانت

مربّيات الخالة فرنسواز كنزًا من كنوز الجزيرة، فهي تُباع للسيّاح بسعر الكافيار، إذ إنّها عضوية لا غشّ فيها، تطبخها على نار هادئة في دِست خاصّ، وما إلى ذلك من تفاصيل.

– صباح الخير سيّد أوديبير.

رفع المكتبيّ عينيه عن صحيفته واستقبلني بتمتمة قلقة. منذ البارحة وموجة من الاضطراب المحموم تهزّ سكّان الجزيرة. إنّ اكتشاف جسد هذه المرأة مسمّرًا إلى أقدم شجرة كينا في الجزيرة قد صدم السكّان. وقد علمت مذّاك أنّ هذه الشجرة الملقّبة بالخالدة، أصبحت على مرّ العقود رمزًا لوحدة الجزيرة. لذا، لم تكن هذه المشهدية وليدة المصادفة، والظروف التي أحاطت بوفاة الضحية تركت الجميع مصدومًا. لكنّ الضربة القاضية التي أربكت السكّان كانت القرار الذي اتّخذه العميد البحري بفرض حصار على الجزيرة لتسهيل مجريات التحقيقات. أرسى المركب في ميناء سان جوليان لي روز للمراقبة، وأمر خفر السواحل بتسيير دوريات واعتراض القوارب الخاصّة التي تحاول العبور في أيّ من الاتّجاهين. فعليًا، لم يكن باستطاعة أحد بعد الآن مُغادرة الجزيرة أو دخولها. أدّى هذا الإجراء إلى إصابة جميع سكّان بومون بالتوتّر، إذ كانوا يرفضون فقدان تحكّم أنفسهم بمصيرهم الجماعي.

– هذه الجريمة ضربة موجعة أصابت الجزيرة، قال أوديبير غاضبًا، وهو يطوي نسخته من صحيفة «فار-ماتان».

كانت تلك نسخة اليوم السابق، النسخة المسائية التي وصلت مع آخر عبّارة مصرّح لها بالتنقّل. عندما جلست، ألقيت نظرة إلى الصفحة الأولى التي تصدّرها عنوان «الجزيرة السوداء»، في إيحاء مُبطّن إلى عناوين هيرجيه المعهودة.

– دعنا ننتظر لنرى ما سيتوصّل إليه التحقيق.

– إلامَ سيتوصّل برأيك! صاح المكتبيّ. عُذِّبَت امرأة حتى الموت قبل أن تُسمَر إلى الشجرة الخالدة. هذا يعني أنّ ثمّة شخصًا معتوهًا حرًّا طليقًا في الجزيرة!

تجهّمت وأنا مُدرك تمامًا أنّ أوديبير لم يكن مُخطئًا. التهمت الساندويش وأنا أقرأ المقالة المنشورة في الصحيفة بسرعة، ولم تزد شيئًا يذكر على معلوماتي. ثمّ أخرجت هاتفي بحثًا عن معلومات أكثر حداثة.

كنت قد رصدت في اليوم السابق حساب تويتر لشخص يُدعى لوران لافوري، وهو صحافي آتٍ من الضواحي الباريسية كان في بومون لزيارة والدته. لم يكن الرجل من الصحافيين المرموقين. كتب بعض المقالات كصحافي مستقلّ لموقَعي «لوبس» و«ماريان» قبل أن يصبح المسؤول عن إدارة حسابات مجموعة من المحطّات الإذاعية على منصّات التواصل الاجتماعي. كان سجلّه المهني خير مثال على أسوأ ما يمكن أن ينتج من الصحافة الزائفة، إذ زخر بالمواضيع الساخطة، والعناوين المُضلّلة، والنزاعات المثيرة، والتبشير بموت أو إفلاس أحد الأشخاص، والدعابات التافهة، والتغريدات المنهجية لمقاطع فيديو مُثيرة للقلق، وكلّ ما يُحتمل أن يؤثّر سلبًا في حسن التفكير، ويعزّز بروز أسوأ الغرائز، ويديم المخاوف والأوهام. قل إنّه المروّج الصغير للأخبار الكاذبة ونظريات المؤامرة، ولكنّه يبقى دائمًا مخبّأ جيّدًا خلف شاشته.

بسبب الحصار، بات لافوري يتمتّع الآن بامتياز أن يكون «الصحافي» الوحيد الموجود على الجزيرة. ومنذ بضع ساعات، استغلّ هذا الوضع، وأجرى مُداخلة عبر نشرة أخبار محطّة «فرانس 2» التلفزيونية، وقد رأينا صورته على القنوات الإخبارية كافّة.

– يا له من مغفّل تافه!

عندما ظهرت صورة الصحافي على شاشتي، أمطره أوديبير بوابل من الشتائم. فقد لمّح لافوري أمس خلال برنامج إخباري إلى أنّ سكّان الجزيرة يخفون جميعهم أسرارًا مُخزية وراء «جدران فللهم الفارهة الشاهقة»، وأنّ ميثاق الصمت لن يُخرق هنا أبدًا لأنّ آل غاليناري، وهم مافيا بكلّ ما للكلمة من معنى، يحكمون الجزيرة بقوّة الخوف والمال. إذا واصل التحدّث على هذا النحو، فسيصبح لوران لافوري قريبًا أكثر شخص يمقته السكّان في بومون. فالتسويق السلبي للجزيرة عبر الإعلام بهذا الشكل الشنيع كان بمثابة الضربة الموجعة بالنسبة إلى سكّانها، بقدر ما كان الالتزام بالحفاظ على الخصوصية متجذّرًا في جيناتهم منذ سنوات. على تويتر، زاد الرجل الوضع سوءًا من خلال نشر معلومات سرّية – موثوقة في ما يبدو – زوّده بها رجال الشرطة أو المحقّقون. كنت ضدّ هذا المبدأ الذي، بحجّة تقديم المعلومات، يشوّش على سرّية التحقيقات، لكنّي كنت أيضًا فضوليًا بما يكفي لأضع بشكل موقّت سخطي على حدة.

كانت آخر تغريدة للافوري تعود إلى أقلّ من نصف ساعة، وهي عبارة عن رابط يفضي إلى مدوّنته. نقرت عليه لقراءة المقالة التي تلخّص أحدث المستجدّات التي توصّل إليها التحقيق. وبحسب المعلومات التي نشرها الصحافي، ما زالت هوية الضحية مجهولة. سواء كان الخبر كاذبًا أم لا، اختُتمت المقالة بسبق صحافي مُدوٍّ، إذ أعلن الصحافي أنّه حين سُمِّرت الفتاة البائسة إلى جذع شجرة الكينا العملاقة، كان جسدها مُجمّدًا! بالتالي، لم يكن مستحيلًا إذًا أن تكون قد توفّيت منذ أسابيع عدّة.

اضطررت إلى قراءة الجملة مرّة ثانية للتأكّد من أنّني فهمت معناها. وقف أوديبير ليقرأ المقالة من فوق كتفي، إلّا أنّه ما لبث أن تهاوى على كرسيه تحت وطأة الخبر.

هكذا، ومع بزوغ ساعات الصباح الأولى، استيقظت جزيرة بومون على واقع لم يكن يومًا واقعها.

.2

استيقظ ناثان فاولز بمزاج جيّد، وهو شعور لم يختبره منذ فترة طويلة. خلد إلى النومِ في ساعة متأخّرة ثمّ أخذ كامل وقته لتناول الفطور. ومن ثمّ، جلس ساعة تقريبًا على الترّاس يدخّن السجائر ويستمع إلى أسطوانات قديمة لغلين غولد. مع بداية القطعة الخامسة، تساءل بصوت شبه مسموع عن مصدر هذا الحبور. قاوم الحقيقة برهة قبل أن يعترف بأنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفسّر هذا المزاج الحلو هو ذكرى ماتيلد مونّي. كان شيئًا من حضورها يسكن الجوّ، كشعاع شمس مشرقة، أو قصيدة متألّقة، أو نفحة عطر ساحرة. قل إنّه طيف سعادة عابر وبعيد المنال سيتلاشى قريبًا. كان يُدرك ذلك، لكنّه أراد أن يستمتع به حتى الذرّة الأخيرة.

قُرابة الساعة 11 صباحًا، بدأ مزاجه يتغيّر. فبعد عذوبة الاستيقاظ استدرك أنّه لن يرى على الأرجح ماتيلد بعد الآن. وأنّه مهما أنكر الأمر، فإنّه يرزح أحيانًا تحت وطأة الوحدة. ثمّ، قُبيل الظهيرة، قرّر أن يضع حدًّا لهذه الأفكار الصبيانية، ولحماسة المراهقة المتأجّجة، وأن يثني على نفسه بدلًا من ذلك، قدرته على إبعاد هذه الفتاة منه. يجب ألّا ينكسر. لا يحقّ له أن ينكسر. ومع ذلك سمح لنفسه بأن يُعيد في ذهنه شريط لقائهما. ثمّة نقطة واحدة أثارت تساؤلاته. تفصيل لا يُعتبر تفصيلًا، وكان عليه التحقّق منه.

اتّصل بجاسبر فان ويك في مانهاتن. بعد رنّات عدّة، ردّ عليه الوكيل الأدبي بصوت خافت. لم تكن الساعة قد تخطّت السادسة صباحًا في نيويورك وكان جاسبر لا يزال راقدًا في سريره. طلب

منه فاولز أوّلًا أن يبحث عن المقالات التي كتبتها ماتيلد مونّي في السنوات الأخيرة في صحيفة «لو تان».

– ما الذي تبحث عنه بالضبط؟

– لا أدري. أيّ شيء قد تجده ويمكن أن تكونَ له علاقة بي أو بكتبي بشكل مباشر أو غير مباشر.

– حسنًا، لكنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت. هل تريد شيئًا آخر؟

– أودّ أن تعثر على مديرة المكتبة السمعية البصرية لدار المراهقين في العام 1998.

– ما هذا؟

– مؤسّسة طبّية للمراهقين تابعة لمستشفى «كوشين».

– هل تعرف اسمها، أمينة المكتبة؟

– لا، لم أعد أذكّر. هل يمكنك أن تهتمّ بهذه المسألة على الفور؟

– حسنًا. سأتّصل بك ما إن أجد شيئًا.

أنهى فاولز المكالمة وتوجّه إلى المطبخ ليُعدّ فنجان قهوة. بينما كان يحضّر قهوة الإسبريسّو، حاول أن يستحضر ذكرياته. تقع المؤسّسة بالقرب من بور رويال، وهي تعتني بنوع خاصّ بالمرضى الذين يعانون الاضطرابات الغذائية، والاكتئاب، ورهاب المدرسة، والقلق. بعضهم كان يمكث في المستشفى طوال فترة علاج محدّد، والبعض الآخر يبقى في النهار فقط. قصد فاولز المكان مرّتين أو ثلاثًا لإجراء مداخلات خاصّة بالمرضى، ومعظمهم من الإناث. ندوة ولعبة أسئلة وأجوبة إضافة إلى تنشيط ورشة عمل صغيرة مُخصّصة للكتابة. لم يعد يتذكّر الأسماء أو الوجوه، إنّما يذكر أنّ الانطباع العام كان إيجابيًّا للغاية. قارئات متنبّهات، مناقشة مُفيدة وبنّاءة وأسئلة غالبًا

ما كانت تُصيب بيت القصيد. كان يرتشف ما تبقّى من قهوته حين رنّ الهاتف. لم يضيّع جاسبر أيّ وقت.

– بفضل موقع لينكد إن، وجدت مديرة المكتبة السمعية البصرية بسهولة. اسمها سابينا بينوا.

– صحيح، تذكّرتها الآن.

– بقيت تعمل في دار المراهقين حتى العام 2012. وهي تعمل منذ ذلك الحين ضمن شبكة «مكتبة للجميع». وفقًا لأحدث المعلومات المُتاحة عبر الإنترنت، هي موجودة حاليًا في إقليم دوردونيه، في بلدة تريليساك. هل تريد رقمها؟

دوّن فاولز الرقم واتّصل بسابينا بينوا على الفور. كانت دهشة أمينة المكتبة توازي سعادتها لسماع صوته عبر الهاتف. تذكّر فاولز طلّتها أكثر من وجهها. كانت امرأة سمراء طويلة القامة نابضة بالحياة، شعرها قصيرًا، وتنشر حولها مودّة مُعدية. كان قد التقى بها في معرض باريس للكتاب حيث أقنعته بالمجيء للتحدّث مع مريضاتها عن الكتابة.

– أكتب مذكّراتي حاليًا، بدأ حديثه. وأنا بحاجة إلى...

– مذكّراتك؟ هل تعتقد حقًّا أنّني سأصدّق ذلك يا ناثان؟ قاطعته وهي تضحك.

في النهاية، الصراحة راحة.

– أبحث عن معلومات عن مريضة كانت في دار المراهقين. فتاة شابّة حضرت إحدى ندواتي. ماتيلد مونّي.

– لا يعني هذا الاسم لي شيئًا، أجابت سابينا بعد التفكير برهة. ولكن مع تقدّمي في السنّ باتت ذاكرتي ضعيفة وتخذلني بصورة متزايدة.

– هذه حال الجميع تقريبًا. أنا أحاول معرفة سبب إدخال ماتيلد مونّي المستشفى.

– لم يعد بإمكاني الوصول إلى هذا النوع من المعلومات، وحتى لو...

– بربّك سابينا، لا شكّ في أنّك حافظت على بعض المعارف. أسدي لي هذه الخدمة من فضلك. هذا أمر مهمّ.

– سأحاول، لكن لن أعدك بأيّ شيء.

أنهى فاولز المكالمة وذهب ليفتّش في مكتبته. استغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يجد نسخة من «لوريلاي سترايبنج». كانت الطبعة الأولى. تلك التي طُرحت في المكتبات في خريف العام 1993. بكفّ يده مسح الغبار عن الغلاف. كانت تلك صورة لوحته المفضلة، «البهلوان على كرة»، من أعمال بيكاسو الرائعة التي تعود إلى الفترة الوردية. وكان فاولز قد أعدّها بنفسه في ذلك الوقت من طريق إعداد كولاج قدّمه إلى الناشر. لم يكن هذا الأخير يؤمن كثيرًا بنجاح هذا الكتاب، لذا، سمح له بأن يفعل. لم يُطبع من هذه الرواية في البداية سوى خمسة آلاف نسخة. لم ينل الكتاب استحسان الصحافة، ولا يمكن القول إنّ المكتبيين دعموه بشكل خاصّ، حتى لو أنّهم في نهاية المطاف ركبوا موجة شهرته. لم يُنصف هذا الكتاب إلّا من خلال انتشار الأصداء الجيّدة عنه عبر الآراء المتناقلة بحماسة بين القرّاء، لا سيّما الشابّات مثل ماتيلد مونّي في تلك الحقبة، اللواتي تعاطفن مع البطلة. لا شكّ في أنّ قصّة الكتاب كانت مواتية هي الأخرى، لأنّها سردت أحداث لقاءات تجريها لوريلاي خلال عطلة نهاية أسبوع، وهي شابّة مكثت في مستشفى للأمراض النفسية فترة. شكّل هذا الإطار ذريعة لوصف مجموعة من الشخصيات الموجودة في المستشفى. تمكّنت الرواية تدريجيًّا من تصدّر قائمة المبيعات،

حتى بلغت حدّ مرتبة الظاهرة الأدبية التي يطمح إليها كثيرون. فالذين استهزأوا به في البداية سارعوا إلى ركوب الموجة. قرأ الرواية الشباب وكبار السنّ والمفكّرون والمعلّمون والطلّاب والأشخاص الذين يقرأون كثيرًا وأولئك الذين لا يقرأون البتّة. راح الجميع يُبدي رأيه بـ«لوريلاي سترايـنج»، وجعلوا الكتاب ينطق بأشياء لم يكن يعنيها. هذا هو بالتحديد سوء الفهم الكبير. على مرّ السنين، زاد الزخم حول الكتاب، فصُنّف في خانة الأدب الكلاسيكي الموجّه إلى الجمهور العريض. كُتبت أطروحات عنه، وأصبح متوفرًا في المكتبات والمطارات، كما في الأقسام المخصّصة للكتب في السوبرماركت. أحيانًا، كان يُعرض في قسم الكتب المخصّصة للتطوير الذاتي، ما كان يُثير غضب الروائي. هكذا، آلت الأمور إلى حيث كان متوقّعًا. فحتى قبل أن يعتزل فاولز الكتابة، بدأ يكره روايته ولم يعد يتحمّل أن يُحدّثه أحد عنها، لما كان يشعر من أنّه بات سجين كتابه.

انتشل رنين جرس البوّابة الكاتب من ذكرياته. فأعاد الكتاب إلى مكانه ونظر إلى شاشة نظام كاميرات المراقبة. كان الدكتور سيكار يقف عند الباب استعدادًا لينزع له الجبيرة. كاد ينسى ذلك! وأخيرًا، أتى الفرج.

.3

جريمة قتل على شاطئ تريستانا بيتش.

كان الجميع في السيرة نفسها: زبائن المكتبة، والسيّاح، والسكّان المارّين في الساحة. منذ بداية فترة بعد الظهر، تنبّهت إلى وجود الكثير من الفضوليين يتسكّعون في الوردة القرمزية. دخل المكتبة زبائن حقيقيون قلائل فقط. أمّا الآخرون فكانوا يدخلون

المكتبة للدردشة قليلًا، أو للتخلّص من الشعور بالذّعر الذي انتابهم، أو حتى لتغذية فضولهم المرضي.

كنت قد فتحت حاسوبي المحمول من طراز ماك بوك على منضدة الاستقبال. كان الاتّصال بشبكة الإنترنت في المكتبة سريعًا نوعًا ما، لكنّه ينقطع بشكل متكرّر، ما أجبرني على الصعود إلى الطابق العلوي في كلّ مرّة لإعادة تشغيل العلبة. كانت صفحتي مفتوحة على حساب تويتر الخاصّ بلوران لافوري، الذي حدّث توًّا مدوّنته.

بحسب معلوماته، نجحت الشرطة في تحديد هوية الضحية. كانت امرأة في الثامنة والثلاثين من عمرها، تُدعى أبولين شابوي، تاجرة نبيذ، ومقيمة في منطقة شارترون في بوردو. بحسب الشهادات الأولى، وصلت إلى مرسى سان جوليان لي روز في 20 أغسطس الماضي. صادفها ركّاب على متن العبّارة في ذلك اليوم، لكنّ المحقّقين ما زالوا يتحرّون عمّا جاءت تفعله في الجزيرة. وفقًا لإحدى فرضياتهم، استدرج شخص أبولين شابوي إلى بومون، ثمّ احتجزها قبل أن يقتلها ويحفظ جسدها في غرفة باردة أو داخل ثلّاجة. واختتم الصحافي مقالته بإشاعة مجنونة ألا وهي إطلاق موجة كبيرة من المداهمات طاولت المنازل كافّة في الجزيرة للعثور على المكان الذي احتُجِزَت فيه الضحية.

راجعتُ رزنامة هيئة البريد التي كانت تحمل رسم آرثر رامبو الشهير من توقيع كارجا، كان أوديبير قد ألصقها خلف شاشة كمبيوتره.

إذا كانت مصادر الصحافي موثوقة، فقد وصلت أبولين شابوي إلى الجزيرة قبلي بثلاثة أسابيع، أي في نهاية شهر أغسطس عندما هطلت أمطار غزيرة على حوض البحر الأبيض المتوسّط.

تلقائيًّا، أدخلت اسمها في محرّك البحث.

ببضع نقرات وصلت إلى موقع شركة أبولين شابوي. لم تكن المرأة الشابّة «تاجرة نبيذ» بالضبط كما ادّعى لافوري. كانت تعمل بالفعل في قطاع النبيذ، لكنّ مجالها كان يقتصر أكثر على المبيعات والتسويق. كانت شركتها الصغيرة ناشطة جدًّا على المستوى الدولي، حيث تولّت بيع الخمور الفاخرة إلى الفنادق والمطاعم، إضافة إلى تجهيز أقبية للتسليم للأثرياء. عرض تبويب «من نحن؟» في الموقع السيرة الذاتية لمؤسّستها، وفصّلت المراحل الرئيسية من مسيرتها. وُلدت في باريس في كنف عائلة امتلكت أسهمًا في الكثير من كروم العنب في بوردو، حازت شهادة ماجستير في «قانون الكرمة والنبيذ» من جامعة بوردو-الرابعة، ومن ثمّ نالت شهادة محلّية في علم الخمور صادرة عن المعهد الوطني للدراسات العليا الزراعية في مونبلييه. عملت أبولين في لندن وهونغ كونغ قبل تأسيس شركة استشارات صغيرة. صورتها بالأبيض والأسود توحي بأنّها امرأة جذّابة للمُعجبين بالمرأة الشقراء الطويلة القامة والكئيبة الوجه نوعًا ما.

ما الذي أتى بها إلى الجزيرة؟ هل جاءت إلى هنا بحكم العمل؟ كان هذا الاحتمال ممكنًا جدًّا. دخلت زراعة الكروم بومون منذ زمن طويل. فكما هي الحال في بوركيرول، هدفت هذه الزراعات في الأصل إلى تشكيل حاجز للحماية من النيران في حال نشوب الحرائق. اليوم، تُنتج الكثير من مزارع الكروم في الجزيرة أنواعًا فاخرة من نبيذ كوت دو بروفانس. أمّا أهمّ مزارع الكروم وأكبرها، والتي تشكّل مفخرة بومون وسبب شهرتها، فتعود إلى آل غاليناري. في مطلع القرن الحادي والعشرين، زرع فرع العائلة في كورسيكا أصنافًا نادرة من الدوالي في أراض من الطين والحجر الجيري. ظنّ الجميع في البداية أنّهم فقدوا صوابهم، إلّا أنّ النبيذ الأبيض خاصّتهم الذي يحمل اسم «تيرّا دي بيني» الشهير والذي يُنتج عشرين ألف زجاجة في السنة،

بات ذائع الصيت الآن ومُدرجًا ضمن قوائم النبيذ في أفخم المطاعم في العالم. مُذ وصلت إلى الجزيرة، أتيحت لي فرصة تذوّق هذا المشروب مرّات عدّة. هو كناية عن نبيذ أبيض جافّ، صافٍ بنكهة الفاكهة، معطّر بالزهور والبرغموت. تعتمد عملية التصنيع بأكملها على قوانين الزراعة البيوديناميكية في ظلّ مناخ الجزيرة المعتدل.

نظرت إلى شاشتي مُجدّدًا لأعيد قراءة مقالة لافوري. شعرت أوّل مرّة في حياتي بأنّني محقّق في فيلم بوليسي حقيقي. وككلّ مرّة اختبرت فيها أمرًا مثيرًا للاهتمام، أردت بلورته في كتابة رواية. وقد بدأت بالفعل صور مُقلقة وغامضة تعصف في ذهني: جزيرة متوسّطية مشلولة حركتها بسبب الحصار، جثّة امرأة مُجمّدة، كاتب مشهور معزول منذ عشرين عامًا في منزله...

فتحت مستندًا جديدًا في حاسوبي، وبدأت كتابة الأسطر الأولى من نصّي:

الفصل الأوّل

الثلاثاء 11 سبتمبر 2018

كانت الرياح تصفِقُ الأشرعة فتلوح مُرفرفة في سماء مشرقة. غادر المركب الشراعي شواطئ الريفييرا الفرنسية بُعيد الساعة الواحدة بعد الظهر وهو يُبحر الآن بسرعة خمس عقد في اتّجاه جزيرة بومون. كنت جالسًا بجانب الربّان قرب مقصورة الملاحة، وقد أسكرني هواء البحر بوعوده، شاردًا أتأمّل مياه المتوسّط المتلألئة تحت أشعّة الشمس الذهبية.

4.

مالت الشمس إلى المغيب خلف الأفق مُوشّحة السماء ببقع برتقاليّة اللون. عاد فاولز من نزهة برفقة كلبه وكان يجرّ ساقه خلفه. أراد أن يتذاكى متملّصًا من نصائح الطبيب. فما إن حرّره سيكار من الجبيرة، حتى سارع إلى الخروج مع برونكو، من دون الاستعانة بعصًا أو اتّخاذ أقلّ الاحتياطات. وها هو الآن يدفع الثمن غاليًا: ضاق نفسه، وشعر بأنّ كاحله بات يابسًا كالخشب، وأحسّ بألم في عضلاته كافّة.

وعندما وصل إلى الصالون، انهار بكلّ ثقله على الكنبة المواجهة للبحر وابتلع قرصًا مضادًّا للالتهاب. أغمض عينيه بضع لحظات مُحاولًا التقاط أنفاسه في حين كان برونكو يلحس له يديه. كان على وشك الاستسلام للنّوم حين دفعه جرس الباب إلى النهوض.

نهض فاولز ساندًا نفسه إلى حافّة الكنبة، واتّجه إلى مكان نظام كاميرات المراقبة وهو يعرج. ظهر وجه ماتيلد مونّي المشرق على الشاشة.

تسمّر ناثان في مكانه. ماذا تفعل هنا هذه المرأة؟ بدت هذه الزيارة الجديدة في ذهنه كبصيص أمل وتهديد في الوقت نفسه. كانت ماتيلد مونّي تضمر شيئًا ما بعودتها لرؤيته. ما العمل؟ هل يمتنع عن الردّ؟ كان هذا حلًّا لدرء الخطر على المدى القصير، لكنّه لم يحدّد طبيعة الخطر.

فتح فاولز البوّابة من دون حتى أن يردّ عبر جهاز التواصل الداخلي. عادت السكينة إلى قلبه، وبعد أن تخطّى وقع المفاجأة، كان مصمّمًا على تجنّب تفاقم الوضع. فهو يتمتّع بالقدرة على مواجهة ماتيلد. كان عليه أن يقنعها بألّا تقحم أنفها في شؤونه، وهذا ما سيفعله، إنّما بلطف.

كالبارحة، خرج لانتظارها عند عتبة الباب. اتّكأ على إطار الباب فيما كان برونكو جاثمًا عند قدميه، وراح ينظر إلى الشاحنة وهي تقترب مُخلّفة وراءها سحابة من الغبار. أوقفت الشابّة السيّارة أمام مدخل المنزل وشدّت فرامل اليد. صفقت باب الشاحنة، ووقفت أمامه برهة. كانت ترتدي فستانًا بكمّين قصيرين مزركشًا بالأزهار، وتحته بلوزة لها ياقة عالية مُضلّعة الحبكة. فيما داعبت آخر خيوط شمس المغيب حذاءها الجلدي الخردلي اللون ذا الكعب العالي.

من النظرة التي رمقت بها فاولز، أيقن أنّ هناك أمرين مؤكّدين. الأوّل: لم تأتِ ماتيلد موني مصادفة إلى الجزيرة. لم تأتِ إلى بومون سوى لتكشف سرّه. والثاني: لم يكن لدى ماتيلد أدنى فكرة عمّا يمكن أن يكون هذا السرّ.

– أرى أنّك نزعت الجبيرة! هل يمكنك مساعدتي؟ نادته وقد بدأت تفريغ أكياس الورق المكدّسة في مقعد السيّارة الخلفي.

– ما هذا؟

– اشتريت لك بعض الحاجيّات. خزائن المونة لديك فارغة، أخبرتني ذلك البارحة.

لم يُحرّك فاولز ساكنًا.

– لست بحاجة إلى مساعدة. يمكنني التبضّع بنفسي.

كان عطر ماتيلد فوّاحًا يملأ المكان كلّه. وكان ناثان يتنشّقه من حيث كان واقفًا. سحره نقاء رائحة النعناع والحمضيات عندما امتزجت بنظافة الثياب وعبير الغابة.

– لحظة! لا تظنّنّ أنّها خدمة مجّانية. جلّ ما أريد هو توضيح مسألة ما. والآن، هل ستساعدني أم لا؟

– أيّ مسألة؟ سأل فاولز، ممسكًا بالأكياس المتبقّية بوهن.

– قصّة طبق شرائح العجل ذاك.

في وهلةٍ، اعتقد فاولز أنّه لم يسمع جيّدًا ما قالته. لكنها همّت بالتوضيح:

– في مقابلتك الأخيرة، تباهيت بأنّك تُجيد تحضير طبق شرائح العجل الشهية بإتقان. وهذا من حسن حظّي، فأنا أعشق هذا الطبق!

– خلتك نباتية.

– لا على الإطلاق. ابتعت لك كلّ المكوّنات. والآن، لم يعد لديك أيّ عذر كي لا تدعوني إلى العشاء.

فهم فاولز أنّها لم تكن تمزح البتّة. لم يتوقّع أن يحدث ذلك، لكنّه أقنع نفسه بأنّه يسيطر على الوضع وأومأ لماتيلد بالدخول.

وضعت الشابّة الأكياس على طاولة الصالون، كما لو أنّها في منزلها، وعلّقت الجاكيت على مشجب المعاطف، ثمّ فتحت زجاجة بيرة وذهبت لتشربها بهدوء على التّراس وهي تتأمّل غروب الشمس.

بقي فاولز وحده في المطبخ، فوضّب المشتريات، وبدأ يُعدّ الطعام متظاهرًا بعدم المبالاة.

كانت قصّة طبق شرائح العجل تلك مجرّد تفاهة. هي مزحة أطلقها للإجابة عن سؤال الصحافي. عندما كان يُسأل عن حياته الخاصّة، كان يعتمد مبدأ عدم الإجابة أو الكذب. لكنّه لا يتهرّب. فرز المكوّنات التي سيحتاج إليها، ووضّب ما تبقّى، متّكئًا أقلّ ما يمكن على ساقه التي تؤلمه. في إحدى الخزائن، وجد حلّةً قاعها سميك وغير لاصق لم يستخدمها منذ دهر. وضعها على النار بعدما أضاف زيت الزيتون. ثمّ أخرج لوحًا وبدأ تقطيع لحم العجل، وفرم الثوم والبقدونس. أضافهما إلى قطع اللحم التي كانت قد اكتسبت تدريجيًّا لونًا ذهبيًّا. ومن ثمّ أضاف ملعقة كبيرة من الدقيق وكوبًا مترعًا من النبيذ الأبيض قبل أن يغمر المكوّنات كلّها بالمرق الساخن.

بحسب ما يذكر، كان عليه أن يترك الشرائح لتنضج مع توابلها على نار هادئة مدّة ساعة تقريبًا.

ألقى نظرة إلى الغرف الأخرى. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، وعادت ماتيلد إلى الداخل لتتدفأ. شغّلت أسطوانة قديمة لفرقة الروك ياردبيردز في جهاز الأسطوانات وراحت تستكشف المكتبة. اختار فاولز زجاجة سان جوليان من خزانة النبيذ التي شكّلت امتدادًا للثلّاجة، وسكب الخمر ببطء في دورقٍ قبل أن ينضمّ إلى ماتيلد في الصالون.

– منزلك ليس دافئًا، لمّحت له. لا أمانع إشعال بعض النار.

– إن كنت تودّين ذلك.

توجّه فاولز نحو الرفوف المعدنية التي كانت تُستخدم لحفظ الحطب. جمع حطبًا صغير الحجم مع بعض الأخشاب الدائرية وأضرم النار في المدفأة ذات الموقد المعلّق في وسط الغرفة.

تابعت ماتيلد جولتها في الغرفة، وفتحت الصندوق المُثبّت في الحائط بجوار مخزون الحطب، واكتشفت بندقية من طراز بومب أكشن محفوظة داخله.

– إذًا الأمر صحيح: هل تُطلق النار حقًّا على الأشخاص الذين يأتون لإزعاجك؟

– نعم، واعتبري نفسك محظوظة لأنّك نجوت من ذلك.

تأمّلت البندقية بدقّة. كان الأخمص والمقبض مصنوعين من خشب الجوز المُشمّع، والسبطانة من الفولاذ المصقول. بين الانعكاسات الزرقاء لجسم البندقية، في وسط الأرابيسك، حدّق إليها ما يُشبه رأس إبليس مُهدّدًا.

– هل هذا الشيطان؟ سألته.

– لا، إنّها كولشيدرا: أنثى تنّين لها قرنان تعود إلى الفولكلور الألباني.

– جميلة.

لمس كتفها لإبعادها من الرفوف وقادها نحو المدفأة حيث قدّم لها كأس نبيذ. قرعا كأسيهما قبل تذوّق النبيذ بصمت.

– غريو لا روز 1982، أنت لا تستخفّ بي، قالت مُعربة عن تقديرها.

جلست ماتيلد في المقعد الجلدي بالقرب من الكنبة، وأشعلت سيجارة، وراحت تداعب برونكو. عاد فاولز إلى المطبخ، وتفقّد الطعام، فأضاف إليه زيتونًا منزوع النواة وفطرًا. فلفل الأرز، ووضع طبقين وأدوات المائدة في غرفة الطعام. بعد أن أطفأ النار تحت الحلّة، أضاف إلى اللحم عصير ليمونة واحدة ممزوجًا بصفار بيضة.

– هيّا إلى المائدة! صاح وهو يُحضر الطعام الذي أعدّه.

قبل أن تنضمّ إليه، شغّلت أسطوانة جديدة لموسيقى فيلم «البندقية القديمة». حدّق فاولز فيها وهي تطقطق أصابعها على إيقاع لحن فرانسوا دي روبيه، في حين كان برونكو يدور حولها. المشهد جميل. وماتيلد جميلة. وكان من السهل الاستسلام في لحظة، لكنّه كان يُدرك تمامًا أنّ المشهد كلّه ليس سوى مُجرّد لعبة بين شخصين ظنّ كلٌّ منهما أنّه يتحكّم بالآخر. وقد شكّ فاولز في ألّا تكون لهذه اللّعبة عواقب. لقد خاطر بإحضار الدبّ إلى كرمه. لم يكن أحدٌ قط قد اقترب إلى هذا الحدّ من السرّ الذي يُخفيه منذ عشرين عامًا.

كانت شرائح العجل لذيذة. في أيّ حال تناولاها بشهية. فقد فاولز عادة التحدّث كثيرًا، لكنّ العشاء كان مرحًا بفضل حسّ الفكاهة والحماسة لدى ماتيلد التي كانت لديها نظريات عن كلّ شيء. ثمّ،

في لحظة، تغيّر شيء ما في نظرتها. كانت اللمعة لا تزال موجودة، لكنّها باتت أكثر جدّية وأقلّ تبسّمًا.

– بما أنّ اليوم عيد ميلادك، أحضرت لك هديّة.

– لقد وُلدت في شهر يونيو، فاليوم ليس عيد ميلادي.

– لقد بكّرتُ بعض الشيء في المُعايدة، أو تأخرّت. لا يهمّ. كروائي، ستعجبُك.

– لم أعد روائيًا.

– أعتقد أنّ الروائي كرئيس الجمهورية. يحتفظ باللقب حتى بعد التوقّف عن مزاولة المهنة.

– الموضوع قابل للنقاش لكن لم لا.

هاجمته في جبهة أخرى.

– الروائيّون هم أكبر كذّابين عرفهم التاريخ، أليس كذلك؟

– لا، بل السياسيّون، والمؤرّخون، والصحافيون، لكن ليس الروائيين.

– بالعكس! حين تدّعي أنّك تقصّ الحياة في رواياتك، فأنت تكذب. الحياة معقّدة للغاية بحيث لا يمكن إدراجها ضمن معادلة أو احتجازها في صفحات كتاب. إنّها أقوى من الرياضيات أو الخيال. الرواية هي خيال. والخيال من الناحية التقنية كذبة.

– بل العكس هو الصحيح. فقد وجد فيليب روث الصيغة الصحيحة للتعبير عن ذلك: «تزوّد الرواية من يُحيكها بكذبة يُعبّر بواسطتها عن حقيقته التي يعجز عن وصفها».

– نعم، لكن...

فجأة، سئم فاولز.

– لن نبتّ المسألة الليلة. ما هي هديّتي؟

– اعتقدت أنك لا تريدينها.

– يا لك من مُزعجة!

– هديّتي هي قصّة.

– أيّ قصّة؟

نهضت ماتيلد عن كرسيّها وكأس النبيذ في يدها لتعود وتجلس في المقعد.

– سأخبرُك قصّة. وعندما أنهي قصّتي، لن يسعك سوى الجلوس أمام شاشة الحاسوب واستئناف الكتابة.

هزّ فاولز رأسه.

– ولا حتى في الأحلام.

– هل تُراهن؟

– لن نراهن على أيّ شيء على الإطلاق.

– هل تشعر بالخوف؟

– ليس منك في أيّ حال. ما من سبب يُعيدني إلى الكتابة ولا أرى كيف يمكن أن تغيّر قصّتك قواعد اللعبة.

– لأنّها تتعلّق بك. ولأنّها قصّة يجب أن تعرف نهايتها.

– لست متأكّدًا من رغبتي في سماعها.

– سأخبرك بها في أيّ حال.

من دون أن تتزحزح من مقعدها، رفعت كأسها الفارغة في اتّجاه فاولز. أخذ زجاجة النبيذ، ونهض ليملأ كأس ماتيلد، ثمّ تهاوى على الكنبة. لقد أدرك أنّ الأشياء الخطيرة قد بدأت وأنّ كلّ ما تبقّى لم يكن سوى لغو. مقدّمة لمواجهتهما الحقيقية.

استهلّت ماتيلد روايتها قائلةً:

– تبدأ القصّة في أوقيانيا في مطلع الألفية الثالثة. وصل زوجان شابّان من الضواحي الباريسية، أبولين شابوي وكريم عمراني،

إلى هاواي على متن طائرة، بعد رحلة استغرقت خمس عشرة ساعة، لتمضية عطلتهما هناك.

5

حارسة القصص

ما مـن واقـع أكثر رعبًا مـن أن نحمل في وجداننا قصّةً لم نروها بعد.

زورا نيل هيرستون

2000

تبدأ القصّة في أوقيانيا في مطلع الألفية الثالثة. وصل زوجان شابّان من الضواحي الباريسية، أبولين شابوي وكريم عمراني، إلى هاواي على متن طائرة، بعد رحلة استغرقت خمس عشرة ساعة، لتمضية عطلتهما في الجزيرة.

ما إن وصلا، حتى أفرغا الميني بار في غرفة الفندق واستغرقا في نوم عميق. في اليومين التاليين، استمتعا إلى أقصى حدّ بسحر جزيرة ماوي البركانيّة. تجوّلا في أرجاء الطبيعة المحمية، وشاهدا الشلّالات الصغيرة والمساحات المُزهرة وهما يدخّنان الحشيش. مارسا الحبّ على شواطئ الرمال الناعمة، واستأجرا قاربًا خاصًّا لمشاهدة الحيتان قبالة شاطئ لاهينا. في اليوم الثالث، فيما كانا يتدرّبان على الغوص، سقطت الكاميرا التي يملكانها في المحيط.

حاول الغواصان المتمرّسان اللذان كانا يرافقانهما العثور على الكاميرا، لكن من دون جدوى. فلم يكن من أبولين وكريم سوى الاستسلام للأمر الواقع: لقد فقدا صور عطلتهما. لكنّهما نسيا هذه المسألة في الليلة نفسها، بعد أن شربا نحو عشرة كوكتيلات في واحدة من الحانات الكثيرة المنتشرة على الشاطئ.

2015

لكنّ الحياة مليئة بمفاجآت كثيرة.

بعد سنوات عدّة، وعلى بعد تسعة آلاف كيلومتر من هنا، لاحظت إليانور فاراغو، وهي سيّدة أعمال أميركية، جسمًا عالقًا في إحدى الشعب المرجانية أثناء ممارستها رياضة الجري على شاطئ بيشوان في منطقة كينتينغ جنوب تايوان.

كان ذلك في ربيع العام 2015 الساعة السابعة صباحًا. كانت السيّدة فاراغو تعمل لمصلحة سلسلة فنادق دولية، وبحكم عملها، كانت تجول في آسيا بهدف زيارة بعض الفنادق التابعة للمجموعة. في صباح اليوم الأخير من إقامتها، وقبل أن تركب الطائرة للعودة إلى نيويورك، ذهبت لممارسة رياضة الجري على شاطئ بيشا، وهو أشبه بالكوت دازور المحلّية. كان الشاطئ مُحاطًا بالتلال، يكسو برماله الناعمة الذهبية اللون مسافات ساحلية شاسعة. مياهه نقية شفّافة، لا يعكّر صفوها سوى الرؤوس الصخرية المتغلغلة في مياه البحر. هناك رصدت إليانور هذا الشيء الغامض. ركضت نحوه، وتسلّقت صخرتين، ثمّ انحنت لتخرجه من مكانه وترفعه إليها. كانت حقيبةً مقاومةً للماء وداخلها كاميرا من طراز باور شوت ماركة كانون.

لم تكن تعرف ذلك بعد، ولن تعرف يومًا، أنّ كاميرا الزوجين الفرنسيين جرفتها التيّارات والعوامل طيلة خمسة عشر عامًا، على

مسافة نحو عشرة آلاف كيلومتر. اعترى السيّدة الأميركية الفضول، فأخذت هذا الشيء، ولدى عودتها إلى الفندق وضعته في حقيبة قماشية داخل حقيبتها المحمولة. وبعد ساعات قليلة، ركبت الطائرة في مطار تايبيه. انطلقت رحلتها على متن طيران دلتا الجوّية في الساعة 12:35، توقّفت الطائرة بعض الوقت في سان فرانسيسكو، بعد ذلك هبطت في نيويورك في مطار جون كنيدي في تمام الساعة 11:08 مساءً، مسجّلةً تأخيرًا دام أكثر من ثلاث ساعات. كانت إليانور متعبة ومتلهّفة للعودة إلى منزلها، فنسيت الكثير من مقتنياتها حيث وضعتها مقابل مقعدها، بما في ذلك الكاميرا.

*

وجد الفريق المُكلّف تنظيف الطائرة الحقيبة وسلّمها إلى قسم المفقودات في مطار جون كنيدي. بعد ثلاثة أسابيع، وجد أحد موظّفي القسم تذكرة الطائرة الخاصّة بالسيّدة فاراغو داخل الحقيبة. وبعد التدقيق في البيانات ومقارنتها، ترك لها رسالة في المجيب الصوتي وأرسل إليها بريدًا إلكترونيًّا لم تردّ عليهما قطّ.

وفقًا للإجراءات المعتمدة، احتفظ قسم المفقودات بالكاميرا مدّة 90 يومًا. بعد انقضاء هذه الفترة، بيعَت مع آلاف الأشياء الأخرى لشركة من ألاباما تعمل منذ عشرات السنين على شراء الأمتعة غير المُطالب بها من الشركات الأميركية.

*

في بداية خريف العام 2015، عُرِضَت الكاميرا على رفّ من رفوف مركز الأمتعة غير المطالب بها. لا يشبه هذا المكان أيّ مكان آخر. ففي مطلع السبعينيّات في سكوتسبرو، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة

جاكسون، على بعد مئتي كيلومتر شمال أتلانتا، طرأت لشركة عائلية متواضعة فكرة التعاقد مع شركات الطيران لإعادة بيع الأمتعة المفقودة التي لم يظهر أصحابها لاستردادها. ازدهرت الأعمال إلى درجة أنّ شركة التجارة هذه أصبحت على مرّ السنين مؤسّسة حقيقية.

في العام 2015، بلغت مستودعات مركز الأمتعة غير المطالب بها نحو أربعة آلاف متر مربع. ففي كلّ يوم، يُنقَل أكثر من سبعة آلاف قطعة جديدة بنصف المقطورات من مختلف مطارات الولايات المتّحدة إلى هذه البلدة الصغيرة الضائعة وسط المجهول. ويتوافد الفضوليون من جميع أنحاء البلاد وحتى من خارجها، أي ما يناهز المليون زائر في كلّ عام، إلى هذا المكان الذي يمكن اعتباره سوبرماركت العروض والحسومات ومتحف الغرائب في آنٍ واحد. على مساحة أربعة طوابق كاملة، تراكمت الملابس وأجهزة الكمبيوتر والأجهزة اللوحية والسمّاعات والآلات الموسيقية والساعات. حتى أنّه أُنشِئ متحف صغير داخل المتجر لعرض القطع الأكثر غرابة من التي جُمِعَت على مرّ السنين على غرار كمان إيطالي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر، أو قناع جنائزي مصري، أو ماسة من عيار 5.8 قيراط، أو جرّة تحتوي على رماد شخص متوفٍّ...

هكذا، وعلى رفّ من رفوف هذا المتجر الغريب، حطّت الكاميرا رحالها، وبقيت داخل الحقيبة القماشية محفوظة إلى جانب كاميرات أخرى، من سبتمبر 2015 إلى ديسمبر 2017.

2017

خلال عطلة عيد الميلاد في ذلك العام، تجوّل اثنان من سكّان سكوتسبرو، سكوتي مالون، أربع وأربعون عامًا، وابنته بيلي البالغة من العمر أحد عشر عامًا، في ممرّات مركز الأمتعة غير المطالب بها.

كانت أسعار المتجر في بعض الأحيان أقلّ بنسبة ثمانين في المئة من أسعار السلع الجديدة، ولم يكن سكوتي يملك دجاجة تبيض ذهبًا. كان يدير ورشة لتصليح السيّارات على الطريق المؤدّي إلى بحيرة غونترسفيل، حيث يُصلح السيّارات، إضافة إلى القوارب.

مُذ هجرته زوجته، حاول تربية ابنته بأفضل طريقة أجادها. كانت جوليا قد رحلت في أحد الأيّام الشتوية، قبل ثلاث سنوات. عندما وصل في المساء إلى المنزل، وجد رسالة على طاولة المطبخ تُبلِغه الخبر ببرود. لقد آلمه الأمر، بالطبع، وما زال يشعر بالألم إلى اليوم، لكنّه لم يُفاجأ. في الواقع، لطالما علم أنّ زوجته سترحل ذات يوم. فقد كُتب في مكان ما في إحدى صفحات كتاب القدر أنّ الورود الفائقة الجمال تعيش وهاجس الذبول يُطاردها. وهذا الخوف يدفعها في بعض الأحيان إلى ارتكاب أفعال يتعذّر إدراكها.

– من فضلك أبي، أريد علبة تلوين هديّة لعيد الميلاد، طلبت منه بيلي.

أومأ سكوتي برأسه موافقًا. صعدا إلى الطابق الأخير حيث قسم الكتب وكلّ ما يتعلّق بالقرطاسية. بحثا مدّة ربع ساعة واكتشفا علبة جميلة من الغواش، والباستيل الزيتي، ولوحتين صغيرتين للرسم. رقص قلب سكوتي فرحًا لرؤية ابنته سعيدة. فسمح بأن يُنفق على نفسه ثمن نسخة من كتاب «الشاعر» لمايكل كونيلي، معروضة بسعر 0.99 سنتًا. كانت جوليا هي التي عرّفته بقوّة القراءة السحرية، وهي التي نصحته فترة طويلة بالأنواع التي قد تعجبه: القصص البوليسية، والروايات التاريخية، وقصص المغامرات. لم يكن من السهل دائمًا الاندماج بأيّ قصّة، ولكن أن نجد الكتاب المناسب، الكتاب الذي أُعدّ لنا، الذي نستسيغ تفاصيله، وحواراته، وأفكار شخصياته، فهذا ما يُسمّى عندئذ الهروب اللذيذ من الواقع. نعم، إنّه بالفعل أفضل

من أيّ شيء آخر. أفضل من نتفليكس، ومباريات كرة السلّة لفريق هوكس، وجميع مقاطع الفيديو السخيفة التي تُتَدَاوَل عبر شبكات التواصل الاجتماعي فتحوّل مشاهديها إلى أموات أحياء.

وفيما كانا ينتظران دورهما عند الصندوق، انتبه سكوتي إلى سلّة تحتوي على بعض القطع المباعة بالتصفية. بحث في سلّة الشبك الكبيرة، ومن بين مجموعة الأشياء المتنوّعة، أخرج حقيبة قماشية منتفخة. كانت تحتوي على كاميرا صغيرة مدمجة، بسعر 4.99 دولارات. بعد التفكير بضع لحظات، استسلم لهذه الرغبة. كان يهوى أعمال الصيانة وإصلاح أيّ شيء يقع تحت يديه. وقد شكّل ذلك في كلّ مرّة تحدّيًا يتعهّد برفعه بنجاح. كان يشعر دائمًا بأنّه يُصلح نوعًا ما حياته من خلال إعادة تشغيل الأشياء القديمة المخرّبة.

*

عند وصولهما إلى المنزل، ورغم أنّ التاريخ كان لا يزال يوم السبت 23 ديسمبر، اتّفق سكوتي وبيلي على فتح الهدايا من دون انتظار يوم عيد الميلاد. هكذا سيتسنّى لهما عطلة نهاية الأسبوع بأكملها للاستمتاع بها، لا سيّما أنّ سكوتي سيعاود العمل في الورشة يوم الإثنين. كان الطقس باردًا هذا العام. أعدّ سكوتي لابنته كوبًا من الشوكولاته الساخنة، وأضاف إليه حلوى المارشملو الصغيرة التي طفت كالرغوة على الوجه. شغّلت بيلي بعض الموسيقى وأمضت فترة بعد الظهر مستغرقةً في الرسم، في حين جلس والدها يقرأ روايته البوليسية وهو يشرب البيرة المثلّجة في جرعات صغيرة.

مع حلول المساء، وحين كانت بيلي تُعدّ معكرونة بالجبن، فتح سكوتي الحقيبة حيث كانت الكاميرا. من خلال مُعاينة حالة العلبة المقاومة للماء، أدرك أنّ الكاميرا قد بقيت على الأرجح في الماء

سنوات عـدّة. استخدم سكّينًا مُسنّنًا لكسر علبة الحماية. كانت الكاميرا مُعطّلة، ولكن بعد محاولات عدّة، تمكّن من استخراج شريحة الذاكرة منها التي لم تبدُ متضرّرة. فأوصلها بحاسوبه وتمكّن من نسخ الصور الموجودة عليها.

راح سكوتي يستعرض الصور وهو في قمّة الحماسة. أزعجه هذا الشعور الذي انتابه لتعدّيه على خصوصيات أشخاص لم يكن يعرفهم، ولكنّه أثار فضوله في الوقت نفسه. كان ثمة 40 صورة تقريبًا. أظهرت اللقطات الأخيرة ثنائيًا شابًا في أجواء شبيهة بالجنّة: شواطئ ومياه فيروزية، وطبيعة خلّابة، وأسماك مُلوّنة تحت الماء. في إحدى الصور، كان الثنائي أمام فندق. كانت صورةً سريعةً سابقة لعصرها على طريقة «سلفي وفندق أوماكوا خلفي». ببضع نقرات فقط، وجد سكوتي المكان على الإنترنت، وهو فندق فخم في هاواي.

لا شكّ في أنّ هـذه الكاميرا فقدت هناك. لقد وقعت على الأرجح في المحيط.

حكّ سكوتي رأسه. كانت هناك صور أخرى في شريحة الذاكرة. يشير الختم الزمني عليها إلى أنّها التقطت قبل أسابيع قليلة من صور هاواي، لكنّها في إطار مُختلف عن ذلك الموجود في الصور الأولى. رأى أشخاصًا آخرين، في بلد آخر وسياق آخر من دون شكّ. لمن كانت هذه الكاميرا؟ راود سكوتي هذا السؤال قبل أن يبتعد من أمام الشاشة ويذهب لتناول العشاء.

وكما وعد ابنته، أمضيا السهرة وهما يشاهدان «أفلام عيد الميلاد المرعبة» أي «غريملينز وكابوس قبل عيد الميلاد».

أمام التلفزيون، واصل سكوتي التفكير بما اكتشفه. شرب زجاجة بيرة ثانية، ومن ثمّ زجاجة أخرى، واستسلم للنوم على الكنبة.



*

عندما استيقظ في اليوم التالي، كانت الساعة قد دقّت العاشرة تقريبًا. خجل من نفسه لأنّه استغرق في النوم، ووجد ابنته في ذروة «انشغالها» أمام شاشة حاسوبه.

– هل تودّ أن أعدّ لك القهوة يا أبي؟

– أنت تعلمين أنّه لا يسمح لك بتصفّح شبكة الإنترنت وحدك! صاح بها موبّخًا.

استاءت بيلي وهزّت كتفيها مستهجنةً، وذهبت لتحرد في المطبخ.

على مكتبه بجوار الحاسوب، وجد سكوتي ورقة قديمة مطوية تشبه تذكرة سفر إلكترونية.

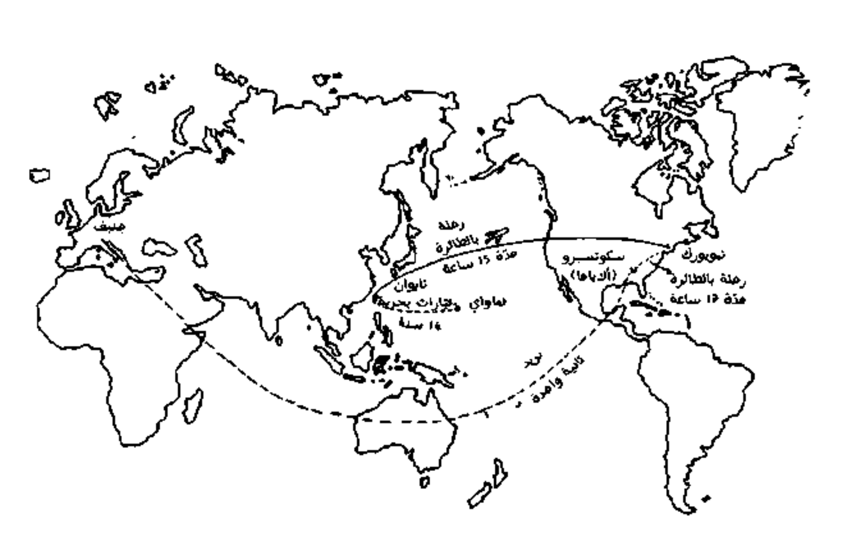
– أين وجدت هذه؟

– في كيس القماش الصغير، أجابت بيلي وقد أطلّت من المطبخ.

ضيّق سكوتي عينيه وراح يقرأ المعلومات المطبوعة على التذكرة. كانت رحلة على متن طيران دلتا الجوّية التي أقلعت من تايبيه في 12 مايو 2015 متّجهة إلى نيويورك. كان اسم المسافرة إليانور فاراغو. حكّ سكوتي رأسه، أصبحت المسألة معقّدة أكثر فأكثر ولم يعد يفهم ما حصل.

– أنا أعرف ما حصل، كان لديّ الوقت للتفكير في الموضوع وأنت تغطّ في سبات عميق كالدببة! قالت بيلي مُتباهية.

جلست أمام الحاسوب لطباعة الخريطة التي كانت قد نزّلتها توًّا من الإنترنت. ثم، حدّدت بقلم منطقة صغيرة وسط المحيط الهادئ.



– فقد الثنائي الذي كان يُمارس رياضة الغطس الكاميرا في هاواي في العام 2000، استهلّت كلامها وهي تستعرض أحدث الصور التي وجدت في الكاميرا.

– حتّى الآن، نحن متّفقان، قال والدها وهو يضع نظّارته.

أشارت بيلي إلى تذكرة الطائرة ورسمت سهمًا طويلًا عبر المحيط من هاواي إلى تايوان.

– ثمّ انجرفت الكاميرا، وحملتها التيّارات إلى الساحل التايواني، حيث عثرت عليها هذه المرأة، السيّدة فاراغو في العام 2015.

– ونسيتها بعد ذلك في الطائرة عند عودتها إلى الولايات المتّحدة؟

– صحيح، أجابت بيلي وهي تومئ برأسها. وبهذه الطريقة وصلت إلينا.

أكملت رسمها بدقّة وتأنٍ فأضافت سهمًا جديدًا موجّهًا نحو نيويورك، ثمّ خطًّا متقطّعًا نحو بلدتهما الصغيرة.

كان سكوتي مبهورًا من استنتاجات ابنته. لقد أعادت تركيب نسخة شبه كاملة من الأحجية. حتى وإن بقي قسم من اللغز من دون جواب:

– مَن برأيك الأشخاص الموجودون في الصور الأولى؟

– لا أعلم، ولكن أظنّ أنّهم فرنسيون.

– لماذا؟

– ما يُمكن رؤيته عبر النوافذ، أسطح المنازل في باريس، أجابت بيلي. وهنا، هذا برج إيفل.

– كنت أعتقد أنّ برج إيفل موجود في لاس فيغاس.

– بابا!

– أنا أمازحك، أجاب سكوتي، مومئًا برأسه وسارحًا بتفكيره في الوعد الذي قطعه في يوم من الأيام لجوليا بأن يصطحبها إلى باريس، وضاع هذا الوعد مع مرور الأيام والأسابيع والسنوات التي كانت سبب صدأ الحياة اليومية.

شاهد الصور الباريسية مرارًا وتكرارًا، ثمّ الصور التي التُقطت في هاواي. لم يكن يعرف السبب تمامًا، لكنّ تسلسل الصور استحوذ على تفكيره. كما لو أنّ هناك مأساة مخفية وراء هاتين السلسلتين. كما لو أنّ هناك لغزًا يستوجب حلًّا يليق بالروايات البوليسية التي كان يقرأها بنهم.

ماذا يُمكنه أن يفعل بهذه الصور؟ لم يكن لديه أيّ سبب لتسليمها إلى أيّ دائرة للشرطة، لكنّ صوتًا في داخله كان يحثّه على

أن يُريها لأحد. ربّما لصحافي؟ ومن المُفضّل أن يكون صحافيًّا فرنسيًّا. لكنّ سكوتي لم يكن يعرف أيّ كلمة باللغة الفرنسية.

شكر ابنته التي قدّمت له فنجانًا من القهوة المرّة. ثمّ جلسا أمام الشاشة. وخلال الساعة التي تلت، كتبا عشوائيًّا كلمات مفتاحية في محرّكات البحث، فوجدا شخصًا تنطبق عليه المواصفات التي حدّداها: صحافية فرنسية تابعت جزءًا من تحصيلها العلمي في نيويورك، حيث حازت شهادة الماجستير في العلوم من جامعة كولومبيا، ثمّ عادت إلى أوروبا حيث تعمل اليوم في صحيفة سويسرية.

عثرت بيلي في بريدها الإلكتروني على موقع الصحيفة الإلكتروني، وكتب الأب وابنته رسالة يشرحان لها فيها اكتشافهما وشعورهما بأنّهما يواجهان لغزًا. ولكي يدعّما أقوالهما أرفقا مجموعة من الصور الموجودة في الكاميرا في الرسالة الإلكترونية. ثمّ أرسلاها من دون أن يعرفا مصيرها.

كان اسم الصحافية ماتيلد مونّي.

الملاك الذهبي الشعر

مقتطف من برنامج «بويون دو كولتور»

عُرض على قناة فرانس 2 في 20 نوفمبر 1998

(ديكور أنيق وبسيط: الستائر بلون الكريم، وأعمدة أثرية، ومكتبة صورية تبدو منحوتة في الرخام. جلس الضيوف حول طاولة مستديرة منخفضة على مقاعد جلدية سوداء. كان برنارد بيفو يضع نظّارة نصفية على أنفه، ويرتدي جاكيت من قماش التويد، وكان يلقي نظرة إلى بطاقات دوّن عليها الملاحظات قبل المبادرة إلى طرح كلّ سؤال.)

برنارد بيفو: لقد تخطّينا الوقت المتاح لنا على الهواء بكثير، ولكن قبل أن نختم الحلقة، أودّ أن أطرح عليك يا ناثان فاولز، الأسئلة التقليدية الخاصّة بالبرنامج. السؤال الأول: ما كلمتك المفضّلة؟

ناثان فاولز: النور!

بيفو: الكلمة التي تكرهها؟

فاولز: التلصّص، كلمة قبيحة في الشكل والمضمون.

بيفو: إدمانك المفضل؟

فاولز: الويسكي الياباني. وبالتحديد بارا نو نيوا الذي دُمّر معمل تقطيره في الثمانينيّات وهو...

بيفو: مهلك! مهلك! لا يمكننا التسويق لعلامة تجارية للكحول على هواء المحطّة الرسمية! السؤال التالي: الصوت والضجيج اللذان تحبهما؟

فاولز: الصمت.

بيفو: الصوت، الضجيج الذي تكرهه؟

فاولز: الصمت.

بيفو: آه، آه! الشتيمة أو الكلمة البذيئة أو السباب المفضّل لديك؟

فاولز: مجموعة أوغاد.

بيفو: هذه ليست عبارة أدبية جدًّا!

فاولز: لم أعرف في حياتي «الأدبي» وغير الأدبي. ريمون كوينو على سبيل المثال، يستخدم هذه العبارة في كتابه «تمارين الأسلوب»: «بعد طول انتظار تحت أشعّة الشمس الحارقة، ركبت أخيرًا حافلة قذرة تدافعت فيها مجموعة أوغاد.»

بيفو: رسم رجل أو امرأة على ورقة نقدية جديدة؟

فاولز: رسم ألكسندر دوما، الذي ربح الكثير قبل أن يفقد كلّ شيء، والذي يذكّرنا في الواقع بأنّ المال خادم جيّد، لكنه سيّد فاسد.

بيفو: النبتة أو الشجرة أو الحيوان الذي ترغب في أن تتقمّصه؟

فاولز: كلب، لأنه أكثر إنسانية من البشر. هل تعرف قصّة كلب ليفيناس؟

بيفو: كلا، ولكن ستحدّثنا عنها مرّة أخرى. سؤال أخير: إن كان الله موجودًا، فماذا تودّ أن يقول لك، أنت ناثان فاولز بعد وفاتك؟

فاولز: «لم تكن مثاليًّا يا فاولز،... ولا أنا!».

بيفو: أشكر حضورك، عمتم مساءً جميعًا، ملتقانا في الأسبوع المقبل.

[موسيقى نهاية البرنامج: «لليل ألف عين» عزف سوني رولنز على الساكسوفون.]

6

عطلة الكاتب

الكاتب لا يعرف أبـدًا يـوم عطلة. فحياة الكاتب تقتصر إمّـا على الكتابة أو على التفكير في الكتابة.

يوجين يونسكو

الأربعاء 10 أكتوبر 2018

.1

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما نزل فاولز الـدرج على مهل حرصًا على رجلِهِ، وكلبه في أعقابه. في غرفة الطعام، كانت بقايا وجبة ليلة أمس لا تزال مُبعثرة على طاولة الخشب الخام. كان النعاس يُثقل عينيه ويشوّش ذهنه. رتّب الروائي الغرفة بحركات تلقائية، متنقّلًا ذهابًا وإيابًا بين الصالون والمطبخ

وعندما أنهى عمله، أطعم برونكو وأعـدّ لنفسه ركـوةً كبيرةً من القهوة. بعد الليلة التي أمضاها، تمنّى لو كان بإمكانه أن يحقنَ الكافيين في وريده لمساعدته على اجتياز الضباب حيث كان هائمًا.

حمل فاولز كوبًا كبيرًا من القهوة الساخنة بين يديه، وخرج إلى الشرفة وهو يرتجف بردًا. امتزجت خطوط متموّجة بلونها الوردي القرمزي بأزرق داكن اصطبغت فيه السماء. كانت الرياح الشمالية الباردة قد عصفت طوال الليل وهي لا تزال تجتاح الخطّ الساحلي. كان الهواء جافًّا وقارس البرودة، كأنّ الصيف تحوّل إلى شتاء من دون سابق إنذار. أغلق سحّاب ياقة الكنزة وجلس إلى طاولة جُهّز بها جزء محايد من التراس، قُل إنّه ملاذٌ صغير على شكل فناء أبيض، محمي من الرياح وتبدّلات الطقس.

فكّر ناثان في قصّة ماتيلد وأعاد سردها في ذهنه، محاولًا جمع الأجزاء بترتيب متناسق. تمّ إذًا التواصل مع الصحافية عبر البريد الإلكتروني من رجل قروي من ولاية ألاباما، كان قد اشترى كاميرا قديمة من سوبرماركت يتولّى تدوير الأشياء المنسية على متن الطائرات. فُقدت الكاميرا على الأرجح في العام 2000 من سائحين فرنسيين في المحيط الهادئ وانتهى بها المطاف بعد خمسة عشر عامًا على أحد شواطئ تايوان. كانت تحتوي على صور عدّة، وهي بحسب ما أوحت به ماتيلد، تُنبئ باحتمال وقوع مأساة.

– ماذا تضمّنت هذه الصور؟ سأل فاولز عندما توقّفت المرأة الشابّة عن سرد قصّتها.

حدّقت فيه والبريق يملأ عينيها.

– هذا كلّ شيء الليلة يا ناثان. سأخبرك تتمّة القصّة غدًا. هل نلتقي بعد الظهر في جون الصنوبر؟

اعتقد في البداية أنّها تمزح، لكن الوقحة أفرغت كأس النبيذ ونهضت من مقعدها مغادرةً.

– هل تعبثين معي؟

ارتـدت الجاكيت، وأخـذت مفاتيح سيّارتها من السلّة عند المدخل وداعبت بخفّة رأس برونكو.

– أشكرك على العشاء والنبيذ. هل فكرت يومًا في استقبال نزلاء في المنزل وحول مائدتك؟ أنا واثقة في أنّ نجاحك سيكون باهرًا.

غادرت المنزل متفاخرة، رافضة أن تقول له المزيد.

ستعرف تتمّة القصّة غدًا...

وهذا ما جعله يستشيط غيظًا. من تظنّ نفسها، هذه التافهة التي تدّعي أنها شهرزاد؟ أرادت أن تخلق بعض التشويق، وتتحدّى الروائي في عقر داره، وتُثبتُ له أنّها هي أيضًا تملك القدرة على منع من يستمع إلى قصصها من أن يغمض له جفن.

مغرورة صغيرة... ابتلع فاولز آخر رشفة قهوة وحاول استعادة هدوئه. بدت رحلة الكاميرا الطويلة مثيرة جدًّا للاهتمام. لا شكّ في أنّها كانت تصلح تمامًا لأن تكون روايةً ناجحة، وإن كان في الوقت الحالي لا يرى بوضوح إلى أين يُمكن أن تؤدّي، لا سيّما أنّه لم يفهم سبب ادّعاء ماتيلد أنّ القصّة تعنيه هو؟ لم تطأ قدمه قطّ هاواي أو تايوان أو حتى ألاباما. فإن كانت القصّة مرتبطة به، فلن تكون إلّا من حيث محتوى الصور، ولكن لم يعن له شيء أيّ من الاسمين اللذين ذكرتهما: أبولين شابوي وكريم عمراني.

ومـع ذلـك، شعر بـأنّ هـذه المسألة برمّتها لـن تمرّ مـن دون عواقب. فوراء هذا الإخراج يكمن شيء أكثر خطورة من مجرّد لعبة إغراء أدبي بسيطة. عمّا كانت تبحث تلك الفتاة، بحقّ السماء؟ لقد حقّقت هدفها على المدى القصير في كلّ الأحوال، إذ إنّه لم يغمض له جفن طوال الليل. لقد وقع في الفخّ كعديم الخبرة. والأسوأ من ذلك: كان ردّ فعله تمامًا كما كانت تتوقّع.

تبًّا... لم يَعد بإمكانه الاكتفاء بالخضوع لهذا الوضع. كان عليه أن يتصرّف، وأن يعرف المزيد عن هذه الفتاة قبل أن يُطبق عليه الفخ الذي تنصبه له. فرك ناثان يديه المتجمّدتين ببعضهما بعضًا والتوتّر بادٍ على ملامحه. من الجيّد أنّه ينوي الاستقصاء، لكن لا فكرة لديه عن كيفية فعل ذلك. بما أنّ شبكة الإنترنت ليست متاحة عنده، لم يكن بإمكانه التحرّي وهو معزول في منزله، وكاحله المتصلّب والمتورّم يسبّب له ألمًا شديدًا ما يعيق حركته بحق. مرّة أخرى، أوّل فكرة خطرت له هي الاتّصال بجاسبر فان ويك. لكنّ جاسبر كان بعيدًا. يمكنه أن يجري بعض الأبحاث له على شبكة الإنترنت، ولكن لن يكون ذراعه اليمنى القوية لشنّ هجومه المضاد على ماتيلد. رغم مُعاينة فاولز المشكلة من جوانبها كافّة، وجد نفسه ملزمًا بالاعتراف بأنّه لن يجد حلًّا لذلك إلا بطلب المساعدة. يحتاج إلى شخص واسع الحيلة ومستعدّ للمُجازفة. شخص مؤمن بقضيّته ولن يطرح عليه مئة مليون سؤال.

خطر اسم على باله. نهض عن كرسيه وعاد إلى الصالون ليجري اتّصالًا.

.2

كنت متغلغلًا في سريري وأطرافي كلّها ترتجف من البرد. لا بدّ من أنّ الحرارة قد انخفضت 10 درجات منذ يوم أمس. عندما أويت إلى فراشي، فكّرت في تشغيل جهاز التدفئة المصنوع من الحديد المصبوب في غرفة النوم، لكنّه بقي باردًا.

رأيت خيوط الشمس وهي تُشرق عبر النافذة وأنا تحت الأغطية، لكن أوّل مرّة مذ وصلت إلى هنا، شعرت بصعوبة في النهوض من السرير. إنّ اكتشاف جثّة أبولين شابوي والحصار الذي قرّرت

فرضه إدارة المقاطعة قد حوّلا بومون، في ظرف يومين فقط، من جنّة البحر الأبيض المتوسّط الصغيرة إلى مسرح جريمة ضخم.

ولّى زمن الإلفة، ومعاقرة المشروب معًا في أجواء من الفرح، ومودّة السكّان الاعتيادية. حتى دفء الطقس المؤنس هجر المكان. بات الشكّ والارتياب يُهيمنان على الجوّ في كلّ مكان. وقد ازدادت حدّة التوتّر اليوم حين عنونت صحيفة أسبوعية محلّية موضوع غلافها بالتالي: «أسرار جزيرة بومون السوداء». كما هي الحال غالبًا في هذا النوع من الملفّات الصحافية التي تُعَدُّ في عجل، لم يكن هناك أيّ معلومة صحيحة. كانت المقالات عبارة عن نسيج معلومات لم يُتَحقَّق من صحّتها، واختصارات مُضلّلة تُغذّي العناوين الرئيسية والفرعية التي لا غاية منها سوى جذب القرّاء. هكذا، صوّرت بومون تارةً أنّها جزيرة أصحاب الملايين، لأنّها لم تكن جزيرة أصحاب المليارات، وتارةً كعرين لمناصري الاستقلال المتشدّدين الذين تتخطّى شراستهم ثبات موقف أولئك الذين ينادون بتحرير كورسيكا التاريخية. كان آل غاليناري، أصحاب الجزيرة الإيطاليون المتحفّظون للغاية، يُغذّون أيضًا الأوهام. حدث كلّ شيء كما لو أنّ هذه المأساة كانت ضرورية لتكتشف فرنسا كلّها وجود هذه البقعة من أراضيها. أمّا بالنسبة إلى الصحافيين الأجانب، فلم يكلّوا هم أيضًا، وكانوا يستمتعون بنقل الشائعات الأكثر غرابة، ثمّ، تنقل وسائل الإعلام الأخبار عن بعضها بعضًا، مشوّهةً أكثر فأكثر في كلّ مرّة المعلومات الحقيقيّة. بعد ذلك، يُروَّج لكلّ هذا الكذب عبر شبكات التواصل الاجتماعي ليؤدّي إلى فوضى كاذبة لا معنى ولا هدف منها سوى استقطاب نقرات الإعجاب وإعادة نشر التغريدات. أي بمعنى آخر، انتصار فادح للرداءة والانحطاط لا أكثر.

أعتقد أنّ ما جعل أهالي بومون يُصابون بالجنون، إلى جانب الخوف من وجود قاتل بارد الدم بينهم على الجزيرة، هو رؤية جزيرتهم وأرضهم وحياتهم مكشوفة بهذا الشكل تحت أضواء إعلام القرن الحادي والعشرين القاتمة. كانت صدمتهم عميقة، لا سيّما أنّها اقترنت بجملة ردّدها الجميع بمرارة: لن يعود أيّ شيء إلى سابق عهده بعد اليوم.

من جهةٍ أخرى، كان جميع سكّان الجزيرة يمتلكون قوارب، أكانت زوارق لصيد السمك أو مراكب ضخمة وفخمة، وكان حظر استخدامها بمثابة إقامة جبرية. واعتُبر رجال الشرطة الآتين من العاصمة والذين يسيّرون دوريات في الميناء بمثابة غُزاة. وأصبح هذا التعدّي مُزعجًا أكثر إذ حتى الآن يبدو أنّهم لم يُحرزوا أيّ تقدّم يُذكر في التحقيق، باستثناء تشويه صورة أهالي جزيرة بومون. لقد دهموا المطاعم والحانات القليلة في الجزيرة، وبعض المتاجر التي يشتبه باحتوائها على غرفة تبريد أو ثلّاجة كبيرة الحجم، لكن لم يكن هناك ما يوحي بأنّ هذه التحقيقات أتت بنتيجة.

دفعني صوت التنبيه الصادر من هاتفي إلى الخروج من تحت كومة الأغطية. فركتُ النوم من عينيّ قبل أن أكتشف ما ظهر على الشاشة. كان لوران لافوري قد نشر توًّا مقالتين مُتتاليتين. دخلت إلى مدوّنته. كان منشوره الأوّل يستعرض صورة لوجهه المتورّم. فقد روى أنّه كان ضحيّة اعتداء تعرّض له في الليلة السابقة حين كان يتناول مشروبًا عند البار في حانة فلور دو مالت. وقد زعم أنّ مجموعة من الزبائن هاجمته، متّهمة إيّاه بتأجيج الهوس الذي بدأ يستولي على الجزيرة بتغريداته. كان لافوري قد أخذ هاتفه لتصوير المشهد، ولكن بحسب قوله، صادره منه آنج أغوستيني شرطي البلدية، قبل أن يسمح لصاحب الحانة بإبراحه ضربًا، وسط تشجيع

بعض الزبائن. أعلن الصحافي عن نيّته تقديم شكوى وختم مقالته بذكر نظرية «كبش محرقة» التي نشرها رينيه جيرار: كلّ مجتمع يمرّ بأزمة سيشعر بالحاجة إلى الانقضاض على كبش محرقة ليحمّله عبء آثام المجتمع بأسره.

لم يكن لافوري مخطئًا في استنتاجه الأخير، لا بل كان متبصّرًا. كان الصحافي يرصد مشاعر الكراهية ويجسّدها. يعيش في الوقت نفسه لحظة مجد ومعاناة حقيقية. كان يظنّ بحق أنّه يؤدّي واجبه المهني ليس إلّا، بينما وجدت مجموعة من سكان الجزيرة أنّه كان يصبّ الزيت على النار. غرقت الجزيرة في اللاعقلانية، ولم يكن مستبعدًا حصول تجاوزات أخرى قد يقع ضحيّتها. لتهدئة النفوس وتفادي تدهور الوضع، كان من الضروري رفع الحصار، وهو أمر بدا مستحيلًا لا سيّما أنّ إدارة المقاطعة لم تكن جاهزة بعد لإعلانه. أمّا الأهمّ فكان ضرورة العثور على مرتكب هذه الجريمة الفظيعة وبسرعة.

أمّا المقالة الثانية التي نشرها الصحافي فكانت عن التحقيق الذي تجريه الشرطة، وبنوع خاصّ التحقيق في شخصية الضحيّة وقصّتها.

في العام 1980، ولدت أبولين شابوي، وكانت شهرتها مرينياك قبل الزواج، ونشأت في الدائرة السابعة في باريس. ارتادت مدرسة سانت كلوتيلد ثمّ ثانوية فينيلون سانت ماري. كانت فتاة خجولًا ولامعة، التحقت بصفّ إعدادي، الفرع الأدبي، ولكن في العام 1998، خلال السنة التحضيرية، خرجت حياتها فجأة عن مسارها.

خلال سهرة للطلّاب، تعرّفت إلى كريم عمراني، وهو تاجر مخدّرات صغير يُجري الصفقات عند جادّة لا شابيل، ووقعت في غرامه. ترك عمراني تحصيله العلمي في مجال الحقوق في نانتير. هو

متحدّث لبق، شارد الذهن قليلًا، يميل إلى اليسار المتطرّف، يحلم بأن يصبح فيدل كاسترو ذات يوم، وتوني مونتانا في اليوم التالي.

لتثير إعجابه، تغيّبت أبولين عن حصصها وانتقلت لتسكن معه في كوخ وضيع في شارع شاتودان. شيئًا فشيئًا، أصبح كريم يتعاطى المخدّرات. وكان يحتاج دائمًا إلى المزيد من المال لدفع ثمن جرعاته. غرقت أبولين في حياة مُنحرفة رغم الجهود كافّة التي بذلتها أسرتها لإخراجها من هذه الأجواء. بدأت ممارسة الدعارة، ولكن سرعان ما لم يعد المال الذي تجنيه منها كافيًا. فأصبحت متواطئة مع كريم وغاصت معه في عالم الجنوح والانحراف. بعد ذلك، ارتكبا سلسلة عمليّات سطو، تخلّلها أحيانًا بعض العنف، وكان أبرزها وأشدّها خطورةً في سبتمبر 2000، حين سرقا حانة تقدّم الشراب وتُتيح ألعاب الميسر بالقرب من ساحة ستالينغراد. لم تنجح عمليّة السطو. تمرّد صاحب البار. ولكي يُخيفه كريم، أطلق النار من مسدّس خلّبي (فقد الرجل عينه إثر إصابته). استولى على الصندوق ولحق بأبولين التي كانت في انتظاره في الخارج على درّاجة نارية. نجحت سيّارة شرطة في تحديد موقعهما، وبدأت مطاردة انتهت لحسن الحظ من دون وقوع إصابات، عند بولفار بواسونيار، أمام سينما «غران ركس». أثناء المُحاكمة، حُكم على كريم بالسجن ثماني سنوات. أمّا أبولين فحُكم عليها بنصف المدّة.

طبعًا... تذكّرت الآن أنّ بعض التواريخ فاجأتني عندما كنت أتصفّح موقعها الإلكتروني، كما لو أنّ هناك فراغًا كبيرًا في سيرتها الذاتية.

مرّت الأيّام والسنون، وخرجت أبولين من سجن فلوري ميروجي في العام 2003، وأعادت توجيه حياتها إلى المسار الصحيح. استأنفت دراستها في بوردو، ثمّ في مونبلييه، وتزوّجت بريمي

شابوي، نجل محامٍ من المنطقة، ما لبثت أن تطلّقت منه بعد بضع سنوات من دون أن تنجب أطفالًا. في العام 2012، عادت إلى بوردو، وافتتحت متجرًا للنبيذ. كشفت عن مثليّتها بعد مرور وقت طويل، والحال أنّ من أبلغ الشرطة في بـرودو عن اختفائها كانت إحدى عشيقاتها السابقة.

في نهاية مدوّنته، مسح لافوري مقالة قديمة من صحيفة «لو باريزيان» التي نشرت تقريرًا عن محاكمة بوني وكلايد ستالينغراد. وأظـهرت صـورة بالأبيض والأسـود أبولين فتاةً شابّة طويلة القامة وهزيلة، مطاولة الوجه، وجنتاها غائرتان، وعيناها ترنوان إلى الأسفل. كـان كريم أقصر قامة منها، ممتلئ الجسم، وبـدت العزيمة على ملامحه. كان من المعروف عنه أنّه يصبح عنيفًا ومتوحّشًا حين يكون تحت تأثير المخدّرات، لكنّه أثناء المحاكمة لم يكن قد تعاطاها قطّ، فكان سلوكه نظيفًا. بخلاف نصيحة محاميه، حاول تبرئة أبولين قدر الإمكان. وقد أتت هذه الاستراتيجية بثمارها.

عندما أنهيت قراءة المنشور، قلت في قرارة نفسي إنّ اكتشاف ماضي أبولين شابوي الإجرامي يمكن أن يُساهم في تهدئة النفوس. ربّما لم يكن لجريمة قتلها أيّ صلة ببومون أو سكّانها. ربّما كان من الممكن أن تحدث في أيّ مكان آخر. تساءلت أيضًا عمّا حدث لكريم عمراني بعد خروجه من السجن. هل عاد لمزاولة أعماله الإجرامية؟ هل حاول التواصل مجدّدًا مع شريكته السابقة؟ هل كان حقًّا، في تلك الحقبة، هو من يسيطر على أبولين، أو كانت الأمور أكثر تعقيدًا وتشعّبًا؟ لقد تساءلت بشكل خاصّ عمّا إذا كان من الممكن، أن يكون ماضي أبولين الجهنّمي قد ارتدّ عليها بعد عشرين عامًا.

أمسكت بجهاز الكمبيوتر الموجود عند أسفل سريري لتدوين ملاحظات لروايتي. منذ الليلة السابقة وأنا أكتب بحماسة رهيبة،

كانت الصفحات تمتلئ تلقائيًا بكلماتي. كنت أجهل ما إذا كانت كتاباتي تساوي شيئًا، لكنّني علمت أن القدر وضعني على طريق قصّة كان على شخص ما أن يرويها. قصّة حقيقية أقوى من أيّ رواية خيال، والتي، كما شعرت، لم تكن سوى في بداياتها. لماذا كنت واثقًا في أنّ جريمة قتل أبولين كانت مجرّد غيض من فيض؟ ربّما بدا اضطراب الناس مشبوهًا بالنسبة إليّ، كما لو أنّ الجزيرة تُخفي سرًّا لم تكن على استعداد للكشف عنه. في أيّ حال، لقد أصبحت بالتأكيد إحدى شخصيات الرواية، كما في تلك الكتب التي كنت أقرأها في صغري حيث تكون أنت البطل.

وازداد هذا الشعور قوّة في الدقيقة التي تَلَت، إذ رنّ هاتفي وظهر على الشاشة رقم لا أعرفه، لكنّ الرمز أشار إلى أنّه من داخل الجزيرة.

عندما أجبت، عرفت حالًا أنّه ناثان فاولز.

طلب منّي المجيء للقائه في منزله.

على الفور.

.3

هذه المرّة لم يستقبلني فاولز بطلقات نارية من البومب أكشن، ولكن بفنجان من القهوة اللذيذة. كان منزله من الداخل كما تخيّلته: متقشّف ومُبهر، بارد ودافئ في الوقت نفسه. المنزل المثالي لروائي. تخيّلت من دون صعوبة شخصيات مثل همينغوي أو نيرودا أو سيمنون وهي تكتُب هنا. أو حتى ناثان فاولز...

كان يرتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض وكنزة مع ياقة بسحّاب، ويضع الماء لكلبه. لم يكن يعتمر قبّعة بنما ولم يكن يضع نظّارة شمسية، فتمكّنت أخيرًا من رؤية شكله الحقيقي. بصراحة،

لم تظهر عليه علامات التقدّم في السنّ مقارنةً بصوره في أواخر التسعينيّات. كان فاولز متوسّط البنية، لكنّه يتمتّع بشخصية آسرة يفرض حضورها. كانت الشمس قد سفعت سحنته باللون الأسمر، وكانت عيناه صافيتين كالمياه الشفّافة التي يمكن تأمّلها في البعيد. لحيته مرخية منذ ثلاثة أيّام وشعره يغلب عليه السواد أكثر من الشيب. كان يشعّ منه شيء ما غامض وبعيد المنال. قوّة تجمع بين الرزانة والإشراق في الوقت نفسه. إشعاع مُظلم نجهل ما إذا كان يجب الحذر منه أم لا.

– فلنجلس في الخارج، اقترح عليّ وهو يتناول حقيبة صغيرة من الجلد المهلهل كانت موضوعة على كرسي عتيق.

تبعته إلى التراس. كان الجوّ لا يزال باردًا بعض الشيء، لكنّ الشمس مشرقة. في الطرف الأيسر، حيث كان فاولز متربّصًا بي في المرّة الأولى التي قابلته فيها، أفسحت الحجارة المرصوفة المجال أمام بقعة من التراب المرصوص قبل أن تستعيد الصخور موقعها الطبيعي. كانت طاولة بأرجل معدنية مثبّتة في الأرض تظلّلها ثلاثة أشجار صنوبر ضخمة، ويحيط بها مقعدان من الحجر.

دعاني فاولز إلى الجلوس وجلس قبالتي.

– سأدخل في صلب الموضوع، خاطبني وعيناه تحدّقان في عينيّ. إن استدعيتك إلى هنا، فذلك لأنّي بحاجة إليك.

– إليّ أنا؟

– أنا بحاجة إلى مساعدتك.

– إلى مساعدتي؟

– توقّف عن تكرار ما أقول، هذا مزعج. أنا بحاجة لكي تسدي لي خدمة، هل تفهمني؟

– ماذا؟

– أمر مهمّ وخطير.

– ولكن... إذا كان أمرًا خطيرًا، فعلامَ سأحصل أنا في المقابل؟

وضع فاولز حقيبته على صدر الطاولة المكسوّ ببلاط من السيراميك.

– ستحصل على ما في هذه الحقيبة.

– لا يهمّني ما في داخل الحقيبة.

رفع عينيه نحو السماء.

– كيف يمكنك أن تقول إنّك غير مُهتمّ وأنت لا تعلم حتى ما تحتوي عليه؟

– ما أريده هو أن تقرأ مخطوطتي.

بهدوء، فتح فاولز الحقيبة لإخراج الرواية التي رميتها له خلال لقائنا الأوّل.

– لقد قرأت نصّك، أيّها الصغير! أجابني والبسمة مرسومة على شفتيه.

أعطاني مخطوطة «خجل القمم» والسرور بادٍ على وجهه لأنّه تمكّن من الإيقاع بي.

قلّبت الصفحات بحماسة. تضمّنت ملاحظات مشروحة بإسهاب. لم يقرأ فاولز روايتي فحسب، بل صحّحها بشكل جدّي، حيث خصّص لقراءتها وقتًا طويلًا. فجأة انتابني الذعر. لقد تمكّنت من تحمّل رفض دور النشر والملاحظات المتعجرفة الآتية من أحمق مثل برنارد دوفي، لكن هل سأتمكّن من تخطّي تهكّم كاتبي المفضّل؟

– كيف وجدتها؟ سألته وقد أصابني تشنّج.

– بصراحة؟

– بصراحة. هل هي مريعة؟

مستمتعًا بتعذيبي، أخذ فاولز رشفة من القهوة وكلّ وقته قبل أن يجيبني:

– أوّلًا، أعجبني العنوان، رنّته، ورمزيته...

انقطعت أنفاسي.

– ومن ثمّ عليّ الاعتراف بأنّها مكتوبة بشكل جيّد...

تنفّست الصعداء، على الرغم من يقيني أنّ «مكتوبة بشكل جيّد» بالنسبة إلى فاولز ليس ثناءً بالضرورة، وهذا ما سارع إلى إيضاحه:

– لا بل يمكنني القول إنّها مكتوبة بشكل مُتقن.

بدوره أخذ المخطوطة وقلّب صفحاتها:

– لقد لاحظت أنّك استعنت بأمرين أو ثلاثة من كتاباتي. ومن ستيفن كينغ أيضًا وكورماك ومكارثي ومارغريت آتوود...

لم أكن أدري ما إذا كان من المفترض أن أجيبه أم لا. كان هدير الموج، أسفل الجرف، يصل إلينا بقوّة جعلتنا نشعر بأنّنا على متن قارب.

– لكن لا يهمّ، تابع قائلًا، لا بأس أن يكون لديك قدوات في الكتابة في بداياتك، فهذا يُثبت في الأقلّ أنّك طالعت كتبًا جيّدة.

واصل تقليب الصفحات لمراجعة ملاحظاته.

– هناك تطوّرات، وغالبًا ما تكون الحوارات محبوكة بإتقان، وأحيانًا مُضحكة، ولا يمكن القول إنّنا نشعر بالملل...

– ولكن؟

– ولكن ينقص العنصر الأساسي.

آه طبعًا، كان لا بدّ من «ولكن»...

– وما العنصر الأساسيّ؟ سألته، وأنا مستاء بما فيه الكفاية.

– ما هو برأيك؟

– لا أدري. الإبداع؟ الأفكار الجديدة؟

– لا، الأفكار لا تهمّ، فهي في كلّ مكان.

– آلية القصّة؟ مدى تناسب القصّة الجيّدة والشخصيات المثيرة للاهتمام؟

– الآلية عنصر يخصّ الميكانيكي. والمعادلات تخصّ عباقرة الرياضيات. ليس هذا ما سيجعلك روائيًا جيّدًا.

– الكلمة الصحيحة؟

– الكلمة الصحيحة مفيدة في المحادثات، قال ساخرًا. ولكن يمكن أيّ شخص استخدام المعاجم. فكّر، ما المهمّ فعلًا؟

– المهمّ هو أن يعجب الكتاب القارئ.

– القارئ مهمّ، هذا صحيح. أنت تكتب له، نحن متّفقان، لكن محاولة إرضائه هي أفضل طريقة كي لا يقرأ لك.

– حسنًا، لا أعلم إذًا. ما هو العنصر الأساسي؟

– العنصر الأساسي هو العصارة التي تروي قصّتك. تلك التي يجب أن تتملّكك وتسري في داخلك كالتيّار الكهربائي. تلك التي يجب أن تحرق عروقك بحيث لا يمكنك سوى أن تُمضي في روايتك حتى النهاية كما لو أنّ حياتك تعتمد عليها. هذه هي الكتابة. هذا ما سيجعل القارئ يشعر بأنّه أسيرٌ، ومغمورٌ، فينسى الدنيا بما فيها تمامًا كما شعرت أنت.

كنت أستوعب ما قاله لي توًّا ثمّ تجرّأت على طرح سؤال:

– بشكل ملموس، ما مشكلة كتاباتي؟

– إنّها جافّة جدًّا. لا أشعر بالتشويق. وبشكل خاصّ، أخطر ما في الأمر هو أنّني لا ألمس أيّ شعور.

– ولكن فيها مشاعر!

هزّ فاولز رأسه.

– مشاعر زائفة. مشاعر اصطناعية، إنّها الأسوأ...

طقطق أصابعه ووضّح فكرته:

– الرواية عبارة عن شعور لا عن ذكاء. لتولّد المشاعر، عليك أن تعيشها أوّلًا. عليك أن تشعر جسديًّا بمشاعر شخصياتك. جميع شخصياتك: الأبطال منهم والأوغاد.

– هل هذه هي مهنة الروائي الحقيقية؟ توليد المشاعر؟

هزّ فاولز كتفيه.

– في أيّ حال، هذا ما أنتظره أنا عندما أقرأ رواية.

– عندما قصدتك طالبًا بعض النصائح، لماذا أجبتني «افعل شيئًا آخر في حياتك بدلًا من أن تصبح كاتبًا»؟

تنهّد فاولز:

– لأنّها ليست مهنة للعقلاء. إنّها مهنة للمصابين بالفصام. نشاط يتطلّب فصامًا عقليًّا مُدمّرًا: لكي تكتب، عليك أن تكون في العالم وخارجه. هل تفهم ما أعنيه؟

– أظنّ أنّني أفهمك.

– وجد ساغان العبارة المثالية: «الكاتب حيوان مسكين، محبوس داخل قفص مع نفسه.» عندما تكتب أنت لا تعيش مع زوجتك أو أولادك أو أصدقائك. أو بالأحرى، تتظاهر بالعيش معهم. وجودك الحقيقي، تمضيه مع شخصياتك مدّة عام أو عامين أو خمسة أعوام...

في هذه اللحظة انطلق في الكلام:

– مهنة الروائي ليست وظيفة دوامها جزئي. إذا كنت روائيًّا، فستكون روائيًّا على مدار الساعة. لا عطلة لديك. أنت دائمًا في حالة تأهّب، تبحث دائمًا عن فكرة عابرة، عن عبارة، عن صفة يُمكن أن تُثري شخصية.

كنت أتشرّب كلماته. كان من المُذهل رؤيته وهو يتحدّث عن الكتابة بشغف. كان هو ناثان فاولز الذي كنت أتمنّى أن أجده عندما جئت إلى جزيرة بومون.

– لكن الأمر يستحقّ العناء يا ناثان، أليس كذلك؟

– نعم، الأمر يستحقّ العناء، أجابني مندفعًا. وهل تعرف السبب؟

هذه المرّة، نعم، شعرت بأنّني أعرف:

– لأنه في برهة تُصبح أنت الله نفسه.

– بالضبط. قد يبدو ذلك سخيفًا، ولكن في برهة، أمام شاشتك، تُصبح أنت الخالق الذي يمكنه أن يصنع مصائر الناس ويُطيحها. وعندما تشعر بهذه النشوة، لن يعود هناك شيء أكثر إثارة.

كانت الفرصة مواتية جدًّا فاقتنصتها:

– لماذا توقّفت إذًا؟ لماذا توقّفت عن الكتابة يا ناثان؟

توقّف فاولز عن الكلام وتجهّم وجهه. فقدت عيناه بريقهما. أصبح لونهما الفيروزي شبه كحلي، كما لو أنّ الرسّام أضاف إليه بضع قطرات من الحبر الأسود.

– تبًّا...

همس بهذه الكلمة كأنّها أفلتت من فمه. شيء ما قد انكسر.

– توقّفت عن الكتابة لأنّني لم أعد أملك القوّة، هذا هو السبب.

– لكنّك تبدو في حالة ممتازة. وفي تلك الفترة، لم تكن تبلغ من العمر سوى خمسة وثلاثين عامًا فقط.

– أنا أحدّثك عن القوّة النفسية. لم تعد لديّ المهارة الذهنية التي تتطلّبها الكتابة.

– وما السبب؟

– هذا أمر يعنيني أنا، أجابني وهو يُعيد النصّ إلى حقيبته فشمعت طقطقة قفلها.

وفهمت حينذاك أنّ الفصل الأدبي من اللقاء قد انتهى وأنّنا سننتقل إلى شيء آخر.

.4

– حسنًا، هل ستقبل بمساعدتي، نعم أو قطعًا لا؟

بكلّ جدّية، حدّق فاولز في عينيّ من دون أن يرمش له جفن.

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– أوّلًا، أريد منك أن تستعلم عن امرأة.

– من هي؟

– صحافية سويسرية موجودة على الجزيرة. اسمها ماتيلد مونّي.

– أنا أعرف تمامًا من تكون! صحت بحماسة. لم أكن أعرف أنّها صحافية. لقد قصدت المكتبة في نهاية هذا الأسبوع. حتى أنّها اشترت كتبك كلّها!

بقي فاولز جامدًا كالصخر لدى سماع هذه المعلومة.

– ماذا تريد أن تعرف عنها بالضبط؟

– كلّ ما يمكنك جمعه: ما سبب وجودها هنا، وماذا تفعل خلال النهار، وبمن تلتقي، وما الأسئلة التي تطرحها على الناس.

– هل تعتقد أنّها تحاول كتابة مقالة عنك؟

مرّة أخرى، تجاهل فاولز سؤالي.

– ثمّ أريدك أن تذهب إلى حيث تسكن وأن تدخل غرفتها...

– ماذا سأفعل لها؟

– لا شيء، أيّها الأبله! ستدخل غرفتها حين لا تكون هي هناك.

– كلّ هذا غير قانوني...

– إذا كنت تريد أن تفعل فقط ما هو مسموح به، فلن تصبح أبدًا روائيًا جيّدًا. ولن تكون فنّانًا أبدًا. تاريخ الفنّ هو تاريخ المخالفات.

– أنت تتلاعب بالكلمات، هنا، يا ناثان.

– إنّها ميزة الكاتب.

– اعتقدت أنّك لم تعد كاتبًا.

– من كان كاتبًا يومًا واحدًا يصبح كاتبًا إلى الأبد.

– ركيك هذا الأسلوب بالنسبة إلى كاتب فاز يومًا بجائزة بوليتزر، أليس كذلك؟

– اخرس.

– حسنًا، ما الذي يُفترض أن أجده في هذه الغرفة؟

– لا أعرف بالضبط. صورٌ، مقالات، معدّات معلوماتية...

سكب فنجان قهوة آخر وأخذ رشفة منه وهو مقطّب الحاجبين.

– ثمّ، أريدك أن تجوب الإنترنت لتجمع كلّ ما تستطيع جمعه عن ماتيلد، وبعد ذلك...

أخرجت هاتفي المحمول لأبدأ البحث، لكنّ فاولز أوقفني:

– اسمعني أوّلًا! ولا تضيّع وقتك. ما من شبكة واي فاي أو شبكة اتّصالات هنا.

وضعت هاتفي جانبًا كطالب أُمسِك متلبّسًا بالجرم المشهود.

– أريدك أيضًا أن تبحث عن اسمين: أبولين شابوي و...

جحظت عيناي، مُقاطعًا:

– ضحيّة جريمة القتل؟

قطّب فاولز حاجبيه.

– ماذا قلت؟

من تعابير وجهه، أدركت أنّ الروائي كان يعيش في عزلة مُطلقة إلى درجة أنّه لم يدرِ بوقوع المأساة التي كانت تهزّ بومون منذ أيّام عدّة وظروفها. أطلعته على التفاصيل كافّة التي أعرفها: جريمة قتل أبولين وجثّتها المُجمّدة وماضيها الإجرامي مع كريم عمراني وحصار الجزيرة.

كنت كلّما كشفت عن معلومة جديدة، رأيت الدهشة تزداد أكثر في عينيه وعلى ملامح وجهه. القلق الذي لاحظته لدى وصولي إلى منزله حلّ مكانه ارتياع مُطلق وهلع واضح سيطرا على كيانه كلّه.

عندما انتهيت من التحدّث إليه، كان فاولز مترنّحًا. كان بحاجة إلى بعض الوقت ليتمالك نفسه، لكنّه في النهاية استعاد رباطة جأشه. وبعد تردّد، زوّدني بدوره ببعض المعلومات، إذ روى لي القصّة التي أخبرته بها ماتيلد مونّي في الليلة السابقة: المسار المُذهل لهذه الكاميرا التي فقدتها أبولين وكريم. في اللحظة ذاتها، لم أفهم شيئًا يُذكر. منعني تراكم الوقائع من ربط بعضها ببعض. كان لدي الكثير من الأسئلة لأطرحها على فاولز، لكنّه لم يمنحني الوقت لأفعل ذلك. ما إن أنهى سرد قصّته، حتى أمسكني من ذراعي ورافقني إلى المدخل.

– اذهب وفتّش غرفة ماتيلد، على الفور!

– لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن. عليّ أن أتسلّم دوامي في المكتبة.

– تدبّر أمرك! صاح بي. احصل لي على معلومات!

صفق الباب خلفي. أدركت أنّ الوضع كان خطيرًا وأنّ مصلحتي تقضي بتنفيذ ما طلبه منّي فاولز.

7

الشمس الساطعة

هنا أرض مجهولة وخطيرة.

.1

الطرف الجنوبي الغربي للجزيرة.

صفقت ماتيلد مونّي باب الشاحنة، وشغّلت المحرّك، والتفّت على الطريق المرصوف بالحصى. من الخارج، كانت غرفة الضيوف التي تعيش فيها الصحافية تبدو أنّها منزل ريفي إنكليزي. بيت صغير نصف خشبي، مسقوف بالقشّ، واجهته من حجر الرخام غزتها الورود المُتسلّقة. في الخلف حديقة برّية تمتدّ حتى جسر قديم بقنطرتين يسمح بالوصول إلى شبه جزيرة القدّيسة صوفيا.

لقد زرت الساحل الجنوبي مرّتين فقط. الأولى لرؤية الدير القريب حيث تعيش الراهبات البينيدكتيين، والثانية مع آنج أغوستيني، يوم عُثر على جثّة أبولين بالقرب من شاطئ تريستانا بيتش. عندما وصلت إلى الجزيرة، أخبرني أوديبير أنّه من الناحية التاريخية، كان هذا الجزء من بومون المكان المفضّل للناطقين باللغة

الإنكليزية. وكانت ماتيلد تُقيم بالضبط عند امرأة إيرلندية مسنّة. كان المنزل ملك كولين دنبار منذ دهور، وهي مهندسة معمارية سابقة كانت تُعزّز مدخولها الشهري بتأجير غرفة الطابق الأوّل مقابل المبيت والإفطار.

تخلّيت عن درّاجتي للمجيء إلى هنا. كنت خائر القوى بعد عودتي من عند فاولز، فاستأجرت سكوتر كهربائية من أمام إدز كورنر، أخفيتها في إحدى الأجمات. اضطررت إلى الجدال مع أوديبير ليسمح لي بالتغيّب صباحًا. أصبح المكتبيّ متقلّب المزاج بصورة متزايدة، كما لو أنّه يحمل على كاهله بؤس العالم كلّه.

في انتظار أن يصبح الطريق خاليًا، نزلت على الصخور إلى بقعة لم تكن شديدة الانحدار. من موقع مراقبتي، استمتعت بجمال هذه الزاوية البرّية الساحر مع الحرص على ألّا يغيب البيت عن نظري. قبل عشرين دقيقة، رأيت دنبار العجوز وهي تُغادر منزلها. جاءت ابنتها لاصطحابها بالسيّارة للتسوّق. وكانت ماتيلد على وشك أن تغادر هي أيضًا. ابتعدت الشاحنة من البيت واتّجهت غربًا، حيث كان الطريق مسطّحًا ومستقيمًا. انتظرت حتى غابت عن نظري لكي أخرج من مخبئي، وأتسلّق الصخور وأتوجّه إلى البيت.

ألقيت نظرة سريعة حولي فاطمأننت. لم يكن هناك أيّ جار قريب. وكان الدير يقع على بُعد أكثر من مئة متر. ولمّا ركّزت جيّدًا، لمحت ثلاث راهبات أو أربعًا منشغلات في بستان الخضار، ولكن ما إن التفت للابتعاد من الجزء الخلفي من المنزل، لم يعد بإمكانهنّ رؤيتي.

بصراحة، لم أكن مرتاحًا قطّ لفكرة فعل ما هو ممنوع. كنت سجينًا طوعًا طوال حياتي لمتلازمة الطالب الجيّد. كنت طفلًا وحيدًا، ابن الطبقة المتوسّطة التي يعتمد بقاؤها على توازن ميزانيّتها الهشّة.

لقد استثمر والـداي دائمًا الكثير من كلّ شيء: وقتهما وطاقتهما والقليل من المال الـذي كانا يكسبانه، حتى أتمكّن من النجاح في دراستي وأكـون «شخصًا جيّدًا». منذ صغري، عملت جاهدًا كي لا أخيّب آمالهما وأتجنّب الحماقات. وأصبح هذا الجانب الكشفي طبيعتي الثانية. كانت مرحلة المراهقة في حياتي أشبه بسيل طويل وهـادئ. ربما دخّـنت ثلاث سجائر في الملعب عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وتجاوزت الإشارة الحمراء مرّتين أو ثلاثًا على السكوتر، وسجّلت بعض الأفلام الإباحية من شاشة «كانال بلوس»، وكسرت أنف رجل ركلني بعنف أثناء لعب كرة القدم، ولكن كان هذا كلّ شيء تقريبًا.

حتى أنّ الهدوء التامّ نفسه كان مسيطرًا على حياتي حين كنت طالبًا. ثملت مرّتين، «نشلت» قلم حبر من خشب شجر الأموريت من طالب من كلّية إدارة الأعمال وسرقت مجموعة لجورج سيمنون من مكتبة «وي إيكوت في بولفار مونبارناس. منذ ذلك الوقت، أقفلت المكتبة، وفي كلّ مرّة كنت أمرّ فيها أمام متجر الملابس الذي حلّ مكانها، كنت أتساءل عمّا إذا كنت أنا من تسبّب في هذا الإقفال.

وبالحديث عن أمور جدّية أكثر، لم أدخّن سيجارة حشيش أو أتعاطى أيّ نوع من المخدّرات قطّ، وبصراحة، لم أكن حتى أعرف كيف يمكن الحصول عليها. لم أكن أعشق الحفلات، كنت بحاجة إلى ثماني ساعات من النوم ليليًا. ومنذ عامين أعمل طيلة الأيّام، بما في ذلك نهاية الأسبوع وأيّام العطل، إمّا لكتابة كتابي، أو لتأدية وظائف حيوية لتسديد الإيجار. في الرواية، كان بإمكاني أن أجسّد بصورة مثالية شخصية الشابّ الساذج والعاطفي الذي سيصبح أشدّ صلابة إثر التحرّيات وتطوّراتها المفاجئة.

مشيت إذًا نحو المدخل، مُحاولًا الحفاظ على هدوئي. أقسم لي الجميع إنه في بومون، لم يكن الناس يقفلون أبوابهم. أدرت المقبض الذي بقي عالقًا. أسطورة أخرى أخبرها سكّان الجزيرة للسيّاح أو السذّج المساكين مثلي. أو ربّما اكتشاف جثّة أبولين على بعد كيلومترات قليلة من هنا دفعت الصحافية لكي تكون أكثر حذرًا.

كان عليّ اقتحام المكان. نظرتُ إلى باب المطبخ الزجاجي، ولكن بدا لي زجاجًا سميكًا للغاية يصعب كسره من دون أن أؤذي نفسي. عُدت إلى الجزء الخلفي للمنزل. في البعيد، بدا أنّ الراهبات تركن بستان الخضار. حاولت تشجيع نفسي. ما عليّ سوى العثور على زجاج أقلّ مقاومة وكسره بمرفقي. على ترّاس شُيّد في عجل، وضعت الإيرلندية طاولة من خشب الساج المائل إلى الرمادي وثلاثة كراسٍ أدّت أشعّة الشمس والمطر وملح البحر إلى تأكّلها بشكل كامل. خلف هذا الصالون الصيفي، تفاجأت برؤية إحدى درفتي الباب المتحرّك مفتوحة. هل هذا أروع من أن يُصدّق؟

.2

دخلت الصالون. كان المكان هادئًا ويغمره دفء شديد. وقد عبق برائحة فطيرة تفّاح بالقرفة تجمع بين الدفء والحلاوة. كان الديكور متناسقًا مع الأجواء: غُلبة ملبّس ذات طابع بريطاني مع شموع كثيرة، وبطّانيّات اسكتلندية، وستائر مزركشة بنقوش زهرية، وورق جدران رومانسي، وأطباق مُعلّقة على الجدران.

كنت على وشك الصعود إلى الطابق العلوي عندما سمعت ضجيجًا. التفتّ ورائي فرأيت كلبًا دانماركيًا ضخمًا ينقضّ عليّ. توقّف على بُعد متر واحد منّي، وهو في وضعيّة الهجوم. كان كُرة ضخمة من العضلات، وبره داكن ولامع، يصل طوله إلى مستوى أسفل

بطني. أذناه منتصبتان في حالة تأهّب، حدّق فيّ بنظراته المُهدّدة، مُزمجرًا بطريقة مُرعبة. حول رقبته ميدالية ضخمة نُقش عليها اسمه ليتل ماكس. لا بُدّ أنّ اسمه كان ظريفًا عندما كان الكلب في سنّ الشهرين أو الثلاثة، لكنّه الآن لم يعد يبدو مناسبًا جدًّا لحجمه. أردت الانسحاب، لكنّ هذا الأمر لم يمنع الكلب من الهجوم عليّ. ابتعدت في اللحظة الأخيرة، وهرعت نحو السلالم، فصعدت كلّ ثلاث درجات دفعة واحدة، إذ شعرت بأنّ الكلب يكاد يغرز أنيابه في ساقي. بذلت مجهودًا ودفعت بنفسي إلى أعلى السلالم، ثمّ دخلت الغرفة الأولى التي صادفتها وصفقت الباب حرفيًّا في وجه الكلب.

فيما كان ينبح غاضبًا وهو يلقي بنفسه على درفة الباب، التقطت أنفاسي واستجمعت أفكاري. لقد حالفني الحظّ، حسنًا، إن جاز التعبير، لأنّني كنت على وشك أن أفقد قدمًا، من الواضح أنّني كنت في الغرفة التي استأجرتها ماتيلد.

كانت أشبه باستوديو، فيها عوارض خشبية مكشوفة فاتحه اللون، تسكنها روح ماركة لورا أشلي. وُضعت باقات من الأزهار المُجفّفة على أثاث عتيق أعيد طلاؤه بألوان الباستيل الباهتة، وزيّنت أنماط ريفية الستائر والأغطية. لكنّ ماتيلد كانت قد حوّلت غرفة المبيت والإفطار إلى مساحة للعمل. غرفة عمليّات مثالية مُخصّصة لهوس واحد: ناثان فاولز.

كان الكرسي المخمل الوردي المُجنّح منهارًا تحت ثقل الكتب والملفّات. وقد حُوِّلَت الطاولة الرئيسية إلى مكتب، وطاولة التزيّن مع مرآتها إلى أثاث لوضع الطابعة. في حين استمرّ ليتل ماكس في الخربشة خلف الباب، بدأت تفحّص المستندات.

كان من الواضح أنّ ماتيلد مونّي تجري تحقيقًا حقيقيًّا حول فاولز. لم يكن هناك جهاز كمبيوتر على مكتبها، ولكن كانت هناك

العشرات من المقالات المطبوعة المُظلّلة بقلم ستابيلو. كنت أعرف هذه الأوراق. إنّها تلك التي كانت تظهر دائمًا حين أجري بحثًا في شبكة الإنترنت: المقابلات القديمة نفسها من حقبة التسعينيّات، التي أجريت قبل أن يعتزل فاولز الكتابة، ثمّ مقالتان مرجعيتان، الأولى نشرتها صحيفة «نيويورك تايمز» في العام 2010، بعنوان «الرجل الخفي»، والثانية نشرتها «فانيتي فير» الأميركية قبل ثلاث سنوات، بعنوان «فاولز أو خطأ (والعكس صحيح)».

دوّنت ماتيلد أيضًا الملاحظات على صفحات كتب الروائي الثلاثة وطبعت الكثير من صور ناثان. بما في ذلك لقطات عن الشاشة مأخوذة من مقابلته الأخيرة في برنامج برنارد بيفو، «بويون دو كولتور». لسبب كنت أجهله، أخذت لقطات مقرّبة... للحذاء الذي انتعله فاولز أثناء المقابلة. دقّقت في أوراقها بعناية أكبر. من خلال دخولها إلى منتديات متخصّصة، اعتقدت ماتيلد أنّها وجدت الطراز المُحدّد: جزمة ويستون مرجع «مقوّس [كامبر] 705» من جلد العجل البنّي مع شريط مطّاطي على الجانبين.

حكّيت رأسي مفكّرًا. ما الهدف من كلّ ذلك؟ لم تكن الصحافية تكتب مقالة أخرى لا أهمّية لها لتُضيفها إلى مئات المقالات المكتوبة عن مُنعزل جزيرة بومون. كان تحقيقها عن فاولز مشابهًا لتحرّيات الشرطة. لكن ما دوافعها؟

عندما فتحت ملفّات الكرتون المتراكمة على الكرسي المُجنّح، اكتشفت شيئًا آخر: صورًا التُقِطَت بعدسة تقريب بصري لرجل شوهد في أماكن مختلفة. مغربي في الأربعينيّات من عمره مرتديًا تي شيرت وسترة جينز. تعرّفت فورًا إلى المكان: إيسون، وبالتحديد مدينة إيفري. لا مجال للشكّ. كانت هناك أماكن معروفة كافية ظاهرة في الصور. الكاتدرائية ذات الهندسة المعمارية المتنازع عليها، ومركز

التسوق إيفري 2، وبارك دي كوكيبوس، وساحة محطّة السكك الحديد إيفري كوركورون. خلال سنتي الأخيرة في كلّية إدارة الأعمال، كانت لدي صديقة عاشت هناك. جوانا بافووفسكي. وصيفة ثالثة في مسابقة ملكة جمال إيل دو فرانس 2014. أجمل وجه يمكن تصوّره. عينان خضراوان واسعتان، شقار بولندي نموذجي، نعومة وأناقة في كلّ حركاتها. غالبًا ما كنت أرافقها بعد الصفّ. خلال رحلة لا تنتهي عبر شبكة القطار السريع في إيل دو فرانس، الخطّ د، من غار دو نور إلى إيفري. حاولت أن أقنعها باعتناق ديني، وهو دين القراءة. قدّمت لها كتبي المفضّلة، «رواية غير مُكتملة»، و«الخيّال فوق السطح»، و«حسناء اللورد»، ولكن لم يؤثّر فيها شيء. كانت جوانا تتمتّع بمظهر البطلة الرومنسية، لكنّها لم تكن تمتّ للرومنسية بصلة.

كنت حالمًا، كانت واقعية. كانت مُتجذّرة بالكامل في واقع الأمور، في حين كانت المشاعر ملعبي أنا. هجرتني عندما تركت الكلّية للعمل في متجر للمجوهرات في مركز للتسوّق. بعد ستّة أشهر، دعتني إلى مقهى لتُخبرني بأنّها ستتزوّج جان باسكال بيشار، المعروف بجي بي بي، أحد مديري الأقسام في السوق التجارية ضمن مركز التسوّق نفسه. إنّ القصائد التي استمررت في كتابتها لها لم يكن لها أيّ قيمة مقارنة بالبيت الصغير في سافيني سور أورج الذي اشتراه جي بي بي بالتقسيط مدّة خمسة وعشرين عامًا. لإرضاء غروري المُحطّم، قلت في نفسي إنّها ستندم ذات يوم حين ستسمعني أتحدّث عن روايتي الأولى في برنامج «لا غراند ليبراري». في انتظار هذه اللحظة، أشعرني زواجها بإحباط دائم. وكنت كلّما فكّرت في جوانا، التي كنت أنظر إلى صورة لها في هاتفي، كنت بحاجة إلى وقت طويل لأعترف بأنّه لا علاقة أبدًا لرقّة سماتها برقّة روحها. لمَ

يجب ربط الاثنين ببعضهما بعضًا في المناسبة؟ كان دليلاً زائفًا عليّ أن أرسّخه في ذهني على هذا النحو لتجنّب خيبات أمل أخرى.

نُباح الكلب من خلف الباب نشلني من أفكاري وذكّرني بالحالة الطارئة، فعدت وغصت في الصور. أشار ختمها الزمني إلى 12 أغسطس 2018. من التقطها؟ شرطي، أم محقّق خاصّ، أم ماتيلد نفسها؟ والأهمّ، من كان هذا الرجل؟ فجأةً، في لقطة أمكن فيها رؤية عينيه بشكل أوضح، تعرّفت إليه: كان كريم عمراني. هو نفسه إنمّا كبر عشرين سنة، وزاد وزنه العدد نفسه من الكيلوغرامات.

بعد انقضاء مدّة عقوبته في السجن، استقرّ المُنحرف الصغير السابق من جادّة لا شابيل في إيسّون. وفي صور أخرى، كان يتحدّث مع ميكانيكيين، ويدخل ورشة بدا أنّه مديرها أو صاحبها ويخرج منها. هل اندمج في المُجتمع وعاد للحياة العادية تحت سقف القانون مثل أبولين؟ وهل كانت حياته هو أيضًا مُهدّدة؟ لم يكن لديّ الوقت ولا الأدلة للإجابة عن هذين السؤالين. فكّرت في أخذ هذه الوثائق معي. لكن كي لا أترك أثرًا لزيارتي، قرّرت في نهاية المطاف أن أصوّر الأهمّ بينها بواسطة هاتفي.

بقيت الأسئلة تتصارع وتتدافع في ذهني. لماذا كانت ماتيلد مهتمّة بعمراني؟ بسبب قصّة الكاميرا تلك من دون شكّ، ولكن ما الرابط مع فاولز؟ وعلى أمل إيجاد الجواب، فتّشت الغرفة بشكل أدقّ ومن ثمّ الحمّام قبل أن أغادر. لم أجد شيئًا تحت الفراش أو في الأدراج أو في الخزائن. رفعت غطاء دورة المياه لتفقّد داخله وتفحّصت الأرضيّة بقدمي: لم تكن ثابتة في الأماكن كافّة، لكنّني لم أجد لوحًا يمكن نزعه لاستخدامه كمخبأ.

ومع ذلك، خلف المرحاض، أفلت لوح من الألواح مجرّد أن لمسته. من دون أن أعقد آمالًا كبيرة، جثمت على الأرض وأدخلت

ساعدي في الشقّ حيث عثرت على حزمة سميكة من الرسائل المربوطة بشريط مطّاطي. في اللحظة التي كنت سأعاينها، سمعت هدير محرّك. توقّف ليتل ماكس عن النباح عند الباب واندفع إلى أسفل الدرج. ألقيت نظرة عبر الستارة. فرأيت أنّ كولين دنبار وابنتها قد عادتا. نظرًا إلى الوضع الطارئ، طويت حزمة الرسائل ووضعتها في جيب سترتي الداخلي. انتظرت حتى اختفت المرأتان من حقل نظري قبل أن أفتح النافذة المنزلقة الإطارين المُطلّة على سطح مخزن. من هناك قفزت على العشب، واجتزت الطريق وساقاي ترتعشان لكي أصل إلى السكوتر.

فيما كنت أشغّل المحرّك، سمعت نباحًا خلفي. كان الكلب الدانماركي الضخم قد شرع يطاردني. انطلقت الدرّاجة الكهربائية ببطء مُجتازةً الأمتار القليلة الأولى، وتوجّهت صعودًا بصعوبة بسرعة أربعين كيلومترًا في الساعة فقط، لكن لدى وصولها أخيرًا إلى المنحدر، ازدادت سرعتها فرفعت للكلب إصبعي الوسطى مُنتصرًا حين رأيت أنّه قد استسلم وعاد أدراجه منهزمًا.

تبًّا لك ليتل ماكس...

.3

كانت الشمس اللاهبة في كبد السماء كما لو أنّ الصيف قد عاد من جديد. باتت الرياح دافئة وهادئة. راحت ماتيلد تقفز على الصخور بسهولة مطلقة، مُرتدية شورت من الكتّان وتي شيرت بلوندي.

جون الصنوبر من أكثر الأماكن الخلّابة في الجزيرة، هو عبارة عن وادٍ صغير، سحيق وضيّق، منحوت داخل صخرة ناصعة البياض.

كان الوصول إليه يستحقّ العناء ويتطلّب بذل بعض المجهود. أوقفت ماتيلد سيّارتها عند واجهة رصيف شاطئ بلاج دي زوند،

ثمّ سلكت المسار المحفور كمتاهة في الغرانيت. مشت ما يُقارب الساعة للوصول إلى الجون. كان الطريق في البداية شبه مسطّح، ثمّ بات أشدّ وعورة على طول شاطئ شديد الانحدار ومتقطّع جدًّا، يتميّز بمناظره البانورامية الساحرة والبرّية على حدّ سواء.

بدأ الطريق بعد ذلك بالانحدار نزولًا نحو البحر، وكان فعلًا محفوفًا بالمخاطر. كانت الأمتار القليلة الأخيرة هي الأصعب لأنّها أصبحت شديدة الانحدار، لكنّ الأمر كان يستحقّ العناء. عند الوصول إلى الشاطئ، يشعر المرء بأنّه بلغ الجانب الآخر من العالم، أو الفردوس المفقود: مياه فيروزية، ورمال صفراء ذهبية، وظلّ أشجار الصنوبر، وعبير أشجار الكينا المُسكر. حتى أنّ مغاور كانت في الجوار، ولكن لم يكن مسموحًا بإرشاد السيّاح إليها.

لم يكن الشاطئ الهلالي الشكل شاسعًا جدًّا، وكانت منحدرات الغرانيت تحميه من الرياح. خلال شهري يوليو وأغسطس، يصبح الشاطئ مكتظًّا أحيانًا بسبب تدفّق الروّاد، ولكن في هذا الصباح من شهر أكتوبر، كان المكان مهجورًا.

على بُعد خمسين مترًا مقابل الجون، انتصبت جزيرة صغيرة، شامخة نحو السماء، تحمل اسم بونتا ديل أغو. خلال فصل الصيف، كان المراهقون المتهوّرون يستمتعون بتسلّقها حُفاة قبل أن يغطسوا في البحر. أحد طقوس التنشئة في الجزيرة.

كانت ماتيلد تحدّق في الأفق من وراء نظّارتها الشمسية. وقد ألقى فاولز مرساة قاربه بجانب الرعن الصخري. تألّقت أجزاء يخت ريفا المطلية بالكروم وهيكله المُلمّع باللون الخشبي تحت أشعّة شمس بعد الظهر. في الوهلة الأولى، تشعر بأنّك في إيطاليا، تعيش حقبة الدولتشي فيتا الجميلة، أو في خليج سان تروبّيه في الستينيّات.

أومأت إليه من بعيد، لكن لم يبدِ أيّ استعداد للاقتراب من الشاطئ لتتمكّن هي من الصعود على متنه برفقته.

إن لم تذهب أنتَ إلى لاغارديير...

في النهاية، كانت ترتدي ثوب السباحة. خلعت ملابسها، ووضعتها في حقيبتها وتركتها عند سفح الصخور لتأخذ معها فقط الحقيبة المقاومة للماء التي تحمي هاتفها المحمول.

كانت المياه باردة إنّما صافية. شقّت مترين أو ثلاثة داخل البحر، ثمّ غطست من دون أيّ تردّد. سرى إحساس بالجليد في جسدها، بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا وهي تسبح. كان قارب ريفا في مرمى نظر المرأة الشابّة. كان فاولز واقفًا وراء المقود، وهو يرتدي قميص بولو أزرق داكنًا وبنطلونًا فاتح اللون، تفرّج عليها وهي تقترب، مكتوف الأيدي. كانت تعابير وجهه مُحيّرة غامضة، تحجبها نظّارته الشمسية. عندما أصبحت ماتيلد على مقربة من المركب، مدّ يده لها، لكنّه بدا متردّدًا في لحظة قبل مساعدتها على الصعود إلى القارب.

– في لحظة اعتقدت أنّك تودّ إغراقي.

– ربّما كان عليّ فعل ذلك، أجابها وهو يعطيها منشفة.

ذهبت لتجلس في المقعد الجلدي الفيروزي اللون، والذي استوحي اسم القارب منه.

– يا له من استقبال! قالت متعجّبة، وهي تجفّف شعرها وعنقها وذراعيها.

اقترب منها فاولز.

– لم يكن هذا اللقاء فكرة سديدة. أُرغمت على إخراج مركبي رغم الحظر.

فتحت ماتيلد ذراعيها.

– بما أنّك أتيت، فهذا يعني أنّ قصّتي تثير فضولك! الحقيقة لها ثمن!

كان فاولز عكر المزاج.

– هل تستمتعين بكلّ ذلك؟ سألها.

– حسنًا، أتريد أن تسمع بقيّة القصّة أم لا؟

– لا تظنّي أنّني سأرجوك! أنت ترغبين في إخباري القصّة أكثر ممّا أرغب في سماعها.

– ممتاز. كما تشاء.

تظاهرت بأنّها ستعود إلى الماء، لكنّه أمسك ذراعها.

– أوقفي ألاعيبك الطفولية! أخبريني ماذا كانت تتضمّن الصور الموجودة على الكاميرا.

أمسكت ماتيلد بحزام الحقيبة المقاومة للماء التي وضعتها على المقعد. شغّلت هاتفها، وفتحت تطبيق الصور، وضبطت مستوى إضاءة الشاشة إلى حدّه الأقصى قبل أن تري فاولز الصور التي اختارتها.

– هذه هي الصور الأخيرة التي التُقِطَت، وهي في يوليو 2000.

تفرّج فاولز على الصور متنقّلًا بين الواحدة والأخرى بإصبعه على الشاشة. كان هذا بالضبط ما توقّعه. صور إجازة هاواي التي أمضاها المجرمان اللذان فقدا الكاميرا: أبولين وكريم على الشاطئ، أبولين وكريم يُمارسان الحبّ، أبولين وكريم يشربان حتى الثمالة، أبولين وكريم يغوصان.

الصور الأخرى التي أرته إيّاها ماتيلد كانت أقدم. كانت تعود إلى ما قبل ذلك بشهر. عرضها فاولز فأخذته على حين غرّة كما لو أنّه تلقّى لكمة في المعدة. ظهرت عائلة مؤلّفة من ثلاثة أفراد يحتفلون بعيد ميلاد.

رجل وامرأة وابنهما البالغ من العمر عشر سنوات تقريبًا. كان الطقس ربيعيًا، وقد تناولوا العشاء على التراس. كاد الليل يسدلُ ستاره، غير أنّ السماء ما زالت وردية اللون. في الخلفية، يُمكن رؤية أشجار، كما يمكن رؤية الأسطح الباريسية وحتى ظلّ برج إيفل.

– انظر جيّدًا إلى الصبي الصغير، طلبت منه ماتيلد بصوت متوتّر، واختارت صورة مقرّبة.

حمى فاولز الشاشة من الشمس وتوقّف عند صورة الصغير. وجه ماكر، عينان لامعتان خلف نظّارة ذات إطار أحمر، شعر أشقر مُبعثر، العلم الثلاثي الألوان مرسوم على الوجنتين. يرتدي قميصًا أزرق لفريق كرة القدم الفرنسي رافعًا علامة النصر. بدا دمث الخلق ولطيفًا وظريفًا.

– هل تعرف ما كان اسمه؟ سألت.

هزّ فاولز رأسه.

– كان اسمه تيو، قالت له. تيو فيرنوي. كان يحتفل بعيد ميلاده الحادي عشر في تلك الليلة. كان يوم الأحد 11 يونيو من العام 2000، مساء أوّل مباراة للمنتخب الفرنسي في بطولة كرة القدم الأوروبية.

– لماذا تريني هذا؟

– هل تعرف ما حصل له؟ بعد حوالى ثلاث ساعات من التقاط هذه الصورة في الليلة نفسها، قُتل تيو برصاصة في ظهره.

.4

لم يرمُش فاولز. مرّر إصبعه على الشاشة لإلقاء نظرة فاحصة على صور والدي الطفل. والده، في الأربعينيّات من عمره، نظرته مليئة بالحياة، بشرته مُسمرّة، فكّه مُحدّد، يجسّد قدرًا من الثقة، والرغبة في التحرّك

والمضي قدمًا. الوالدة، سمراء جميلة، تصفيفة شعرها أنيقة، بدت أنّها على هامش ما يحدث.

– هل تعرفهم؟ سألت ماتيلد.

– نعم، إنّهم عائلة فيرنوي. لقد كثُر الحديث عن هذه القضيّة في تلك الأيّام فما زلت أتذكّرها.

– وما الذي تتذكّره بالضبط؟

حكّ فاولز لحيته الخفيفة وأغمض عينيه نصفًا كمن يحاول أن يتذكّر.

– كان ألكسندر فيرنوي طبيبًا مشهورًا ناشطًا في المنظّمات الإنسانية، يميل إلى اليسار سياسيًّا. كان ينتمي الى الموجة الثانية من الأطبّاء الفرنسيين، وقد ألّف بضعة كتب وكانت له أحيانًا إطلالات في وسائل الإعلام للحديث عن أخلاقيات علم الأحياء أو التدخّل الإنساني. بحسب ما أذكر، حين بدأ الرأي العام يعرفه فعلًا قُتل في منزله هو وزوجته وابنه.

– كانت زوجته تدعى صوفيا، أوضحت ماتيلد.

– لا أذكر ذلك، قال وهو يبتعد من المقعد. لكنّني أذكر جيّدًا وبشكل خاصّ أنّ ملابسات عمليّات القتل هذه قد صدمت الناس. دخل القاتل، أو ربّما القتلة، شقّة فيرنوي وفتكوا بأفراد الأسرة كلّهم من دون أن ينجح التحقيق في تحديد دافع جرائم القتل هذه أو اسم الجاني أو الجناة.

– بالنسبة إلى الدافع، لطالما ساد الظنّ بأنّها سرقة، أوضحت ماتيلد، وهي تسير نحو مقدّم المركب. فقد اختفت ساعات ومجوهرات قيّمة، إضافة إلى... كاميرا.

بدأ فاولز يفهم ما يحصل.

– إذًا هذه هي فرضيّتك: تعتقدين أنّك وجدت قتلة عائلة فيرنوي بفضل هذه الصور؟ هل تعتقدين أنّ شابوي وعمراني قتلا عائلة فيرنوي لارتكاب سرقة بسيطة؟ وأنّهما قتلا طفلًا من أجل بعض الحلي البخسة؟

– هذا منطقي، أليس كذلك؟ حصلت سرقة أخرى في المبنى في الليلة نفسها، في الطابق العلوي. ويبدو أنّ الثانية لم تكن كما كان متوقّعًا.

انزعج فاولز.

– لن نُعيد فتح التحقيق اليوم أنا وأنت!

– ولـمَ لا؟ في تلك الفترة، ارتكب كريم وأبولين سلسلة من عمليّات السطو. لقد كان كريم غارقًا حتى أذنيه في المخدّرات. كانا بحاجة إلى المال طوال الوقت.

– في صور هاواي، لم يبدُ لي أنّه كان تحت تأثير المخدّرات.

– كيف تمكّنا من الحصول على الكاميرا إذا لم يسرقاها؟

– اسمعي، أنا لست مهتمًّا على الإطلاق بهذه القضيّة ولا أرى أبدًا ما علاقتي بها.

– عُثِرَ على أبولين مُسمّرة إلى شجرة على بُعد أمتار من هنا! ألا ترى أن قضيّة فيرنوي تعاود الظهور هنا في الجزيرة؟

– وماذا تنتظرين منّي؟

– أن تكتب نهاية هذه القصّة.

فجّر فاولز استياءه:

– اشرحي لي! ما الذي يُثيرك في تحريك هذه القضيّة القديمة؟ أنت تفعلين كلّ ذلك لأنّ قرويًّا من ألاباما أرسل إليك بعض الصور القديمة عبر البريد الإلكتروني، فشعرت فجأة بأنّك كُلِّفتِ مهمّة؟

– طبعًا! لأنّني أحبّ الناس.

قلّدها بصورة مُبالغة:

– «أحبّ الناس» مجرّد كلام فارغ! هل تسمعين ما تقولين؟

أجابته ماتيلد بهجوم مُضادّ:

– أعني أنّني أتأثّر بما يحدث لغيري من الناس.

راح فاولز يذرع متن المركب ذهابًا وإيابًا.

– ولكن في هذه الحالة، اكتبي مقالات لتحذير «غيرك من الناس» من التغيّر المناخي، ونضوب المحيطات، وانقراض الحيوانات البرّية، وتراجع التنوّع البيولوجي. حذّريهم من آفّة التلاعب بالمعلومات. أعيدي إدخال السياق، والمسافة، أضيفي بعض الأفق. اكتبي عن المدرسة الرسمية والمستشفى الحكومي اللذين هما على حافّة الانهيار، عن إمبريالية الشركات الكبيرة المتعدّدة الجنسيات، عن الوضع في السجون و...

– حسنًا، فاولز، فهمت الفكرة. أشكرك على المحاضرة في الصحافة.

– تناولي مواضيع مفيدة!

– تحقيق العدالة للأموات أمر مفيد.

توقّف فجأة ورفع إصبعه مهدّدًا.

– الأموات قد قضوا. وهم لا يهتمّون إطلاقًا بمقالاتك الصغيرة، حيث هم الآن، صدّقيني. أمّا بالنسبة إليّ، فلن أكتب أبدًا سطرًا واحدًا عن هذه القضيّة. ولا عن أيّ قضيّة أخرى على فكرة.

ابتعد فاولز مغتاظًا، وذهب للجلوس في قمرة القيادة. خلف الزجاج الأمامي، سرح في أفكاره بعيدًا وهو يتأمّل الأفق، كما لو أنّه يتوق بشدّة إلى أن يكون على بعد آلاف الأميال من مكان وجوده.

عاودت ماتيلد الهجوم بوضع هاتفها أمام عينيه، حيث ظهرت صورة تيو فيرنوي في الشاشة.

– العثور على مرتكبي ثلاث جرائم قتل ومن بينها طفل، هذا أمر لا يهمّك على الإطلاق؟

– كلّا، لأنّني لست شرطيًّا! هل تريدين إعادة فتح تحقيق أجري منذ 20 عامًا تقريبًا؟ ولكن بأيّ حجّة؟ أنت لست قاضية، على حدّ علمي؟

تظاهر بلطم جبهته براحة يده.

– آه صحيح، لقد نسيت، أنت صحافية. وهذا أسوأ!

تجاهلت ماتيلد التهجّم.

– أريد منك أن تساعدني في كشف ملابسات هذه القصّة.

– أنا أكره أساليبك البائسة وكلّ ما تُمثلينه. في وقت ضعفي، اختطفتِ كلبي للتواصل معي. ستدفعين الثمن، أنا أكره أمثالك.

– مبدئيًّا لقد فهمت ذلك. ثمّ توقّف عن التحدّث عن كلبك المدلّل! أنا أحدّثك عن طفل. لو كان هذا طفلك، لكنت أردت أن تعرف من قتله.

– هذا منطق غبي. ليس لديّ أطفال.

– لا، بالطبع، فأنت لا تحبّ أحدًا! آه صحيح، أنت تحبّ شخصياتك، كائناتك الورقية الصغيرة الخارجة بشكل مباشر من ذهنك. هذا مريح أكثر.

لطمت جبهتها.

– آه لا! ولا حتى هي! إذ إنّ الكاتب العظيم قد قرّر التوقّف عن الكتابة. ولا حتى قائمة تسوّق، صحيح؟

– اذهبي إلى الجحيم، أيّتها الحمقاء الصغيرة. ارحلي!

لم تتحرّك ماتيلد قيد أنملة.

– نحن لا نزاول المهنة نفسها يا فاولز. مهنتي هي كشف الحقيقة. أنت لا تعرفني. سأنجح في ذلك. سأذهب حتى النهاية.

– افعلي ما يحلو لك، لا يهمّني، لكن لا تعودي أبدًا للتسكّع حول منزلي مرّة أخرى.

هدّدته بدورها وهي رافعة سبّابتها نحوه:

– بلى، سأعود، أعدك بذلك. سأعود، وفي المرّة المقبلة سيكون عليك مساعدتي في وضع نهاية لهذه القصّة. وسأكون ملزمة بمواجهتك بـ... كيف تقولها؟ آه صحيح، حقيقتك المرّة.

هذه المرّة، انفجر فاولز غاضبًا وهجم على ماتيلد. تأرجح القارب وصرخت الشابّة. حملها فاولز بكلّ ما أوتي من قوّة وألقى بها في البحر مع هاتفها الخلوي.

شغّل محرّك القارب وهو يستشيط غيظًا وعاد أدراجه إلى المنزل.

8

كلّ شخص طيف

الشخص [...] طيف لا يمكننا اختراقه أبدًا،
[...] طيف يمكننا تخيّله تباعًا وهو يشتعل
كراهية وحبًّا بقدر متساوٍ من المبرّرات.

مارسيل بروست

.1

بعد رحلتي الاستكشافية المليئة بالأحداث إلى بيت كولين دنبار، والتي انتهت بانتصاري في مواجهة ليتل ماكس، عدت إلى المدينة حيث لجأت إلى طاولة في حانة فلور دو مالت. تجنّبت زحمة التّراس وانزويت في الداخل، بالقرب من نافذة محفورة في الجدار يُمكن تأمّل البحر من خلالها. أمام كوب من الشوكولاته الساخنة، قرأت مرارًا وتكرارًا الرسائل التي سرقتها من غرفة ماتيلد. لقد كُتبت جميعها بخطّ اليد نفسه، وقد قفز قلبي من مكانه عندما تعرّفت إلى خطّ ناثان فاولز المائل والرفيع. لم يكن لديّ أدنى شكّ لأنّني رأيت في الإنترنت الكثير من مخطوطات رواياته الممسوحة التي تبرّع بها للمكتبة العامّة في نيويورك.

كانت هناك حوالى 20 رسالة حبّ، من دون أظرف، مُرسلة من باريس أو نيويورك. بعضها فقط كان مؤرَّخًا، وقد امتدّت التواريخ من أبريل إلى ديسمبر 1998. كانت موقّعة باسم «ناثان» وموجّهة إلى امرأة غامضة اسمها غير معروف. استُهلّ معظمها بكلمة «حبيبتي»، ولكن في إحداها، أشار فاولز إلى حرف «ص» على أنّه الحرف الأوّل من اسمها.

توقّفت مرّات عدّة عن القراءة. هل يصحّ أن أقرأ هذه الرسائل، وأخرق خصوصيّات فاولز، هكذا وبكلّ بساطة، من دون أن يسمح لي؟ كلّ ما في داخلي كان يصرخ لا، لا يحقّ لي بذلك. لكنّ هذه المعضلة الأخلاقية لم تنجح في كبح فضولي وشعوري بقراءة وثيقة فريدة بقدر ما هي مذهلة.

هذه المراسلات التي ينبعث منها جمال أدبي وعاطفي في الوقت نفسه، رسمت صورة رجل مغرم بجنون، وصورة امرأة حسّاسة ومتأجّجة المشاعر ومليئة بالحياة. امرأة من الواضح أنّ فاولز كان بعيدًا منها في تلك الفترة، من دون أن يُوضّح لي ما قرأته العقبات التي منعت العاشقين من اللقاء أكثر.

بشكل عامّ، شكّلت الرسائل عملًا فنّيًا متشعّبًا، قل إنّه كان مزيجًا من التبادل الكلاسيكي للشعر والروايات المرفقة بلوحات صغيرة مُذهلة رسمت بألوان مائية شاحبة. لم تكن محادثة حقيقية. لم تكن من نوع الرسائل التي تُسرد فيها اليوميات أو آخر وجبة تمّ تناولها. لقد كانت بمثابة أنشودة للحياة، للحاجة إلى الحبّ، رغم ألم الغياب، وجنون العالم والحرب. ساد موضوع الحرب هذا في الكتابات كافّة: النضال، التمزّق، القمع، لكن لم يكن من السهل فهم ما إذا كان فاولز يشير إلى نزاع مسلّح كان يدور في تلك الفترة، أم كان يتكلّم بشكل مجازي.

أمّا في ما يتعلّق بالأسلوب، فقد كان النصّ زاخرًا بالتأمّلات، والتعابير المجازية الجريئة، والتلميح إلى اقتباسات من الكتاب المقدّس. فقد كشف جانبًا جديدًا من موهبة فاولز، إذ ذكّرتني موسيقية الكتابات بأراغون وبعض القصائد الموجّهة إلى إلسا تريوليه أو أبولينير «في الخطوط الأمامية». جعلتني حدّة بعض المقاطع أفكّر في كتاب «رسائل راهبة برتغالية». أمّا الصيغة الرسمية المتقنة فجعلتني أتساءل عمّا إذا كانت هذه الرسائل تمرينًا أدبيًّا بحتًا. هل هذه المرأة التي يبدأ اسمها بحرف «ص» كانت موجودة فعلًا، أم إنّها كانت مجرّد رمز؟ تجسيدًا لموضوع حبّ. عنصرًا كونيًّا يُخاطب جميع العشّاق.

بدّدت القراءة الثانية هذا الانطباع. لا، كلّ ما في هذا النصّ ينبض صدقًا وحميمية وحرارة وأملًا وخططًا مستقبلية. حتى لو كانت هذه الحماسة محجوبة أيضًا بتهديد محتمل يحوم على سطور معيّنة.

بعد القراءة الثالثة، طرحت فرضية أخرى: «ص» كانت مريضة. هذه الحرب، كانت الحرب التي تشنّها المرأة ضدّ المرض. لكنّ الطبيعة والعوامل المناخية أدّت أيضًا دورًا مهمًّا في الرسائل. كانت المناظر الطبيعية متناقضة ودقيقة وشاعرية في آن واحد. اقترن فاولز بالشمس والنور المشعّ في الجنوب، أو بسماء نيويورك الرمادية. أمّا «ص» فكانت تقترن بشيء أكثر حزنًا. جبال، وسماء رصاصية اللون، ودرجات برودة قارسة، و«ليل حلّ باكرًا على أرض الذئاب».

نظرت إلى الساعة في هاتفي. لقد تفاوضت مع أوديبير ليسمح لي بالتغيّب عن المكتبة في الصباح، لكن كان عليّ العودة إلى العمل في الساعة 2 من بعد الظهر. أعدت قراءة الرسائل بسرعة مرّة أخيرة وفق ترتيبها الزمني، وراودني سؤال: هل كانت هناك رسائل أخرى؟ أم إنّ حدثًا ما أدّى إلى وضع حدّ مُفاجئ للانجذاب الجسدي والفكري؟

وتساءلت خصوصًا عن المرأة التي تمكّنت من أن تُثير في فاولز مشاعر متأجّجة كهذه. لقد قرأت كلّ شيء عنه تقريبًا، ولكن حتى حين كان فاولز لا يزال يتحدّث إلى وسائل الإعلام، لم يُفصح قطّ عن أيّ شيء يُذكر عن حياته الخاصّة. فجأة خطرت لي فكرة: ماذا لو كان فاولز مثليّ الجنس؟ ماذا لو كان «ص»، الملاك الذهبي الشعر الذي وصفته الرسائل، رجلًا؟ ولكن لا، إذ دحضت هذه الفرضية علامات التأنيث الكثيرة المتكرّرة في الرسائل.

رجّ هاتفي على الطاولة وأومضت فقّاعة على الشاشة، تشير إلى سلسلة تغريدات من لافوري. كان ينشر معلومات جديدة تلقّاها من مصادره. بعد أن ربط المحقّقون بين أبولين وكريم، وسّعوا التحقيقات لتشمل إيسون بهدف استجواب تاجر المخدّرات السابق. حضر رجال شرطة من مركز إيفري إلى منزله في حيّ إيبينيت. لم يجدوا كريم هناك فحسب، لا بل أكّد جيرانه أيضًا أنّهم لا يعرفون عنه شيئًا منذ شهرين تقريبًا. وكان الأمر سيّان بالنسبة إلى الموظّفين في الورشة، ولكن بما أنّ لا أحد منهم يحبّ رجال الشرطة كثيرًا، فلم يبلغ أيّ منهم عن اختفائه. كشفت تغريدة لافوري الأخيرة أنّه خلال المداهمة، عُثر على بقع دم كثيرة في مكان سكنه. وكانت تخضع للتحاليل المخبرية.

احتفظت بهذه المعلومة المُثيرة للقلق في إحدى زوايا ذهني لكي أعود إلى رسائل فاولز. وضعتها بعناية في جيب سترتي قبل النهوض للذهاب إلى المكتبة. كان اقتحامي غرفة ماتيلد مونّي مُجديًا. بات لديّ جزء من حياته، كنت من القلائل الذين يعرفونه. الكشف عن هذه الوثائق الاستثنائية التي كتبها روائي أسطوري سيكون من دون شكّ بمثابة تفجير قنبلة في عالم المنشورات. في نهاية التسعينيّات، قُرابة إعلان انسحابه النهائي من الساحة الأدبية، عاش ناثان فاولز حالة شغف، حبًّا جرف كلّ ما صادف في طريقه

واستنزفه. لكنّ حدثًا مجهولًا ورهيبًا أنهى هذه العلاقة وفطر قلب الروائي. ومنذ ذلك الحين، علّق فاولز حياته، وتوقّف عن الكتابة، ولا شكّ في أنّه قد ختم قلبه بالشمع الأحمر للأبد.

كلّ شيء أوحى بأنّ هذه المرأة، الملاك الذهبي الشعر، كانت المفتاح المؤدّي إلى سرّ فاولز. الجانب الخفي من غموضه.

مفتاح روحه الغامضة.

هل طلب منّي فاولز التحرّي عن ماتيلد لاستعادة هذه الرسائل والاحتفاظ بسرّه؟ كيف حصلت الصحافية على هذه الرسائل؟ والأهمّ من ذلك، لماذا كانت تخفيها خلف لوحة وراء المرحاض، كمن يُخفي مالًا أو مخدّرات؟

.2

– ناثان! ناثان! استيقظ!

كانت الساعة التاسعة مساءً. وكان المنزل غارقًا في ظلام دامس. بعد أن قرعت الجرس مدّة عشر دقائق من دون الحصول على أيّ إجابة، قرّرت أن أتسلّق السور. كنت أتلمّس دربي وسط الظلام من دون أن أجرؤ على إضاءة المصباح في هاتفي. لم أكن مطمئنًّا.

فقد خشيت أن ينقضّ عليّ الغولدن ريتريفر، إذ سبق أن نلت حصّتي من الكلاب اليوم، لكنّ برونكو العجوز استقبلني كمنقذ، وأرشدني إلى صاحبه المستلقي على أرضية التراس. منهارًا على الألواح الحجرية، كان الكاتب متقوقعًا على نفسه ومُتّخذًا وضعية الجنين، وقربه زجاجة ويسكي فارغة.

من الواضح أنّ فاولز كان ثملًا جدًّا.

– ناثان! ناثان! صرخت، وأنا أهزّه.

أنرت الأضواء الخارجية كافّة. ثمّ عدت إليه. كان نفسه ضيّقًا ومتقطّعًا. ببطء، جعلته يستعيد وعيه، بمساعدة برونكو الذي سال لعابه على وجهه.

تمكّن فاولز أخيرًا من النهوض.

– هل أنت بخير؟

– أنا بخير، أكّد لي وهو يمسح وجهه بساعده. ماذا تفعل هنا؟

– عندي معلومات لك.

فرك صدغيه وجفنيه.

– تبًّا للصداع اللعين.

التقطت الزجاجة الفارغة عن الأرض.

– لا عجب في ذلك بعد الذي شربته.

كانت زجاجة بارا نو نيوا، الويسكي الياباني الأسطوري الذي يأتي على ذكره في رواياته جميعها. توقّف المعمل عن إنتاج الويسكي في الثمانينيّات، ومنذ ذلك الحين، بات سعر الزجاجات المتبقية خياليًّا بسبب ندرتها. خسارة أن يُشرب من هذا الرحيق بكمّية كبيرة!

– أخبرني ماذا وجدت في بيت الصحافية.

– من الأفضل أن تذهب للاستحمام أوّلًا.

فتح فمه ليقول لي أن أذهب إلى الجحيم، لكن رجحت الكفّة لمصلحة المنطق.

– ربّما أنت مُحقّ.

استغللت دخوله الحمّام لأستكشف الصالون. ما زلت لا أصدّق أنّني أتوغّل أكثر فأكثر في حياة فاولز الحميمة. كما لو أنّ كلّ ما يتعلّق به له بُعد مهيب. كان منزله عبارة عن مغارة علي بابا ومغارة أفلاطون معًا، وبالنسبة إليّ، كانت له هالة غامضة لا يمكن اختراقها.

في المرّة الأولى التي جئت فيها إلى هنا، استغربت قلّة الصور والذكريات وكلّ تلك الأمور التي ترسّخ المكان في الماضي. لم يكن المنزل باردًا، على العكس، لكنّه كان يفتقر إلى اللمسات الشخصية بعض الشيء. كانت النزوة الوحيدة الموجودة نسخة عن طراز مصغر لسيّارة رياضية. سيّارة بورش 911 رصاصية فضّية مُخطّطة بأشرطة زرقاء وحمراء. كنت قد قرأت في إحدى الصحف الأميركية أنّ فاولز امتلك سيّارة مُماثلة في التسعينيّات، وهي نموذج فريد صنعته الشركة الألمانية بمواصفات خاصّة في العام 1975 لقائد الأوركسترا هيربرت فون كارايان.

بعد الصالون، دخلت المطبخ وفتحت الثلّاجة والخزائن. أعددت شايًا، وعجّة، وخبزًا محمّصًا، وسلطة خضار. في الوقت نفسه، كنت أحاول التحقّق من هاتفي بحثًا عن أخبار جديدة عن التحقيق، لكنّ الشبكة كانت خارج نطاق التغطية.

في المكان المخصّص لإعداد الطعام، بجانب لوحات التسخين، رأيت راديو ترانزستور أثريًا شبيهًا بذاك الذي كان يملكه جدّي. شغّلته، وكان مضبوطًا على موجة الموسيقى الكلاسيكية، فحرّكت القرص البلاستيكي لمحاولة التقاط أيّ إذاعة تبثّ أخبارًا. لسوء الحظّ، حين عثرت على نشرة أخبار التاسعة مساءً من إذاعة «إر تي إل» كانت قد شارفت على الانتهاء. كنت أبذل قصارى جهدي للعثور على إذاعة «فرانس أنفو» حين دخل فاولز الغرفة.

كان قد بدّل ملابسه، فارتدى قميصًا أبيض، وبنطلونًا من الجينز، ووضع على عينيه نظّارة صغيرة عاجية الإطار، فبدا أصغر من سنّه بعشر سنوات، ومرتاحًا كما لو أنّه نام طوال ثماني ساعات.

– في سنّك، عليك التروّي في الشرب.

– اخرس.

بإيماءة من رأسه، شكرني على إعداد العشاء. أخرج طبقين وأدوات المائدة ووضعها بشكل متقابل على المنضدة.

«معلومات جديدة حول جريمة القتل التي وقعت في جزيرة بومون...»، أُعلِنَ عبر الراديو.

اقتربنا من الجهاز. في الواقع كان هناك خبران. الأوّل كان صاعقًا. إثر بلاغ من شخص مجهول، عثرت الشرطة القضائية في إيفري توًّا على جثّة كريم عمراني في أحد أرجاء غابة سينار. أشار تحلّل الجثّة إلى أنّ الوفاة ليست حديثة. تحوّل مقتل أبولين شابوي فجأةً إلى مسألة أكثر تعقيدًا. ومن المفارقة أنّه في منطق وسائل الإعلام، سيفقد تفرّده لربطه بمجموعة أوسع وأقلّ غرابة (عالم العصابات، الضواحي الباريسية...). من خلال الانتقال بهذه الطريقة إلى مكان آخر، باتت قضيّة جزيرة بومون، في الأقلّ بشكل موقّت، قضيّة عمراني.

أمّا المعلومة الثانية فاقتصرت على ما يأتي: اتّخذ المحافظ البحري أخيرًا قرارًا برفع الحصار عن الجزيرة، ويسري مفعوله في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي وفقًا لإذاعة «فرانس أنفو». لم يبدُ فاولز متأثّرًا بشكل خاصّ بهذه الأخبار. فقد مرّت الأزمة التي أغرقته في حالة من الثمالة. تناول حصّته من العجّة وهو يخبرني بما دار بينه وبين ماتيلد في فترة بعد الظهر. كنت متحمّسًا لسماع ما يُخبرني به. كنت صغيرًا جدًّا ليكون لديّ أدنى ذكرى عن قضيّة فيرنوي، ولكن بدا لي أنّني سمعت عنها في أحد هذه البرامج الإذاعية أو التلفزيونية التي تُعيد تناول أخبار شهيرة مختلفة. بشكل أناني، رأيت أنّها مادّة روائية رائعة، من دون أن أفهم ما الذي قلب كيان فاولز إلى هذا الحدّ.

– هل هذا ما جعلك تُصاب بهذه الحالة؟

– عن أيّ حالة تتكلّم؟

– عن الحالة التي أصابتك بعد أن شربت الويسكي حتى الثمالة طوال فترة بعد الظهر.

– عوضًا عن التكلّم بمواضيع لا تعنيك، أخبرني بما اكتشفته عند ماتيلد مونّي.

.3

في حذر، بدأت إخباره بالتحرّيات التي يبدو أنّ ماتيلد تجريها، أوّلًا عن كريم عمراني، ثمّ عنه هو. عندما ذكرت قصّة الحذاء، بدا أنّه أصيب بحالة من الذهول.

– هذه الفتاة مجنونة... هل هذا كلّ ما وجدته؟

– لا، لكن أخشى ألّا تروق لك التتمّة. لقد أثرت فضوله، لكنّني لم أستمتع بذلك قطّ لأنّني كنت أعلم أنّه سيشعر بالأسى.

– كان في حوزة ماتيلد مونّي رسائل.

– رسائل ماذا؟

– رسائل منك.

– لم أكتب لها قطّ أيّ رسالة!

– لا يا ناثان. رسائل كتبتها إلى امرأة أخرى قبل عشرين عامًا.

أخرجت رزمة الرسائل من جيب سترتي ووضعتها بقرب الطبقين.

نظر أوّلًا إلى الأوراق من دون أن يتمكّن من فهم حقيقتها الكاملة. استغرقه الأمر بعض الوقت ليجرؤ على فردها، ووقتًا أطول ليبدأ قراءة السطور الأولى. وجهه كان كئيبًا قاتمًا. كان أكثر من اندهاش. في الواقع كان كما لو أنّه قد رأى شبحًا. تمكّن شيئًا فشيئًا من السيطرة على اضطرابه واستعاد نوعًا ما رباطة جأشه.

– هل قرأتها؟

– أعتذر، نعم قرأتها. وأنا لست نادمًا على ذلك. إنّها رائعة. إلى درجة أنّه عليك أن تأذن بنشرها.

– أعتقد أنّه من الأفضل أن ترحل، رافاييل. أشكرك على ما فعلت.

كان في صوته شيء من الكآبة والشجن. نهض ليرافقني، لكنّه لم يصل إلى الباب حتى أنّه صرفني بحركة يدٍ مُبهمة. من عتبة الباب شاهدته وهو يمشي متثاقلًا نحو البار حيث ملأ كأسًا أخرى من الويسكي حتى الشفة قبل أن يجلس على كنبته. ثمّ بدا نظره مشوّشًا وشرد ذهنه في مكان آخر، في تعقيدات الماضي ومتاهاته ووجع الذكريات. لم أستطع أن أسمح بحدوث ذلك.

– توقّف يا ناثان. لقد شربت ما يكفي هذه الليلة! قلت له، وأنا أعود أدراجي.

وقفت أمامه وانتزعت منه الكأس.

– دعني وشأني!

– حاول أن تفهم ما حدث عوضًا عن الهروب عبر شرب الكحول.

لم يكن فاولز مُعتادًا أن يملي عليه أحد تصرّفاته، فحاول انتزاع الكأس من يدي. وبما أنّني قاومته، فلتت الكأس من بين أيدينا وتناثرت أجزاؤها على الأرض.

نظر بعضنا إلى بعض كمغفّلين، رغم أنّنا لم نكن كذلك...

رفض فاولز أن يفقد ماء الوجه، فأخذ زجاجة الويسكي وشرب جرعة مباشرة منها.

مشى بضع خطوات ليفتح لبرونكو الباب الزجاجي المطلّ على الخليج واغتنم الفرصة للخروج على التراس والجلوس على كرسيّ قصبي.

– كيف تمكّنت ماتيلد مونّي من الحصول على هذه الرسائل؟ هذا لا يُعقل، تساءل بصوت مرتفع.

تبدّلت ملامح وجهه، فتحوّلت الدهشة إلى قلق.

– من هي هذه المرأة التي كنت تراسلها يا ناثان؟ سألته وأنا أنضمّ إليه في الخارج. من هي «ص»؟

– امرأة أحببتها.

– لقد توقّعت ذلك، لكن ماذا حلّ بها؟

– توفّيت.

– أنا آسف حقًّا.

جلست على أحد الكراسي بجانبه.

– قُتِلت ببرود أعصاب قبل عشرين عامًا.

– من قتلها؟

– أسوأ نوع من الأنذال.

– هل هذا هو سبب توقّفك عن الكتابة؟

– نعم، كما بدأت أشرح لك هذا الصباح. لقد حطّمني الحزن. توقّفت لأنّني لم أعد قادرًا على إيجاد صفاء الذهن الضروري للكتابة.

نظر نحو الأفق كمن يبحث عن إجابات. في الليل، كان المكان أشدّ سحرًا مع المياه المتلألئة تحت ضوء البدر. يشعر المرء حقًّا كما لو أنّه وحده على وجه الأرض.

– لقد أخطأت في التوقّف عن الكتابة، تابع كمن جاءه الوحي فجأة. تنظّم لك الكتابة حياتك وأفكارك، وغالبًا ما ينتهي الأمر بفرضها النظام على فوضى الوجود.

خطر سؤال في رأسي بعض الوقت.

– لمَ لم تُغادر يومًا هذا المنزل؟

تنهّد فاولز تنهيدة عميقة.

– اشتريت هذا المنزل لها.

لقد وقَعَتْ في حبّ الجزيرة بالتزامن مع وقوعها في حبّي. كان بقائي هنا يعني البقاء معها، من دون شكّ.

خطر على بالي ألف سؤال، لكنّ فاولز لم يمنحني الفرصة لطرحها.

– سأصطحبك بالسيّارة، قال لي وهو يقفز من مكانه.

– لا داعي لذلك، لديّ سكوتر. اذهب وخذ قسطًا من الراحة عوضًا عن ذلك.

– كما تريد. اسمع يا رافاييل، عليك مواصلة البحث عن دوافع ماتيلد مونّي. لا يمكنني أن أشرح لك السبب، لكنّني أشعر بأنّها تكذب. هناك أمر قد فاتنا.

مدّ يده ليعطيني زجاجة بارا نو نيوا – التي كان ثمنها يُعادل إيجاري السنوي – فشربت منها جرعة قبل أن أنطلق.

– لمَ لا تخبرني بكلّ شيء؟

– لأنّني لا أعرف الحقيقة الكاملة حتى الآن. ولأنّ الجهل نعمة أحيانًا.

– هل أنت من يقول لي ذلك؟ هل الجهل خيرٌ من المعرفة؟

– هذا ليس ما قلته وأنت تعرف ذلك جيّدًا، ولكن ثق في تجربتي: في بعض الأحيان من الأفضل ألّا تعرف.



9

مصرع الأحبّة

جراح الوجود لا تُشفى، ونحن لا نتوقّف أبدًا عن وصفها على أمل أن ننجح في بناء قصّة تُجسّدها بشكل قاطع.

إيلينا فيرانتي

الخميس 11 أكتوبر 2018

.1

كانت الساعة السادسة صباحًا. لم يكن الفجر قد بزغ بعد، ولكنّني فتحت باب المكتبة على مصرعيه لتهوئة المتجر. بالقرب من المكتب، تفقّدت الجزء السفلي من العلبة المعدنية التي تحتوي على البن المطحون. كانت فارغة. عليّ الاعتراف بأنّني ارتشفت عشرة فناجين قهوة خلال ليلتي الحافلة. كانت آلة الطباعة القديمة التي يملكها أوديبير على وشك أن تُسلم الروح. لقد استخدمت خرطوشة الحبر الأخيرة للاحتفاظ بدليل مكتوب عن أهمّ اكتشافاتي. ثمّ دبّست المستندات والصور على لوحة الفلّين الكبيرة في المتجر.

رحت أتنقّل طوال الليل بين موقع إلكتروني وآخر بحثًا عن معلومات حول مقتل عائلة فيرنوي. لقد راجعت أرشيف الصحف الكبرى في الإنترنت، ونزّلتُ بعض الكتب الرقمية، واستمعت إلى مقتطفات حوالى عشرة بودكاست. سرعان ما تأسرك قضيّة فيرنوي. كانت القصّة مأسوية بقدر ما كانت مثيرة. اعتقدت في البداية أنّني سأتمكّن بسرعة من فهم القضيّة وملابساتها، ولكن بعد ليلة من التعمّق في تفاصيلها، كنت لا أزال مشوّش التفكير تمامًا كما شعرت في البداية. أمور كثيرة جعلت هذا الخبر مُربكًا. أحدها أنّه لم يُتعرَّف إلى قاتل أو قتلة عائلة فيرنوي، رغم أنّها ليست قضيّة قديمة حصلت في السبعينيّات، بل مجزرة حقيقية حدثت داخل جدران مدينة باريس، في مطلع القرن الحادي والعشرين. مذبحة استهدفت أسرة تتعاطى الشأن العام وقد تولّت التحقيق فيها نخبة من رجال الشرطة الفرنسيين.

احتسبت السنوات: كنت في السادسة من عمري في تلك الفترة لذلك لا أذكر أنّني تابعت القصّة في الأخبار. لكنّني كنت متأكدًا من أنّني سمعت عنها بشكل عابر بعد ذلك، ربّما خلال فترة دراستي أو بشكل مؤكّد أكثر في برنامج «أحضروا المتّهم» أو «ساعة الجريمة».

وُلد ألكسندر فيرنوي في العام 1954 في أركوي، وهو طبيب متخصّص في الجراحة الداخلية. ظهر اهتمامه في الشؤون السياسية في الصفوف الثانوية، إثر اندلاع الحركات الطلّابية الاحتجاجية في مايو 68، قبل أن يتقرّب من مناصري روكار والانضمام إلى الحزب الاشتراكي. بعد انتهاء فترة الدراسة، عمل في مستشفى سالبتريير الجامعي ومن ثمّ انتقل إلى مستشفى كوشان. تحوّل التزامه السياسي إلى التزام إنساني. كانت مسيرته تشبه مسيرة الكثير من الشخصيات

في تلك الحقبة إذ جمعت بين العمل ضمن المنظّمات المدنية والعمل الإنساني والعالم السياسي. كان ألكسندر فيرنوي موجودًا دائمًا في الميدان مع منظّمة أطبّاء العالم أو الصليب الأحمر الفرنسي في معظم جبهات الحرب في الثمانينيّات والتسعينيّات: إثيوبيا وأفغانستان والصومال ورواندا والبوسنة... بعد انتصار الاشتراكيين في الانتخابات التشريعية في العام 1997، عُيِّنَ مستشارًا صحّيًا في وزارة التعاون، لكنّه لم يشغل هذا المنصب إلّا بضعة أشهر، حيث فضّل العودة إلى الميدان، إلى كوسوفو تحديدًا. بعد عودته إلى فرنسا في نهاية العام 1999، أصبح مديرًا لكلّية الجراحة في المساعدة العامّة – مستشفيات باريس. إضافة إلى أنشطته الطبّية، ألّف الكثير من الكتب التي اشتهرت بمعالجتها مواضيع مثل أخلاقيات علم الأحياء وحقّ التدخّل والإقصاء الاجتماعي. كان فيرنوي شخصية محترمة في مجال العمل الإنساني، وكان أيضًا ضيفًا مُحبّبًا للغاية لدى وسائل الإعلام التي كانت تُعجب بشخصيته الديناميه وفصاحته.

.2

وقعت المأساة مساء 11 يونيو 2000، يوم المباراة الأولى للمنتخب الفرنسي خلال بطولة كرة القدم الأوروبية. في ذلك المساء، كان فيرنوي وزوجته صوفيا، طبيبة أسنان تملك عيادةً في شارع روشيه تعتبر من بين الأنجح في باريس، يحتفلان بعيد ميلاد ابنهما تيو الأحد عشر. كانت الأسرة تسكن شقّة جميلة في الدائرة 16 في جادّة بوسيجور، في الطابق الثاني من مبنى يعود إلى ثلاثينيّات القرن العشرين ويتميّز بإطلالات جميلة على برج إيفل وحديقة رانلاغ. منذ البداية، خضّتني صور الطفل الذي رأيته في الإنترنت لأنّه ذكّرني بنفسي حين كنت

أنا في عمره: وجه بشوش، وفراغ بين السنّين العلويتين، وشعر أشقر، ونظّارة مستديرة ملوّنة.

بعد مرور ثمانية عشر عامًا على أحداث الجريمة، كانت سلسلة الملابسات لا تزال موضع جدل. أمّا المعلومات الأكيدة فكانت التالية: قُرابة الساعة الثانية عشرة والربع من منتصف الليل، وصل إلى منزل عائلة فيرنوي رجال شرطة من وحدة مكافحة الجرائم، بعد أن اتّصل بهم أحد الجيران من المبنى المجاور. باب الشقّة كان مفتوحًا. بالقرب من المدخل، مرّوا فوق جثّة ألكسندر فيرنوي، على الأرض، وقد اقتلعت وجهه تقريبًا رصاصة أُطلقت من مسافة قريبة. وزوجته صوفيا أصيبت برصاصة وسط صدرها من مسافة أبعد بقليل عند عتبة المطبخ. أمّا الفتى تيو فقد أصيب في ظهره وهوى في الرواق. رعب ما بعده رعب.

في أيّ وقت وقعت المجزرة؟ حوالى الساعة 11:45 ليلًا من دون شك. في الساعة 11:30 ليلًا اتّصل ألكسندر بوالده ليلخّص له أبرز ما حصل في مباراة كرة القدم (فوز المنتخب الفرنسي من جيل زيدان على المنتخب الدانماركي 3-0). أنهى المكالمة في الساعة 11:38 ليلًا. أمّا الجار فبلّغ بعد عشرين دقيقة. وبحسب ما جاء على لسانه، لقد تأخّر في إبلاغ الشرطة، فقد اختلطت عليه في البداية أصوات المفرقعات احتفالًا بالفوز في المباراة وأصوات الطلقات النارية.

أُجرِيَ التحقيق من دون أيّ تلكّؤ. فألكسندر كان ابن باتريس فيرنوي، «شرطي مهمّ» سابق شارك في قيادة الشرطة القضائية في باريس وكان في تلك الفترة لا يزال مسؤولًا رفيع المستوى في وزارة الداخلية. لم تُسفر التحقيقات عن أيّ نتيجة. أظهرت وقوع عملية سطو في الليلة نفسها في الطابق الثالث والأخير من المبنى، في شقّة ثنائي متقاعد كان في جنوب فرنسا لدى وقوع هذه الأحداث.

كما تبيّن أيضًا اختفاء مجوهرات صوفيا فيرنوي ومجموعة ساعات زوجها (وهو من هواة ساعات الرولكس الفاخرة رغم توجّهه اليساري سياسيًّا). كان الطبيب يمتلك ساعات ثمينة، ومن بينها طراز باندا بول نيومان، يُقدّر ثمنها بأكثر من 500.000 فرنك).

كان مدخل المبنى مُجهّزًا بكاميرا مراقبة، ولكن لم يكن ممكنًا الاستفادة منها لأنّ عدسة الكاميرا عُدِّلَت حيث باتت تركّز على جدار المدخل فقط، من دون أن نعرف بشكل مؤكّد ما إذا كان ذلك متعمّدًا أو عرضيًّا، أو متى عُدِّلَت. حدّدت الشرطة المختصّة نوع السلاح المستخدم في المجزرة: بندقية بومب أكشن مزوّدة بسبطانة مُخدّدة تُلقّم بخراطيش من عيار 12 ملّم (الأكثر شيوعًا)، إنّما لم يُعثَر عليها. فشل تحليل أغلفة الرصاص أيضًا في ربطها بأيّ سلاح مسجّل استخدامه في قضيّة أخرى. والأمر سيّان في ما يتعلّق بآثار الحمض النووي، التي كانت تعود إلى الأسرة أو لا تُطابق أيًّا من الموجودة في الملفّات المحفوظة في قواعد البيانات. وكان هذا كلّ شيء. أو كلّ شيء تقريبًا.

من خلال مُعاينة هذه الوثائق، أدركت أنّني كنت من أوائل الأشخاص الذين تمكّنوا من إعادة مُراجعة القضيّة وربطها بالدور المحتمل الذي أدّاه كلّ من أبولين شابوي وكريم عمراني. ونتيجة لذلك، أمكن كتابة سيناريو مُحكم بالحبر الأسود: سرق المجرمان أوّلًا شقّة المتقاعدين الفارغة في الطابق الثالث قبل أن يقصدا تلك التي تقع تحتها. ربّما اعتقدا أنّ العائلة بأكملها خارج المنزل. لكنّ فيرنوي فاجأهما. استولى الذعر على كريم أو أبولين فبادر أحدهما إلى إطلاق النار – جثّة واحدة، جثّتان، ثلاث جثث – قبل سرقة الساعات والمجوهرات والكاميرا.

كانت الفرضية معقولة. المقالات كافّة التي قرأتها عن «بوني وكلايد ستالينغراد» تشير إلى أنّ كريم كان عنيفًا. لم يتردّد في إطلاق النار على مدير البار من مسدّس خلّبي، طبعًا، لكنّ المسكين فقد عينه في الحادثة رغم ذلك.

تمدّدت على مقعدي وتثاءبت. قبل أن أستحمّ، كان ثمّة بودكاست واحد أردت الاستماع إليه «قضايا حسّاسة»، وهو برنامج يُبثّ على إذاعة «فرانس إنتر»، خصّص إحدى حلقاته لقضيّة فيرنوي. حاولت تشغيل البرنامج في حاسوبي، لكن قارئ البودكاست راح يدور ويدور من دون جدوى.

اللّعنة، انقطع الإنترنت مجدّدًا...

كانت هذه مشكلة متكرّرة في المنزل. غالبًا ما كان عليّ الصعود إلى الطابق العلوي وإعادة تشغيل العلبة. إنّما المشكلة الآن هي أنّ الساعة كانت السادسة صباحًا ولم أودّ أن أوقظ أوديبير. ومع ذلك، قرّرت المجازفة وصعدت السلّم على رؤوس أصابعي. كان المكتبيّ ينام تاركًا الباب مفتوحًا. أضأت مصباح هاتفي في الصالون وبذلت قصارى جهدي للتسلّل من دون إحداث أيّ ضجّة إلى صوان السفرة حيث وُضعت علبة الإنترنت. أطفأت الجهاز وأعدت تشغيله، ثمّ انسحبت، محاولًا ألّا أجعل الأرضية تُصدر صريرًا.

شعرت بقشعريرة. لقد جئت إلى هنا مرّات عدّة من قبل، لكنّ الغريب في الأمر أنّني رأيت الغرفة من زاوية جديدة وهي غارقة في شبه ظلام. وجّهت مصباحي إلى رفوف المكتبة. بجانب مجموعات الكُتب وغلافات بونيه-براسينوس كان هناك الكثير من إطارات الصور الخشبيّة. هل هو حدس؟ أم غريزة؟ أم فضول؟ لا أعرف بالتحديد. لكنّني اقتربت لكي أتأمّل صور العائلة. في الصفّ الأوّل، صور لأوديبير وزوجته أنيتا، التي بحسب ما أخبرني خلال محادثتنا

الأولى، توفّيت إثر إصابتها بالسرطان قبل عامين. كان بالإمكان رؤية الزوجين في مختلف مراحل حياتهما. زواجهما في منتصف الستينيّات، ثمّ بسرعة بات هناك طفل صغير بين أذرعتهما حوّل الأم إلى مراهقة متجهّمة الوجه في صورة أخرى. في أوائل الثمانينيّات، التقط الزوجان، وقد ارتسمت على محيّيهما ابتسامة عريضة، صورة أمام سيّارة سيتروين من طراز بي إكس؛ سفرة إلى اليونان بعد عشر سنوات، وسفرة أخرى إلى نيويورك قبل انهيار البرجين. أيّام سعيدة لا نعرف قيمتها إلّا بعد أن تمضي. لكنّ الإطارين الأخيرين هما اللذان أرعباني. صورتان عائليتان تعرّفت فيهما إلى وجوه أخرى.

وجوه ألكسندر وصوفيا وتيو فيرنوي.

ووجه ماتيلد موني.

.3

انتشل رنين الهاتف ناثان فاولز من نوم متقطّع ومضطرب. نام على مقعده وبرونكو عند قدميه. تثاءب الروائي، ووقف على قدميه بصعوبة، وجرّ نفسه ليبلغ الهاتف.

– نعم؟

كان صوته خافتًا، كما لو أنّ حباله الصوتية أصيبت ببحّة خلال الليل. كان عنقه خدرًا ومتصلّبًا، ما جعله يشعر بأنّ أدنى حركة قد يقوم بها ستتسبّب في طقطقة عظامه.

كانت سابينا بنوا، مديرة المكتبة السمعية البصرية السابقة لدار المراهقين.

– ناثان، أعلم أنّ الوقت ما زال مبكرًا، ولكن بما أنّك طلبت منّي الاتصال بك مجرّد حصولي على المعلومة...

– خيرًا فعلت، ردّ فاولز.

– تمكّنت من الحصول على قائمة الطالبات اللواتي حضرن ندوتك. في الواقع، لقد جئت لإجراء مداخلتين، الأولى في 20 مارس 1998، والثانية في 24 يونيو من العام نفسه.

– إذًا؟

– لم يكن هناك ماتيلد مونّي بين المشاركات.

تنهّد فاولز، وهو يفرك جفنيه. لماذا كذبت عليه الصحافية بشأن هذه النقطة؟

– الفتاة الوحيدة التي كانت تحمل اسم ماتيلد كانت تُدعى ماتيلد فيرنوي.

تجمّد الدم في عروق فاولز.

– كانت ابنة الطبيب المسكين فيرنوي، تابعت أمينة المكتبة. أذكرها جيّدًا: جميلة، رزينة، حسّاسة، ذكية... من كان يتوقّع أن تلمّ بها هذه الكارثة...

.4

كانت ماتيلد ابنة ألكسندر فيرنوي وحفيدة غريغوار أوديبير! بعد أن صُعقت بمعرفة هذا الخبر، بقيت مسمّرًا في مكاني دقيقة، من دون حراك وسط سواد الليل الحالك، مرتبكًا، مدمّرًا. وقد جمّدتني في مكاني القشعريرة التي اجتاحت جسدي.

لم أستطع التوقّف عند هذا الحدّ. على الرفوف الأخيرة في المكتبة، وجدت ألبومات صور. أربعة مجلّدات كبيرة، مغلّفة بالقماش، ومصنّفة بحسب العقود. جلست مصلّب الساقين على الأرض، وفي ضوء مصباح هاتفي، بدأت أقلّب صفحات الألبومات، وانا أتأمّل الصور، وأقرأ التعليقات بسرعة من دون التوقّف عندها. المعلومات الأساسية التي استخلصتها تتمحور حول بضعة تواريخ. كان لدى غريغوار وأنيتا

أوديبير ابنة وحيدة، صوفيا، ولدت في العام 1962، وتزوّجت ألكسندر في العام 1982. وكانت ثمرة زواجهما ماتيلد وتيو اللذين قصدا جزيرة بومون كثيرًا خلال طفولتهما لتمضية العطل.

كيف فاتنا أنا وفاولز ذلك؟ لم يبدُ لي أنّ المقالات التي قرأتها قد ذكرت وجود ماتيلد. وبما أنّ هاتفي كان بين يديّ، أجريت بحثًا للتحقّق من ذلك عبر غوغل. ذكرت مقالة متاحة مجّانًا في «ليكسبرس» تعود إلى شهر يوليو من العام 2000 أنّ «الابنة البكر التي كانت في عمر الستّة عشر عامًا، لم تكن في باريس مساء المأساة، لأنّها كانت تدرس لامتحان البكالوريا عند صديقة لها في النورماندي».

تدافعت مجموعة من الفرضيات في ذهني. شعرت بأنّني تقدّمت توًّا خطوة حاسمة في التحقيق، لكنّني كنت ما زلت أجهل مجموع عواقب ما اكتشفته. كنت أفكّر في الانسحاب. من موقعي، كنت أسمع شخير أوديبير المنتظم وهو نائم في الغرفة المجاورة. ربّما كنت قد استنفدت حظّي بالفعل. ولكن ربّما بقيت هناك أيضًا أسرار عليّ نبشها. خاطرت وألقيت نظرة في غرفة المكتبيّ. كان الداخل زهيدًا متقشّفًا يكاد يُشبه غرف الرهبان. في جوار السرير، على مكتب صغير ملتصق بالحائط، كان الحاسوب المحمول هو التفصيل الوحيد الذي يُذكّر بالحداثة. دفعتني الإثارة إلى إطاحة توخّي الحذر عرض الحائط ومُلاعبة القدر. كان عليّ أن أعرف المزيد. اقتربت من المكتب، ورغمًا عنّي تقريبًا، شعرتُ بيدي وهي تُطبق على الحاسوب.

.5

لدى عودتي إلى الطابق السفلي، هرعت إلى اكتشاف محتويات الجهاز. لا شكّ في أنّ أوديبير لم يكن مُطّلعًا على أحدث التقنيات،

لكنّه لم يكن جاهلًا بقدر ما كان يودّ أن يوهم الآخرين. كان حاسوبه الخاصّ عبارة عن جهاز قديم من نوع ڤايو طراز العام 2000. كنت شبه متأكّد أنّه لا بدّ من أن تكون كلمة السرّ هي نفسها المُستخدمة في حاسوب المكتبة. حاولت، واكتشفت... أنّها هي نفسها.

كان القرص الصلب شبه فارغ. لم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا كنت أبحث، لكنّني أصبحت مقتنعًا الآن بأنّ هناك المزيد من المعلومات التي يُمكن العثور عليها. في الملفّات النادرة الموجودة على سطح المكتب نسخة غير محدّثة لحسابات المكتبة، وبعض الفواتير، وخريطة طوبوغرافية لبومون، ومقالات صحافية تتعلّق بماضي أبولين شابوي وكريم عمراني الإجرامي. ما من معلومات جديدة، لقد سبق وقرأت ذلك. لم أكتشف سوى أنّ أوديبير أجرى الأبحاث نفسها التي أجريتها أنا. كنت متردّدًا في البحث في بريد المكتبيّ الإلكتروني أو رسائله. لم يكن لدى أوديبير حساب شخصي في فيسبوك، لكنّه أنشأ صفحة خاصّة بالمكتبة لم يضف إليها أيّ منشور منذ أكثر من عام. أمّا بالنسبة إلى مكتبة الصور في الكمبيوتر، فلم تكن زاخرة جدًّا بها، لكنّها كانت تحتوي على ثلاثة ألبومات على وشك أن يتبيّن أنّها بمثابة قنبلة مُتفجّرة.

أوّلًا، رأيت الكثير من لقطات عن الشاشة لموقع أبولين شابوي الإلكتروني، ثمّ، في ملفّ آخر، صورًا التُقِطَت بعدسة تقريب بصري لكريم عمراني وهو يتجوّل في إيفري. الصور نفسها التي وجدتها في غرفة ماتيلد. لكن لم تنته هنا المفاجآت، لأنّ الملفّ الأخير كان يحتوي على صور أخرى. اعتقدت في البداية أنّها الصور التي أرتها ماتيلد لفاولز، أي سفرة هاواي التي قام بها الجانيان وحفلة عيد ميلاد تيو فيرنوي. ولكن وفق ما يبدو، لم تعرض ماتيلد على الروائي سوى جزء من صور تلك الأمسية. فالصور الأخرى كانت تحمل دليلًا

قاطعًا على أنّ الفتاة كانت موجودة بالفعل في عيد ميلاد شقيقها، في ذلك المساء المشؤوم، عندما قُتلت عائلتها.

شعرت بوخز في عينيّ، وبطنين يملأ رأسي، وَأحسستُ بأنّ الوريدين في صدغيّ ينبضان بسرعة. كيف فاتت هذه المعلومة المحقّقين؟ تملّكني ذعر شديد، وقد كنت عاجزًا عن الإشاحة بنظري عن الشاشة التي كانت تحرق لي جفنيّ. في سنّ السادسة عشرة، بدت ماتيلد في الصور فتاة جميلة، رقيقة إلى حدّ ما، شاردة الذهن، ابتسامتها مصطنعة، ونظراتها كئيبة وماكرة.

تسارعت الفرضيات الأكثر غرابةً في ذهني. وكانت الأكثر مأسوية بينها أن تكون ماتيلد هي التي قتلت أفراد عائلتها. كشفت لي آخر صورة في الألبوم الرقمي مفاجأة أخرى. كانت تعود إلى 3 مايو 2000. لا شكّ في أنّها التُقِطت خلال العطلة المُمدّدة بعد الأوّل من مايو. نرى ماتيلد وتيو مع جدّيهما أمام الوردة القرمزية.

كنت على وشك إغلاق الحاسوب عندما رحت أفتّش في سلّة المهملات عسى أن أجد شيئًا. كانت تحتوي على ملفَّي فيديو استرجعتهما أوّلًا إلى سطح المكتب، ثمّ نقلتهما إلى الذاكرة الفلاشية الخاصّة بي. وصلت سمّاعات الرأس قبل أن أشغّل التسجيلين.

ما اكتشفته جمّد الدم في عروقي.

.6

جلس فاولز في مطبخه، وقد وضع مرفقيه على الطاولة، ورأسه بين يديه، وهو يفكّر في عواقب ما كشفت له سابينا بينوا. لا بدّ أنّ مونّي اسم مستعار. لم تكن ماتيلد مونّي سويسرية وكان اسمها في الواقع ماتيلد فيرنوي. وإن كانت المرأة الشابّة حقًّا ابنة ألكسندر فيرنوي، فإنّ كلّ ما حدث في الجزيرة خلال الأيّام الأخيرة بات له معنًى جديد.

بسبب نفوره من وسائل الإعلام، لم يتوقّع فاولز حدوث ذلك. أزعجته فكرة أنّ ماتيلد صحافية وضلّلته منذ البداية. في الحقيقة، لم تأتِ ماتيلد إلى الجزيرة سوى لسببٍ واحد بسيط: الانتقام لمقتل عائلتها. إنّ الفرضية التي تفيد بأنّها هي التي قتلت كريم وأبولين، بعد أن اكتشفت أنّهما قتلا والديها، أصبحت الآن منطقية أكثر.

عشرات الصور والذكريات والأصوات المدوّية راحت تجول في ذهن فاولز. وسط هذا التدفّق غير المنتظم، جمدت صورة في رأسه. إحدى صور حفل عيد الميلاد التي أرته ماتيلد إيّاها على متن القارب: فيرنوي وزوجته وتيو الصغير على التراس، مع برج إيفل في الخلف. صعقه تفصيل بدهي: إن كانت هذه الصورة باللقطة الأميركية موجودة، فهذا يعني أنّ هناك من التقطها. وثمّة احتمال كبير أن تكون ماتيلد هي التي التقطتها. هي التي كانت من دون شكّ في بيت العائلة مساء وقوع المجزرة.

فجأة، حلّت على فاولز ليلة ليلاء. فهم كلّ شيء وشعر بأنّه في خطر كبير.

بسرعة فائقة، نهض ليتوجّه إلى الصالون. في الجزء الخلفي من الغرفة، كانت قطعة الأثاث المحفورة في خشب الزيتون حيث كان يضع بندقيته، في جوار الرفوف المعدنية التي كانت تُستخدم لحفظ الحطب. فتح الخزانة واكتشف أنّ البندقية لم تكن في مكانها. شخص ما استولى على بندقية كولشيدرا المزخرفة. السلاح الملعون، سبب كلّ الانتهاكات، السلاح الذي كان مصدر كلّ مصائبه. ثمّ تذكّر إحدى قواعد الكتابة القديمة: إذا ذكر روائي وجود سلاح في بداية قصّته، فسيحصل بالضرورة إطلاق نار وسيموت أحد الأبطال في نهاية الحكاية.

وبما أنّه كان يؤمن بقواعد الروايات الخيالية، كان فاولز على يقين أنّه هو الذي سيموت.

واليوم بالذات.

.7

شغّلت الفيديو الأوّل. مدّته خمس دقائق، لا بدّ أنّه صُوِّر بواسطة هاتف خلوي، في مكان بدا أنّه منزل.

– الرحمة! أنا لا أعرف شيئًا... لا شيء أكثر ممّا سبق وقلته لك!

كان كريم ممدّدًا على طاولة منخفضة العلو مائلة نحو الأرض، فيما يداه مقيّدتين بالأصفاد، وذراعاه مرفوعتين فوق رأسه.

من وجهه المتورّم والدم السائل من فمه، يمكن تصوّر أنّه قد تعرّض لوابل من الضرب المبرح. كان الرجل الذي يستجوبه ضخمًا لم أره قطّ في حياتي. شعره أبيض وبنيته الجسدية مُخيفة. كان يرتدي قميصًا منقوشًا بالمربّعات، وسترة ماركة باربور ويعتمر قبّعة من القماش الاسكتلندي.

اقتربت من الشاشة لأرى تفاصيل ملامحه بشكل أفضل. كم كان عمره؟ كان في الأقلّ في الخامسة والسبعين من عمره إذا صدقت التجاعيد التي تملأ وجهه ومظهره بشكل عامّ. كان يجد صعوبة في الحركة بسبب كرشه المنتفخ، لكنّه بدا عنيفًا كالثور، وبقوّته هذه كان يجرف كلّ ما صادفه في طريقه.

– هذا كلّ ما أعرفه! صاح كريم.

بدا أنّ الرجل العجوز لم يسمع ما قال. غاب من إطار الشاشة بضع ثوان ليعاود الظهور ومعه منشفة غطّى بها وجه تاجر المخدّرات السابق. ثمّ ببراعة الجلّاد المُحنّك، بدأ صبّ الماء على المنشفة.

لجأ إلى تقنية التعذيب البائسة التي تُحاكي الغرق.

كانت مُشاهدة الفيلم لا تُحتمل. استمرّ العجوز في خنق كريم. فراح جسده ينقبض ويتراخى ويتلّوى تحت تأثير التشنّجات. عندما نزع المنشفة أخيرًا اعتقدت أنّ كريم قد فارق الحياة. سال من فمه مزيج من الفقّاعات ورغوة صفراء. بقي هامدًا برهة، ثمّ تقيّأ قبل أن يتمتم:

– أخبرتك بكلّ شيء، اللعنة...

حرّك الرجل الطاولة وهمس في أذن كريم:

– حسنًا إذًا، ستبدأ من جديد.

كان الرجل على آخر رمق. والذعر بادٍ على وجهه.

– أنا لا أعرف أيّ شيء آخر...

– إذًا أنا سأبدأ من جديد!

وأمسك الرجل العجوز المنشفة مجدّدًا.

– لا! صاح كريم.

بطريقة أو بأخرى، التقط أنفاسه وحاول أن يستجمع أفكاره.

– في تلك الليلة، 11 يونيو 2000، قصدت أنا وأبولين الدائرة 16، في 39 جادّة بوسيجور، لسرقة المسنّين الثريين في الطابق الثالث. وصلتنا معلومة سرّية مؤكّدة تُفيد بأنّهما لن يكونا في الشقّة.

– من سرّب لك هذه المعلومة؟

– لا أدري، العصابة التي كنت أنتمي إليها في تلك الفترة. من المفترض أنّ المسنَّين كانا فاحشي الثراء، ولكنّ الجزء الأكبر من الأموال النقدية والمجوهرات كان محفوظًا في خزنة مُثبّتة في الإسمنت. لم نتمكّن من حملها.

كان يتحدّث بسرعة، بصوت رتيب، كما لو أنّه قد روى هذه القصّة آلاف المرّات. كان في صوته خُنّة بسبب أنفه المكسور، والدم يسيل على جفنيه المُغمضين على أثر الكدمات.

– سرقنا بعض الحلي البخسة، أشياء يمكننا بيعها. ثمّ، عندما كنّا على وشك الرحيل، سمعنا طلقات نارية آتية من الطابق الأسفل.

– كم طلقة؟

– ثلاث طلقات. وبما أنّ الذعر كان قد تملّكنا، اختبأنا في إحدى الغرف. انتظرنا طويلًا، يتنازعنا الخوف من الشرطة التي ستصل قريبًا وخوف من القاتل الذي يرتكب المجزرة في الطابق الثاني.

– ألم تريا الفاعل؟

– لا! أخبرتك أنّ الفزع تملّكنا. مرّت دقائق عدّة قبل أن نتجرّأ على النزول. حاولنا الهرب عبر السطوح، لكنّ المخرج كان مُحكم الإغلاق. لذا لم نستطع سوى التوجّه إلى السلالم.

– وبعد ذلك؟

– حين وصلنا إلى الطابق الثاني، كانت أبولين ما زالت مُرتعبة. أنا، كنت في حال أفضل بكثير. فقد استنشقت بعض الكوكايين في غرفة المُسنّين. كنت كلّيًا تحت تأثير المخدّرات، إلى حدّ الانتشاء. عندما وصلت أمام الباب، أدخلت رأسي من الفتحة. رأيت مجزرة حقيقية. الدماء في كلّ مكان، وثلاث جثث ملقاة على الأرض. صرخت أبولين وذهبت لانتظاري في موقف السيّارات تحت الأرض.

– لا تقلق، سنستجوب حبيبتك.

– هي ليست حبيبتي. لم نتواصل منذ ثمانية عشر عامًا.

– ماذا فعلت أنت في شقّة فيرنوي؟

– قلت لك إنّ جميعهم كانوا قد فارقوا الحياة. ذهبت إلى الصالون ثمّ إلى غرف النوم. وسرقت كلّ ما استطعت سرقته: ساعات فاخرة، الكثير من النقود، مجوهرات، كاميرا... ثمّ وافيت أبولين. هربنا إلى هاواي بعد بضعة أسابيع، وهناك فقدنا هذه الكاميرا اللعينة.

– نعم، هذا يُعدّ غباء، بدا أنّ العجوز يوافقه الرأي.

تنهّد تنهيدة عميقة وسدّد فجأة ضربة رهيبة استهدفت أضلع كريم.

– الأسوأ هو أنّك في ذلك اليوم لم تفقد الكاميرا فقط: بل فقدت حياتك.

وهجم عليه حانقًا كالمسعور، فانهال عليه لكمًا بقبضتيه الضخمتين بقوّة هائلة.

كنت مرعوبًا. شعرتُ بأن قُطيرات الدماء المُتطايرة ستُصيب وجهي. أشحت بنظري بعيدًا من الشاشة. كنت أرتجف كأنّني مصاب بالحمّى. أطرافي كلّها كانت ترتعش. من هو هذا الرجل الذي يستطيع القتل بيديه العاريتين؟ ما مصدر هذا الجنون الذي كان يسيطر عليه؟

كان الهواء شديد البرودة. نهضت لإغلاق باب المكتبة. أوّل مرّة في حياتي، شعرت جسديًّا بخطر الموت. تردّدت لحظة في أن أهرب وآخذ معي الحاسوب، لكنّ الفضول دفعني إلى العودة إلى خلف المكتب وتشغيل التسجيل الثاني.

كنت آمل أن يكون هذا الفيديو أقلّ فظاعة من الأوّل، لكن لم يكن كذلك. ضمّ مشهد تعذيب بالغ القسوة شبيهًا بالذي سبقه، وكان الموت نهايته. هذه المرّة، كانت أبولين هي الضحية، أمّا الجلّاد، فكان رجلًا شوهد من الخلف فقط. كان مُحزَمًا بمشمّع داكن، وبدا أصغر سنًّا وأقلّ ضخامة من قاتل كريم. كان الفيلم أقلّ جودة، ربّما لأنّ المكان كان مُغلقًا، ومُضاء بنور خافت. غرفة صغيرة قذرة ومُغمّة، جدرانها رمادية مبنية بحجارة ناتئة.

كانت أبولين مُقيّدة إلى كرسي، وجهها مضرّج بالدم وبعض أسنانها مكسورة، وإحدى عينيها متضرّرة إثر ضرب مُبرح. كان المُعتدي يُمسك بيده قضيبًا معدنيًّا يحرّك به جمرًا، وقد عذّبها من

دون شكّ فترة طويلة. كان الفيلم قصيرًا وبدت الرواية التي سردتها ابنة بوردو مُكمّلة للقصّة التي رواها كريم.

– لقد قلت لك إنّ فزعًا شديدًا قد تملّكني! لم أدخل شقّة فيرنوي. هرعت على الفور إلى موقف السيّارات تحت الأرض لانتظار كريم.

نَخرت من أنفها وهزّت رأسها لتزيل خصلة شعر التصقت بالدم السائل على وجهها فسقطت على عينيها.

– كنت واثقة في أنّ رجال الشرطة سيأتون بسرعة. كان يجب أن يكونوا قد وصلوا أصلًا. كان موقف السيّارات غارقًا في ظلام دامس. تقوقعت على نفسي بين عمود إسمنتي وشاحنة صغيرة. ولكن فجأة شعشعت الأنوار وظهرت سيّارة آتية من الطابق الأدنى.

أصيبت أبولين بالحازوقة، في حين حثّها الرجل المُمسك بالقضيب على أن تُتابع.

– كانت سيّارة بورش رمادية اللون مُخطّطة بأشرطة زرقاء وحمراء. توقّفت مدّة 30 ثانية أمامي لأنّ البوّابة الأوتوماتيكية قد تعطّلت وبقيت عالقة في المنتصف.

– من كان داخل البورش؟

– رجلان.

– اثنان؟ هل أنت واثقة؟

– متأكّدة. لم أر وجه الراكب، لكنّ الرجل الذي كان خلف المقود ترجّل من السيّارة ليفتح البوّابة.

– هل تعرفينه؟

– ليس شخصيًا، لكنّني سبق أن شاهدت إحدى مقابلاته في التلفزيون. لقد قرأت أحد كتبه أيضًا.

– أحد كتبه؟

– نعم، كان الكاتب ناثان فاولز.

الحقيقة المرّة

10

روائيّان ضدّ العالم

خلاص المهزوم الوحيد هو ألّا يأمل
أبدًا بالخلاص.

فيرجيل

.1

«كان الكاتب ناثان فاولز.»

تلك كانت كلمات أبولين الأخيرة قبل وفاتها. استمرّ الفيديو بضع ثوانٍ إضافية، وقد ظهرت وهي في غيبوبة، قبل أن تُسلم الروح إثر ضربة قضيب أخيرة.

بعيدًا من هذا الاكتشاف – في حدّ ذاته، والذي أغرقني في حيرة مرعبة، كان ثمّة سؤال أكثر إلحاحًا يشغل بالي: ماذا يفعل هذان التسجيلان في حاسوب أوديبير؟

كنت أشعر باضطراب متزايد، وعلى الرغم من فظاعة المشهد، شاهدت فيديو إعدام أبولين مرّة ثانية. هذه المرّة، رفعت سمّاعة الرأس للتركيز على الديكور. هذه الجدران المصنوعة من كسارة

الصخور... لقد رأيت جدرانًا مماثلة عندما أنزلت صناديق الكتب بمصعد البضائع إلى طابق تحت الأرض في المكتبة. أو ربّما كانت مجرّد تخيّلات...

كانت مفاتيح القبو موجودة في سلسلة مفاتيح المكتبة. لقد قصدته مرّتين أو ثلاثًا، لكنّني لم ألحظ أيّ شيء مريب بشكل خاصّ.

على الرغم من الخوف، قرّرت أن أقوم بجولة أخرى هناك. ولكن، كان يستحيل أن أستخدم مصعد البضائع الذي يُحدث ضجيجًا صاخبًا. خرجت إلى الفناء الصغير الداخلي حيث فتحة تتيح الوصول إلى القبو عبر درج خشبي شديد الانحدار كالسلم. ما إن نزلت الدرجات الأولى حتّى صفعتني رائحة رطوبة كريهة.

حين وصلت إلى الأسفل، أضأت النيون الذي نشر نورًا متذبذبًا، ولم يكشف سوى رفوف كستها شباك العنكبوت وصناديق مليئة بالكتب التي يكاد يأكلها العفن. أصدر الفلوريسّنت أزيزًا بضع ثوان قبل أن يُحدث طقطقة وينطفئ.

تبًّا...

أخرجت هاتفي لاستخدام مصباحه، لكنّني تعثّرت بجهاز تكييف صدئ قديم مرمي على الأرض. سقطت على الإسمنت وتدحرجت على الغبار.

أحسنت يا رافا...

التقطت هاتفي الخلوي ونهضت قبل أن أغرق في الظلام. كان القبو ممتدًّا بالطول، وأوسع بكثير ممّا كنت أتخيّله. في الجزء الخلفي منه، سمعت صوت منفاخ، شبيه بصوت جهاز تدفئة أو فتحة تهوئة. كان الطنين صادرًا من أنابيب متشابكة اختفت خلف ثلاثة ألواح شبكية مُسندة إلى الحائط، ومكدّسة فوق بعضها بعضًا.

تساءلت إلى أين تتّجه هذه الأنابيب. بعد أن تعاركت مع المشابك دقيقة كاملة، تمكّنت من إزاحتها من مكانها واكتشفت منفذًا آخر. نوع من الألواح المعدنية المتحرّكة التي تشبه فتحة جانبية لفرن عملاق. كان الباب محميًا بقفل، لكنّ مفتاحه كان مُعلّقًا أيضًا في سلسلة المفاتيح الخاصّة بالمكتبيّ.

شعرت بخفقان في معدتي من كثرة الخوف وأنا أتوغّل في الداخل، إلى أن وصلت إلى غرفة غريبة فيها منضدة للأعمال الحرفية وثلّاجة بشكل صندوق. على طاولة العمل، لمحت القضيب الذي رأيت في الفيديو، ومطرقة صدئة حادّة الزوايا، ومدقًّا من الخشب الداكن، وإزميلًا لنحت الحجر...

شعرت بضيق في صدري. أطرافي كلّها كانت ترتعش. عندما فتحت الثلّاجة، لم أتمكّن من أن أكتم صرختي. فقد تلوّن داخلها بالدم.

أنا حتمًا في منزل لغريبي الأطوار.

انسحبت وانطلقت كالسهم نحو الفناء.

أوديبير هو من عذّب أبولين شابوي حتى الموت، ولا شكّ في أنّه سيقتلني أنا أيضًا إن لم أرحل من هنا. حين عدت إلى المكتبة، سمعت صرير الأرضية في الطابق العلوي. استيقظ المكتبيّ توًّا. سمعت وقع خطاه أوّلًا، ثمّ صرير درجات السلالم. تبًّا... بسرعة هائلة، أقحمت حاسوب أوديبير في حقيبة ظهري قبل أن أغلق الباب وأركب السكوتر.

.2

كانت السماء مُخطّطة بشرائط سحابية طويلة اخترقها ضوء الفجر. والطريق المُمتدّ على طول الشاطئ كان مهجورًا. فاحت روائح اليود

من البحر وامتزجت مع رائحة الكينا. انطلقت بأقصى سرعة، أي أنّ مركبتي، التي دفعتها الرياح، بلغت سرعتها بصعوبة خمسة وأربعين كيلومترًا في الساعة كما ظهر في العدّاد. كنت أنظر خلفي كلّ دقيقتين وقد تملّكني القلق. لم يسبق لي أن شعرت بالخوف إلى هذه الدرجة. تصوّرت أنّني سأرى أوديبير فجأة أمامي في أيّ لحظة، وأنّه سيظهر على الطريق العامّ وبيده القضيب لمعاقبتي.

ما العمل؟ فكّرت أوّلًا في الاختباء عند ناثان فاولز. لكنّني لم أستطع التظاهر بتجاهل ما رأيته في الفيديو. تلك الاتّهامات التي وجّهتها إليه أبولين شابوي.

كنت هدفًا يسهل التلاعب به. لطالما علمت أنّ فاولز لا يخبرني بكلّ ما يعرفه عن هذه القضيّة – وهو نفسه لم يحاول قطّ أن يُقنعني بالعكس. فإن ذهبت للقائه سأدخل المصيدة بقدميّ. فكّرت في بندقية البومب أكشن المزوّدة بسبطانة مُخدّدة والتي كانت دائمًا في متناول يده. قد تكون ربّما السلاح الذي استُخدِمَ لقتل عائلة فيرنوي. مدّة خمس دقائق كاملة، شعرت بأنّني مشوّشًا تمامًا، ثمّ لملمت شتات أفكاري. رغم أنّ والدتي غالبًا ما أوصتني بعدم الوثوق في أحد، إلّا أنّني كنت أفعل العكس دائمًا. لقد سبّبت لي سذاجتي المشاكل في حياتي وجعلتني أعضّ أصابعي ندمًا، ولكن كانت لديّ قناعة راسخة بأنّ التخلّي عن هذه البساطة يعني التخلّي عن نفسي. لذلك قرّرت أن أتبع حدسي الأوّل: الرجل الذي كتب «لوريلاي ستراينج» و«المحطّمون» لا يمكن أن يكون وغدًا.

عندما وصلت إلى لا كروا دو سود، بدا لي فاولز مستيقظًا منذ وقت طويل. كان يرتدي كنزة بياقة عالية داكنة اللون، وسترة من جلد الغزال المدبوغ. كان هادئًا جدًّا، وقد فهم على الفور أنّ شيئًا خطيرًا قد أصابني.

– عليك أن ترى ذلك! قلت له، من دون أن أعطيه المجال حتى ليهدّئ روعي.

أخرجت حاسوب أوديبير من حقيبتي وشغّلت التسجيلين. شاهدهما فاولز من دون أن تتبدّل ملامحه، حتى حين ذكرت أبولين اسمه.

– هل تعرف الرجلين اللذين يعذّبان شابوي وعمراني؟

– الأوّل، لا فكرة لديّ من يكون. أمّا الثاني فهو غريغوار أوديبير. وجدت في قبوه الثلّاجة التي خبّأ فيها أبولين.

بقي فاولز غير متأثّر، لكنّني شعرت بأنّه مهزوز.

– هل تعلم أنّ ماتيلد حفيدة أوديبير وابنة ألكسندر فيرنوي؟

– لقد علمت ذلك منذ ساعة.

– ناثان، لماذا تتّهمك أبولين؟

– هي لا تتّهمني. هي تقول ببساطة أنّها رأتني في سيّارة برفقة رجل آخر.

– من كان هذا الرجل؟ قل لي فقط إنّك بريء وسأصدّقك.

– لست أنا من قتل عائلة فيرنوي، أقسم لك.

– لكنّك كنت في شقّتهم في تلك الليلة الشهيرة؟

– نعم، كنت هناك، لكنّني لم أقتلهم.

– اشرح لي ذلك!

– سأخبرك يومًا ما بكلّ شيء بالتفصيل، ولكن ليس الآن.

فجأة أصبح فاولز عصبيًّا، وراح يتلاعب متوتّرًا بجهاز تحكّم من بعد صغيرة الحجم، يشبه جهاز تحكّم من بعد لفتح باب المرأب، كان قد أخرجه توًّا من جيبه.

– لماذا لن تخبرني الآن؟

– لأنّك في خطر محدق يا رافاييل! هذه ليست رواية يا بني. هذه ليست مجرّد كلمات فارغة. ماتت أبولين وكريم ولا يزال القاتلان حُرّين طليقين. لسبب أجهله حتى الآن، عادت قضيّة فيرنوي لتبرز على الساحة. ولا يمكن أن تكون عواقب مأساة مماثلة إلّا وخيمة.

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– ستغادر الجزيرة. حالًا! حسم الأمر وهو يتفقّد ساعته. ستستأنف العبّارة رحلاتها في الساعة 8 صباحًا. سأصطحبك في السيّارة إلى هناك.

– هل أنت جادّ؟

أشار فاولز إلى الحاسوب بإصبعه.

– لقد رأيت مقطعَي الفيديو مثلي. بإمكان هؤلاء الأشخاص فعل أيّ شيء.

– لكن...

– أسرع! أمرني بذلك ممسكًا بذراعي. برفقة برونكو، لحقت بالروائي إلى سيّارته، وقد تعذّر تشغيل محرّكها بسهولة بعد أن مرّت أسابيع عدّة على عدم استخدامها. حين اعتقدت أنّ فاولز قد أغرق المحرّك بالوقود، أصرّ على تشغيله مرّة أخيرة وحدثت المعجزة. قفز برونكو إلى المقعد الخلفي. راحت السيّارة المكشوفة من دون أبواب، التي لطالما وجدتها غير مريحة على الإطلاق، تجوب الممرّ الترابي الذي اخترق الغابة قبل الوصول إلى الطريق المعبّد.

كانت الرحلة إلى العبّارة شاقّة. استسلم نور الصباح الخجول أمام الأجواء المُكفهرّة. باتت السماء ملبّدة الآن بالغيوم السوداء، كما لو أنّه أُعيد تلوينها بواسطة قلم فحمي سيّئ النوعية. هبّت الرياح أيضًا، فراحت تعصف بزجاج السيّارة الأمامي الضعيف. لم تكن الرياح الشرقية الرطبة واللطيفة ولا الرياح الشمالية المألوفة التي تكشح

السحاب لتُفسح المجال للسماء الزرقاء. كانت رياح جليدية لاذعة آتية من القطب، حملت في جعبتها الكثير من البرق والرعد: الرياح الشمالية السوداء.

لدى وصولنا إلى الميناء، شعرت بأنّني وصلت إلى مدينة أشباح. غشّت الأرصفة طبقات من الضباب. التفّت خيوط لؤلؤية وبخارية حول الشوارع وأغرقت هياكل القوارب. ضباب شديد الكثافة بحقّ. ركن فاولز السيّارة أمام المحرَس التابع لإدارة الميناء وذهب بنفسه لشراء تذكرتي. ثمّ رافقني إلى العبّارة.

– لمَ لا ترافقني يا ناثان؟ سألته، وأنا أطأ بقدمي عبّارة القارب. أنت أيضًا في خطر، أليس كذلك؟

كان قد بقي على الرصيف مع كلبه، فهزّ رأسه متجاهلًا سؤالي.

– اعتنِ بنفسك يا رافاييل.

– تعال معي! توسّلته.

– مستحيل. من يُشعل النار فعليه إخمادها. عليّ أن أضع حدًّا لشيء ما.

– ما هو؟

– تدمير الآلة الشنيعة التي أشعلت فتيلها منذ عشرين سنة.

ودّعني ملوّحًا بيده، وأدركت حينذاك أنّني لن أعرف المزيد. فيما كنت أتأمّله وهو يبتعد مع كلبه، سرت قشعريرة غير متوقّعة في جسدي وتملّكني حزن شديد لأنّ شيئًا ما أنبأني أنّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها ناثان فاولز. ومع ذلك، عاد فجأة أدراجه. نظر في عينيّ بعطف، ولدهشتي، أعطاني المخطوطة المصحّحة لروايتي التي لفّها لتتّسع في جيب سترته.

– إنّ «خجل القمم» رواية جيّدة يا رافاييل. فهي تستحقّ النشر حتّى من دون تصحيحاتي.

– هذا ليس رأي الناشرين الذين قرأوها.

هزّ رأسه وأطلق تنهيدة فيها الكثير من الازدراء:

– الناشرون... الناشرون هم أشخاص يريدون أن تكون ممتنًّا لهم عندما يطلعونك على جملتين عن آرائهم في كتابك، بعد أن تكون قد كدحت عامين لكي يُبصر النور. إنّهم أشخاص يتناولون الغداء حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر في مطاعم ميدتاون أو سان جيرمان دي بري، فيما ترهق عينيك أمام شاشتك، ولكن يتّصلون بك يوميًّا إذا تأخّرت في توقيع العقد معهم. أشخاص يدّعون أنّ كلًّا منهم ماكس بيركنز أو غوردون ليش، لكنهم لن يكونوا يومًا سوى أنفسهم، أي مجرّد كوادر في إدارة الأدب، يقرأون نصوصك من منظار جدول إكسيل. أشخاص لا تعمل أبدًا بالنسبة إليهم بالسرعة المطلوبة، يعاملونك كما لو أنّك ما زلت طفلًا، ويعرفون دائمًا أكثر منك ما يودّ الناس قراءته، أو أيّ عنوان هو الأفضل، أو أيّ غلاف هو الأفضل. أشخاص مجرّد أن تحقّق نجاحًا، غالبًا رغمًا عنهم، سيردّدون في كلّ مكان أنّهم «صنعوك». الأشخاص أنفسهم الذين قالوا لسيمنون إنّ «ميغريه» كانت تفاهة مثيرة للاشمئزاز أو رفضوا «كاري»، و«هاري بوتر»، و«لوريلاي سترايـنج»...

قاطعت نقد فاولز اللاذع.

– رفضت «لوريلاي سترايـنج»؟

– لم أفاخر بذلك علنًا، ولكن نعم. رُفضت من أربعة عشر وكيلًا وناشرًا. بما في ذلك من نشرها أخيرًا في وقتٍ لاحق، بفضل جاسبر فان ويك. لهذا السبب يجب ألّا نولي هؤلاء الأشخاص أهمّية كبيرة.

– ناثان، حين تنتهي هذه المسألة، هل ستساعدني في نشر «خجل القمم»؟ هل ستساعدني لأصبح كاتبًا؟

المرّة الأولى (والأخيرة)، التي رأيت فيها فاولز يبتسم حقًّا، وما قاله لي أثبت الانطباع الأوّل الذي لطالما كوّنته عنه.

– أنت لست بحاجة إلى مساعدتي، رافاييل. أنت بالفعل كاتب.

حيّاني بلفتة ودّية رافعًا إبهامه في اتّجاهي، قبل أن يعود إلى سيّارته.

.3

راح الضباب يتكثّف شيئًا فشيئًا. كانت ثلاثة أرباع الأماكن ممتلئة على متن العبّارة، لكنّني وجدت مقعدًا في الداخل. من النافذة، استطعت رؤية آخر الركّاب الذين كانوا يظهرون وسط الضباب ويهرعون إلى ركوب القارب.

كنت ما زلت تحت تأثير الصدمة بسبب ما قاله لي فاولز، لكن كنت أشعر أيضًا بالمرارة. إنّه طعم الهزيمة. هذا الشعور عند الفرار من ساحة المعركة في خضمّ القتال. وصلت إلى بومون وأنا مليء بالحماسة تحت أشعّة الشمس الساطعة، وها أنا أغادر الجزيرة تحت المطر، مُحبطًا، وقد أرعبني الخطر، في الوقت الذي سيُكتب فيه الفصل الأخير.

كنت أفكّر في روايتي الثانية، التي بدأت كتابتها. «حياة الكاتب السرّية». كنت أعيش في هذه الرواية، كنت إحدى شخصياتها. لا يستطيع راوي القصّة هجر مسرح الأحداث كالجبان حين يزداد التشويق. لن تُتاح لي مرّة أخرى فرصة كهذه. إلّا أنّني فكّرت في تحذير فاولز. «أنت في خطر مُحدق يا رافاييل! هذه ليست رواية يا بني.» إلّا أنّ فاولز نفسه لم يصدّق كلماته من دون شكّ. أليس هذا بالضبط ما نصحني به هو: أن أضفي نفحة روائية إلى حياتي، وحياة إلى رواياتي؟ كنت أعشق تلك اللحظات حين يمتزج

الخيال بالحياة. كان ذلك أحد أسباب عشقي للقراءة. ليس للهروب من الواقع إلى عالم خيالي، ولكن للعودة إلى عالم حوّلته قراءاتي أكثر غنًى بفضل الرحلات واللقاءات التي أقوم بها في عالم الخيال، وكنت حريصًا على إعادة استثمارها في الواقع. «ما جدوى الكتب إذا لم تُرجعنا إلى الحياة، إذا لم تجعلنا نَعُبّ من مائها بلهفة أشدّ؟» هنري ميلر. لا شكّ في أنّ لا جدوى منها.

ومن ثمّ كان ناثان فاولز. بطلي ومرشدي. هذا الذي رفَعني، قبل خمس دقائق، لأصبح نـدًّا له. لم يكن في استطاعتي أن أتركه ليواجه وحده خطرًا قاتلًا. لست ضعيفًا، اللّعنة! لم أكن طفلًا. كنت كاتبًا ذاهبًا لمساعدة كاتبٍ آخر.

روائيّان ضدّ العالم...

فيما كنت أنهض عن مقعدي للعودة إلى الجسر، رأيت شاحنة أوديبير تصل إلى أمام مبنى البلدية. شاحنة قديمة مطليّة باللون الأخضر الصارخ كان قد أخبرني بأنّه اشتراها من بائع زهـور قبل بضع سنوات.

ركن المكتبيّ سيّارته صفًّا ثانيًا أمام مكتب البريد وخرج ليضع ظرفًا في الصندوق. عاد بسرعة إلى المركبة، ولكن قبل أن يجلس خلف المقود نظر مطوّلًا إلى العبّارة. اختبأت خلف عمود معدني، آملًا ألّا يكون قد رآني. عندما خرجت من مخبئي، كانت الشاحنة قد انعطفت عند ناصية الشارع. لكن بدا لي أنّني لا زلت أرى وميض مؤشّريها الخلفيين وسط الضباب، كما لو أنّ السيّارة قد توقّفت.

ما العمل؟ تنازعني الخوف والرغبة في فهم ما يحصل. كنت قلقًا أيضًا على ناثان. الآن بعد أن أصبحت أعرف ما يمكن أن يقوم به أوديبير، هل كان يحقّ لي التخلّي عنه؟ أعلن نفير الضباب في العبّارة عن انطلاقها الوشيك. خُذ قرارك! وفيما كانت حبال المراسي تُفَكّ،

قفزت نحو الممشى الخشبي. لم يكن بإمكاني الهرب. الرحيل يعني التقهقر والتخلّي عن كلّ ما كنت أؤمن به.

مشيت على طول النتوء البحري أمام إدارة الميناء، ثمّ عبرت الطريق إلى مكتب البريد. كان الضباب منتشرًا في كلّ مكان. مشيت على الرصيف نحو شارع مورتيفيال، حيث انعطفت سيّارة المكتبيّ.

كان الطريق مهجورًا وغارقًا في الوحل والماء. وكنت كلّما اقتربت من الشاحنة التي اخترق الضباب ضوء مؤشّريها الخلفيين، شعرت بأنّ هناك خطرًا خفيًّا يحدق بي، جاهزًا لابتلاعي. عندما وصلت إلى السيّارة، لحظت أنّه لم يكن أحد خلف المقود.

– هل تبحث عنّي أيّها الكاتب الصغير؟

التفتّ لأجد ظلّ أوديبير مرتديًا معطفه الأسود. فتحت فمي لأصرخ، ولكن قبل أن أتمكّن من إصدار أدنى صوت، انهال عليّ بقضيبه بكلّ ما أوتي من قوّة. بقيت صرخة فزع عالقة في حلقي.

والتفّ السواد حولي.

.4

كانت السماء تُمطر بغزارة.

غادر ناثان فاولز في عجل إلى درجة أنّه ترك أبواب المنزل مشرّعة. حين عاد، لم يكلّف نفسه عناء إغلاق البوّابة. فالخطر الذي كان عليه مواجهته لم يكن ممكنًا أن يصدّه بتشييد الجدران أو الاختباء وراء المتاريس.

خرج إلى التراس ليُغلق بابًا كان يخبط في الحائط. مع المطر والعواصف، ارتدت بومون حلّة مُختلفة تمامًا. لم نعد في البحر المتوسّط، ولكن في جزيرة اسكتلندية ضربتها العاصفة.

وقف فاولز جامدًا دقائق عدّة، مستسلمًا لزخّات المطر الدافئ. طاردته صور لا يمكن احتمالها، بلا هوادة. صور مذبحة عائلة فيرنوي، وتعذيب كريم، وقتل أبولين. تـردّدت في ذهنه أيضًا كلمات من الرسائل التي قرأها البارحة. رسائل كُتبت قبل عشرين عامًا لتلك المرأة التي كان متيّمًا بها. محطّمًا، ترك الدموع تنهمر على خدّيه في حين عادت المشاعر كلّها لتظهر مجدّدًا. الشعور بالغضب لأنّ الحبّ قد فاته، والحياة التي تخلّى عنها، هذا الخطّ الأحمر الذي رسمته دماء الكثير من الجثث، ضحايا عرضية لقصّة كانوا فيها مجرّد كومبارس لا دخل لهم فيها.

دخل المنزل ليبدّل ملابسه. وهو يرتدي ملابس جافّة، شعر بإرهاق شديد، كما لو أنّ الطاقة كلّها استُنزفت من جسده. كان يتطلّع بفارغ الصبر إلى نهاية هذا الكابوس. عاش طوال السنوات العشرين الماضية كالساموراي. حاول مواجهة الوجود بشجاعة وشرف. التزم بنظام، وعاش وحيدًا، الأمر ساهم في إعداده ذهنيًّا للترحيب بالموت، كي لا يشعر بالخوف يوم يُطرَق بابه.

كان مستعدًّا. كان يفضّل ألّا يُكتب هذا الفصل الأخير بصخب وغضب، ولكن ما باليد حيلة. لقد انخرط في حرب لا منتصر فيها. فقط قتلى.

منذ عشرين سنة وهو يعلم أنّ الأمور ستنتهي بشكل سيّئ. وأنه عاجلًا أم آجلًا سيجد نفسه مرغمًا على أن يكون قاتلًا أو مقتولًا، لأنّ هذا هو جوهر السرّ المريع الذي كان يحمله.

ولكن حتى في كوابيسه، لم يتخيّل فاولز أنّ الموت الذي سيخطفه سيتمتّع بعيني ماتيلد مونّي الخضراوين، وخصلات شعرها الذهبية، ومحيّاها الجميل.

11

وأسدل الليل ستاره

– ما تعريف الرواية الجيّدة؟
– أن تخلق شخصيات تُثير حُبّ قرّائك وتعاطفهم. ثمّ تقتل هذه الشخصيات. وتجرح قارئك. وهكذا سيذكر دائمًا روايتك.

جون إيرفينغ



.1

عندما استعدت وعيي، وجدت نفسي مقيّدًا في مؤخّر سيّارة أوديبير، وكان هناك شيطان خفيّ يكشط جمجمتي بأداة حادّة. كنت أتلوّى من الألم. كان أنفي مكسورًا، ولم يعد بإمكاني فتح عيني اليسرى، والدماء تسيل من عظم حاجبي. مذعورًا، حاولت أن أحرّر نفسي، لكنّ المكتبيّ قيّد معصميّ وكاحليّ بإحكام شديد بحبال مطّاطية.

– أطلق سراحي أوديبير!

– اخرس أيّها الساذج.

كانت مسَاحتا السيّارة تنازعان لتصريف مياه الأمطار الغزيرة المتساقطة على الزجاج الأمامي. لم أر شيئًا يُذكر، لكنّني أدركت أنّنا نتوجّه شرقًا نحو رأس سافرانييه.

– لمَ تفعل ذلك؟

– قلت لك أطبق فمك!

كنت مبلّلًا بالمطر والعرق. كانت ركبتاي ترتجفان وقلبي يخفق بشدّة. تملّكني الفزع، لكنّني أردت أن أفهم، أكثر من أيّ شيء آخر.

– أنت أوّل من تلقّى صور الكاميرا القديمة، أليس كذلك؟ لم تصل إلى ماتيلد!

ضحك أوديبير هازئًا:

– لقد أُرسلت إليّ عبر صفحة المكتبة في فيسبوك، هل يمكنك أن تتصوّر ذلك؟ وجدني ابن أميركا الشمالية من الاباما بفضل الصورة الأولى: أنا وماتيلد أمام المكتبة يوم أهديتها هذه الكاميرا لمناسبة عيد ميلادها السادس عشر!

أغمضت عينيّ برهة لمحاولة فهم تسلسل الأحداث. إذًا كان أوديبير الرأس المدبّر لهذا الانتقام المتأخّر الذي كان يهدف إلى جعل قاتلَي ابنته وصهره وحفيده يدفعان الثمن. لكنّني لم أفهم لماذا جرّ المكتبيّ حفيدته للمشاركة في تنفيذ ثأره. عندما سألته، التفت صوبي، واللعاب يسيل من فمه، وبدأ شتمي:

– هل تظنّ أنّني لم أحاول حمايتها، أيّها الحقير! لم أرها الصور قطّ. لم أرسلها سوى إلى جدّها لأبيها باتريس فيرنوي.

لم يعد ذهني صافيًا جدًّا، لكنّني تذكّرت أنّني رأيت اسم والد ألكسندر في البحث الذي أجريته خلال الليل. باتريس فيرنوي، الشرطي المهمّ السابق، نائب المدير السابق للشرطة القضائية في باريس وكان خلال التحقيق في القضيّة يشغل منصب المستشار في

وزارة الداخلية. أُقيلَ في عهد جوسبان، وأنهى مسيرته المهنية بتألّق حين أصبح ساركوزي رئيس جمهورية فرنسا.

– أنا وباتريس يجمعنا الألم نفسه، تابع المكتبيّ، وقد استعاد بعضًا من هدوئه. عندما قُتل ألكسندر وصوفيا وتيو، توقّفت حياتنا. أو بالأحرى استمرّت حياتنا إنّما من دوننا. انتحرت زوجة باتريس في العام 2002 بعد أن حطّمها الحزن. زوجتي، أنيتا، تظاهرت حتى الرمق الأخير بأنّها بخير، ولكن من على سرير المستشفى، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، ردّدت كمن يردّد شعارًا مسلّمًا به كم تأسف لأنّ أحدًا لم يُقدم على قتل أولئك الذين سفكوا دماء أولادنا.

مُحكمًا قبضتيه على المقود، كان يبدو أنّه يُخاطب نفسه. في صوته غضب مكتوم يكاد ينفجر.

– حين تلقّيت هذه الصور وعرضتها على باتريس، اعتقدنا على الفور أنّها هديّة من السماء، أو من الشيطان، لكي نشفي غليل الانتقام لدينا. عمّم باتريس صور أبولين وكريم على قدامى الشرطة القضائية ولم يستغرقهم وقتًا طويلًا للتعرّف إليهما.

حاولت مُجدّدًا تحرير يديّ، لكنّ الحبال كانت تقطّع معصمي.

– بالطبع، قرّرنا أن نترك ماتيلد خارج خطّتنا، تابع المكتبيّ. وتشاركنا المهمّة. تولّى باتريس أمر عمراني، واستقطبت شابوي إلى الجزيرة من خلال انتحالي شخصية مدير كروم عائلة غاليناري.

كان أوديبير مأخوذًا بروايته، وبدا أنّه مستمتعًا بمشاركة تفاصيل جريمته معي:

– ذهبت لانتظار السافلة تلك عند مخرج العبّارة. لقد كان يومًا مُمطرًا مثل اليوم. في السيّارة، صعقتها بالمسدّس الكهربائي، ثمّ أنزلتها إلى القبو.

.2

الآن أدركت كم استخففت بأوديبير. فقد أخفى وراء مظهر معلّم الأرياف العجوز شخصية قاتل بدم بارد. خطّط هو وباتريس فيرنوي لتصوير الاستجوابين من أجل تبادلهما.

– ما إن أصبحنا في القبو، حتى استنزفت دماءها بلذّة. لكنّه كان عقابًا متسامحًا للغاية عن كلّ المعاناة التي سبّبتها لنا.

لمَ استجمعت شجاعتي وتوجّهت إلى ذلك الزقاق؟ تبًّا، لمَ لمْ أسمع نصيحة ناثان؟

– تلفّظت أخيرًا باسم فاولز حين كنت أعذّبها.

– إذًا، هل تعتقد أنّ فاولز قتل عائلة فيرنوي؟ سألته.

– لا أبدًا. أعتقد أنّ هذه الغبية شابوي تفوّهت بهذا الاسم عشوائيًّا لأنّها كانت على الجزيرة والروائي من سكّانها المشهورين. أعتقد أنّهما المذنبان، هاتان الحشرتان اللتان كان ينبغي أن تهلكا في السجن. في النهاية، لم ينالا إلّا ما يستحقّانه. وإذا كان بإمكاني قتلهما مرّة ثانية، فسأفعل ذلك بكلّ سرور.

– ولكن أُقفِلَت القضيّة بموت أبولين وكريم.

– بالنسبة إليّ أُقفِلت القضيّة، ولكن لم يكن هذا رأي باتريس صاحب الرأس العنيد. أراد أن يستجوب فاولز بنفسه، لكنّه توفّي قبل أن يتمكّن من تحقيق ذلك.

– توفّي باتريس فيرنوي؟

ضحك أوديبير بشكل هستيري.

– منذ أسبوعين. قضى عليه سرطان المعدة. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لم يجد هذا الأبله شيئًا أفضل يفعله إلّا إرسال ذاكرة

فلاشية إلى ماتيلد تحتوي على الصور التي كانت في الكاميرا القديمة ومقطعَي الفيديو ونتائج التحقيقات التي أجريناها.

بدأت قطع الأحجية تأخذ مكانها الصحيح، مُسدلة الستار على سيناريو مذهل.

– استاءت ماتيلد جدًّا عندما اكتشفت صور أمسية عيد الميلاد. لقد كتمت طوال ثماني عشرة سنة ذكرى وجودها في الشقّة عندما قُتل والداها وشقيقها. كانت قد نسيت كلّ شيء.

– يصعب علّي تصديق ذلك.

– أنا لا أكترث إطلاقًا لما يمكن أن تصدّقه أنت! إنّها الحقيقة. حين وصلت إلى منزلي قبل عشرة أيّام، كانت ماتيلد فاقدة صوابها، كما لو أنّها ممسوسة، مُصمّمة على الانتقام لعائلتها. أخبرها باتريس بأنّ جثّة أبولين كانت مخبّأة في ثلّاجتي.

– هي التي سمّرت الجثّة إلى أقدم شجرة كينا في بومون؟

في المرآة رأيت أوديبير يهزّ رأسه إيجابًا.

– ما الغاية من ذلك؟

– فرض الحصار على الجزيرة بالطبع! لعدم هروب ناثان فاولز وإرغامه على الاعتراف بذنبه.

– لقد أخبرتني توًّا بأنّ فاولز ليس مذنبًا في رأيك!

– لا، لكن هي تعتقد ذلك. وأنا أريد حماية حفيدتي.

– كيف تريد حمايتها؟

لم يُجب المكتبيّ. من النافذة، لحظت أنّ السيّارة قد تجاوزت توًّا شاطئ «آنس دارجان». شعرت بدقّات قلبي تتسارع في صدري. إلى أين يأخذني؟

– رأيتك تُرسل ظرفًا منذ قليل يا أوديبير. علامَ يحتوي؟

– هههه! أنت دقيق الملاحظة أيّها الساذج! كانت رسالة اعتراف، أرسلتها إلى مركز شرطة طولون. رسالة أعترف فيها بقتل أبولين وقتل فاولز.

لهذا السبب كنّا نتوجّه نحو منزل فاولز! بات رأس سافرانييه على بُعد أقلّ من كيلومتر واحد. قرّر أوديبير تصفية فاولز.

– أنت تُدرك أنّه عليّ أن أقتله قبل أن تُقدم ماتيلد على ذلك.

– وأنا؟

– أنت وُجِدتَ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. ويُسمّى ذلك ضررًا جانبيًّا. هذا أمر سخيف، أليس كذلك؟

كان عليّ أن أفعل شيئًا لوضع حدّ لجنونه. بقدميّ المقيّدتين وجّهتُ إلى مقعد السائق ضربة عنيفة من الخلف. لم يكن أوديبير يتوقّع هذا الهجوم. صرخ واستدار نحوي في اللحظة نفسها التي أصابت الضربة الثانية رأسه.

– أيّها اللعين القذر، سوف...

انحرفت السيّارة عن مسارها. قرقعة زخّات المطر المُنهمرة على سطحها المعدني وحبال المياه الغزيرة جعلتني أشعر بأنّني في قارب يتخبّط على غير هدى.

– سأقتلك! صاح المكتبيّ ممسكًا بالقضيب المُلقى على مقعد الراكب بجانب السائق.

اعتقدت أنّه استعاد السيطرة على السيّارة، ولكن بعد برهة، اصطدمت بحاجز الحماية وهوت في العدم.

.3

لم أظنّ قطّ أنّني سأموت فعلًا. خلال الثواني القليلة التي دام خلالها سقوط السيّارة، بقيت آمل حتى النهاية أنّ شيئًا ما سيحدث لتجنّب

وقوع المأساة. لأنّ الحياة رواية. ولأنّ ما من كاتب يقتل الراوي قبل ثمانين صفحة من نهاية قصّته.

لا تحمل هذه اللحظة طعم الموت ولا طعم الخوف. لم أسترجع شريط حياتي بشكل مُتسارع، ولم تكن حركة بطيئة كحادث سيّارة ميشيل بيكولي في فيلم «أشياء الحياة».

إلّا أنّ فكرة غريبة راودتني. ذكرى، أو بالأحرى سرّ كشفه لي والدي منذ فترة قصيرة. اعتراف مفاجئ بقدر ما هو مُثير للدهشة. أخبرني كيف كانت حياته «مُشرقة»، هذا هو التعبير الذي استخدمه، عندما كنت طفلًا. حين كنت صغيرًا، كنّا نفعل أشياء كثيرة معًا، وقد ذكّرني بذلك. هذا صحيح. أتذكّر النزهات في الغابة، وزيارات المتاحف، والعروض المسرحية، والمجسّمات، والأعمال اليدوية. ولم يقتصر ذلك عليها فقط. كان يوصلني إلى المدرسة كلّ صباح، وفي الطريق، كان يُعلّمني دائمًا شيئًا جديدًا. قد يكون ربّما معلومة تاريخية، نادرة فنّية، قاعدة في النحو، درسًا قصيرًا في الحياة. ما زلت أسمع صوته في أذنيّ وهو يخبرني:

تدخل كان وأخواتها على المبتدأ والخبر فتُبقي الأوّل مرفوعًا اسمًا لها، وتنصب الثاني خبرًا لها. مثلًا: «الطقسُ مشمسٌ» تصبح «كان الطقس مشمسًا». | أثناء تأمّله سماء الريفييرا الفرنسية، خطرت لإيف كلاين فكرة ابتكار اللون الأزرق الأكثر نقاءً على الإطلاق: إنترناشونال كلاين بلو. | العلامة ÷ التي تشير إلى القسمة في الرياضيّات تُقرأ «على» كحرف الجرّ بالضبط. | في ربيع العام 1792، وقبل بضعة أشهر من قطع رأسه، اقترح لويس السادس عشر استبدال شفرات المقصلة المستقيمة بشفرات مائلة لتحسين فاعليّتها. | أطول جملة في رواية «البحث» مؤلّفة

من ثمانمئة وستّة وخمسين كلمة، وأشهرها من ثماني كلمات «منذ وقت طويل، وأنا آوي إلى الفراش باكرًا»، وأقصرها من كلمتين «كان يتأمّل». وأجملها من ثماني كلمات «نحن لا نحبّ سوى ما لا نملك بالكامل». ا فيكتور هوغو هو من أدخل كلمة «أخطبوط» إلى اللغة الفرنسية حين ذكرها المرّة الأولى في روايته «عمّال البحر». إنّ مجموع رقمين صحيحين متتاليين يساوي فرق مربّعهما. مثال: $6 + 7 = 13 = 7^2-6^2$...

كانت تلك لحظات سعيدة، لكنّها مهيبة إلى حدّ ما، وأظنّ أنّ كلّ ما تعلّمته في تلك الصباحات بقي مطبوعًا في ذاكرتي. في أحد الأيام، كنت كما أذكر في الحادية عشرة من عمري، أخبرني والدي بحزن عميق بأنّه قد علّمني كلّ ما يعرفه، وسأتعلّم ما تبقّى من الكتب. لم أصدّقه في تلك اللحظة، ولكن سرعان ما ساد الجفاء علاقتنا.

سيطر على أبي هاجس أن يخسرني، أن تدهسني سيّارة، أن أمرض، أن يخطفني مجنون عند ذهابي للّعب في الحديقة... ولكن في النهاية، الكتب هي التي أبعدتني منه. الكتب التي لطالما أشاد بمزاياها.

لم أفهم ذلك على الفور، لكنّ الكتب ليست دائمًا سُبلًا للتحرّر والتمكين. فالكتب تُفرّق أيضًا. لا تهدم الكتب الجدران فحسب، بل تبنيها أيضًا. الكتب تؤذي وتكسر وتقتل غالبًا أكثر ممّا نتوقّع. الكتب هي شموس كاذبة. مثل وجه جوانا بافووفسكي الجميل، الوصيفة الثالثة في مسابقة ملكة جمال إيل دو فرانس 2014.

قُبيل تحطّم السيّارة، راودتني ذكرى أخيرة. في بعض الصباحات، ونحن في طريقنا إلى المدرسة، عندما كان يشعر والدي بأنّنا قد نصل ربّما متأخّرين، كنّا نبدأ الجري لنجتاز الأمتار المئتين

الأخيرة. اسمع يا رافا، قال لي قبل بضعة أشهر، وهو يُشعل إحدى سجائره التي كان يدخّنها حتّى الفلتر، عندما أفكّر فيك، تتراءى لي دائمًا الصورة نفسها. كنّا في فصل الربيع، وكنت في الخامسة أو السادسة من عمرك، كانت الشمس مُشرقة والسماء ممطرة في آن واحد. ونحن نركض تحت زخّات المطر كي لا تتأخّر على المدرسة. نحن نركض معًا، جنبًا إلى جنب، يدًا بيد، عبر قطرات النور.

هذا البريق الذي يشعّ من عينيك.

رنين ضحكتك المشرقة.

التوازن المثالي للحياة.

12

وجه متغيّر

يصعب قول الحقيقة لأنّ ليس هناك حقيقة
واحدة فقط، لأنّها حيّة وبالتالي لها وجه متغيّر.

فرانس كافكا

.1

عندما وصلت ماتيلد إلى منزل فاولز، كانت مسلّحة ببندقية البومب أكشن. كان شعرها مُبلّلًا وبدا على ملامح وجهها الذي خلا من مساحيق التجميل أنّه لم يغمض لها جفن طوال الليل. استبدلت فساتينها القصيرة المزركشة بالزهور لترتدي بنطلونًا من الجينز ممزّقًا ومعطفًا مبطّنًا مع قلنسوة.

– انتهت اللعبة يا ناثان! قالت له مقتحمةً الصالون.

كان فاولز جالسًا إلى الطاولة أمام كمبيوتر غريغوار أوديبير المحمول.

– ربّما، أجاب بهدوء، إنّما لست وحدك من يضع قوانينها.

– مع ذلك، أنا من سمّرت جثّة شابوي إلى الشجرة.

– وما الغاية من ذلك؟

– كان لا بدّ من تنفيذ هذا المشهد المُنتهك للحرمات لإرغام السلطات على تطويق الجزيرة ومنعك من الفرار.

– لم يكن ذلك ضروريًا. لماذا أهرب؟

– كي لا أقتلك. كي لا تُكشف أسرارك الصغيرة للعالم كلّه.

– بالحديث عن الأسرار الصغيرة، أرى أنّك أنت أيضًا تتدبّرين أمرك بطريقة لا بأس بها.

لدعم كلامه، أدار فاولز شاشة الكمبيوتر نحو ماتيلد، فأصبحت أمامها الصور التي التقطت مساء عيد ميلاد شقيقها.

– لطالما ظنّ الجميع أنّ ابنة فيرنوي كانت تدرس لامتحان البكالوريا في النورماندي. لكن لم يكن ذلك صحيحًا. أنت أيضًا كنت موجودة في مكان وقوع المأساة. من الصعب العيش مع سرّ مماثل، أليس كذلك؟

مهزومة، جلست ماتيلد على رأس الطاولة ووضعت السلاح على سطحها، في متناول اليد.

– صعب، ولكن ليس للأسباب التي تتخيّلها.

– اشرحي لي...

– في بداية شهر يونيو، خلال فترة المذاكرة لامتحانات البكالوريا، ذهبت برفقة صديقتي إيريس إلى منزل والديها في «أونفلور». كان ينضمّ إلينا الكبار أحيانًا في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن خلال الأسبوع كنّا نبقى هناك نحن الاثنتين بمفردنا. كنّا جادّتين واجتهدنا فعلًا في الدراسة، لذا في صباح 11 يونيو، عرضت عليها أن نأخذ استراحة.

– أردت العودة إلى المنزل للاحتفال بعيد ميلاد أخيك، أليس كذلك؟

– نعم، كنت بحاجة إلى ذلك. منذ أشهر عدّة، شعرت بأنّ تيو قد تغيّر. هو الذي كان فرحًا ومليئًا بالحياة بات في الكثير من الأحيان حزينًا وقلقًا، وتراوده أفكارًا سوداوية. من خلال وجودي، أردت أن أظهر له كم أحببته وأن أُفهِمه أنّني سأكون إلى جانبه إن واجه أيّ مشكلة.

تحدّثت ماتيلد بصوت هادئ. سردت الأحداث بشكل منظّم. كان واضحًا أنّ هذا الاعتراف جزء من مخطّطها: البحث عن الحقيقة، الحقيقة الكاملة، في أضيق زوايا كلّ ذاكرة. بما في ذلك ذاكرتها.

– قالت لي إيريس إن عُدت أنا إلى باريس، فستنتهز هي الفرصة لتمضي يومًا مع قريباتها النورمانديات. لقد بلّغت والديّ بمجيئي وطلبت منهما ألّا يُخبرا تيو بشيء لمفاجأته. رافقت إيريس بالحافلة إلى هافر، ثمّ ركبت القطار إلى سان لازار. كانت الشمس ساطعة. توجّهت إلى الشانزليزيه وتنقّلت بين المتاجر بحثًا عن هديّة لتيو. كنت أبحث عن شيء يُمكن حقًّا أن يُسعده. في النهاية، ابتعت له قميص منتخب فرنسا لكرة القدم. ثمّ عدت إلى الدائرة 16 في المترو عبر الخطّ 9 إلى لامويت. وصلت حوالى الساعة السادسة مساءً. كانت الشقّة فارغة. كانت أمّي عائدة من سولون برفقة تيو، ووالدي كان في مكتبه كالعادة. اتّصلت بوالدتي لأقترح عليها أن تقصد متعهّد الطعام والحلواني لتحضر معها المأكولات والكعكة التي طلبتها.

ببرود، استمع فاولز إلى المرأة الشابّة وهي تسرد جانبها من القصّة عن تلك الأمسية الملعونة. عشرين عامًا وهو يعتقد أنّه هو وحده يملك مفاتيح قضيّة فيرنوي كلّها. فهم اليوم أنّه بعيد كلّ البعد من ذلك.

– كانت حفلة عيد ميلاد جميلة، تابعت ماتيلد. كان تيو سعيدًا وهذا كلّ ما همّني. هل لديك إخوة أو أخوات يا فاولز؟

هزّ الكاتب رأسه.

– أجهل كيف كانت ستتطوّر علاقتنا، ولكن في تلك السنّ، كان تيو يعشقني وكان الشعور متبادلًا. كنت أشعر بأنّه ضعيف، وأحسست بأنّه من واجبي حمايته. بعد المباراة، احتفلنا بالنصر وغفا تيو على الكنبة. حوالى الساعة الحادية عشرة ليلًا رافقته وهو نصف نائم إلى سريره وغطّيته جيّدًا كما كنت أفعل في بعض الأحيان، قبل الذهاب إلى غرفتي. أنا أيضًا كنت متعبة. ذهبت إلى الفراش ومعي كتاب. كنت أسمع في الخلفية والديّ وهما يتحدّثان في المطبخ، ثمّ اتّصل والدي بجدّي للتحدّث عن مباراة كرة القدم. أمّا أنا فانكببت على قراءة «التربية العاطفية».

توقّفت ماتيلد عن الكلام لحظات بدت طويلة. برهة، كلّ ما أمكن سماعه هو صوت المطر المتساقط على الشبابيك، وطقطقة الحطب في الموقد. كان من الصعب على المرأة الشابّة أن تواصل السرد، لكنّ الوقت لم يكن مناسبًا للخجل أو للمماطلة. أخبرت ما تبقّى من القصّة من دون أن تلتقط نفسها تقريبًا. لم يعد الحديث حوارًا، إنّما أصبح انزلاقًا في حفرة سحيقة يصعب التصديق أنّه يمكن أيّ شخص الخروج منها سالمًا.

.2

– خلدت إلى النوم برفقة فلوبير واستيقظت في فيلم «البرتقالة الآلية». هزّت طلقة نارية المنزل بأكمله. أشار منبّه الراديو إلى الساعة 11:47 ليلًا، لم أنم وقتًا طويلًا جدًّا، لكنّ الطريقة التي صحوت بها كانت الأعنف على الإطلاق في حياتي. رغم الخطر الذي شعرت

به، خرجت من غرفتي حافية القدمين. في الرواق، كانت جثّة والدي غارقة في بحر من الدماء. كان هذا المشهد لا يُحتمل. أُطلِق النار على وجهه من مسافة قريبة. وكانت أجزاء من دماغه وقطرات الدمّ متناثرة على الجدران. لم يكن لديّ الوقت حتى لأصرخ حين صفرت طلقة ثانية في أذني، وهوت أمّي عند مدخل المطبخ. تخطّى إحساسي الشعور بالرعب. كنت في ذلك الحيّز المشبع بالذعر والمؤدّي إلى حافّة الجنون.

في الحالات المماثلة، ينحرف دماغك ويتوقّف عن الاستجابة للمنطق. ردّ فعلي الأوّل كان أن أهرع إلى غرفتي. في ثلاث ثوانٍ فقط كنت قد وصلت واختبأت هناك. وأنا أُغلِق الباب أدركت أنّني نسيت تيو. لحظة كنت أهمّ بالخروج من الغرفة، بدّد دويّ جديد الصمت، وكاد جسد أخي المُصاب برصاصة في ظهره يسقط بين ذراعيّ.

دفعتني غريزة البقاء إلى الاختباء تحت سريري. كان النور في غرفة نومي مطفأً، لكنّ الباب بقي مفتوحًا. من فتحة الباب رأيت جثّة صغيري تيو. وقد أصبح قميص منتخب كرة القدم بركة دماء ضخمة.

أغمضت عينيّ، وزممت شفتيّ، وسددت أذنيّ. كي لا أرى، ولا أصرخ، ولا أسمع. لا أدري كم من الوقت بقيت حابسة أنفاسي هكذا. ثلاثين ثانية؟ دقيقتين؟ خمس دقائق؟ عندما فتحت عينيّ مجدّدًا، كان هناك رجل في غرفتي. من مخبئي، رأيت حذاءه فقط: جزمة من جلد العجل البنّي مع شريط مطّاطي على الجانبين. وقف هناك بضع ثوان، بلا حراك، من دون أن يبحث عنّي. استنتجت أنّه كان يجهل أنّني في المنزل. بعد بُرهة، استدار واختفى. بقيت بضع دقائق ممدّدة على الأرض، ومصدومة، وعاجزة عن الحركة. نشلني عويل صفّارة الشرطة من حالة الذهول هذه. كنت أحتفظ في سلسلة مفاتيحي بمفتاح الباب المؤدّي إلى السطح. فهربت من هناك. لا

يمكنني تفسير ردّ فعلي هذا. كان يُفترض أن أشعر بالاطمئنان لدى وصول الشرطة، لكنّ ما حصل هو عكس ذلك.

بعد ذلك أصبحت ذكرياتي مُبهمة أكثر. أعتقد أنّني تصرّفت بطريقة آلية. مشيت وسط الظلام إلى سان لازار وركبت أوّل قطار إلى النورماندي. عندما وصلت إلى أونفلور، لم تكن إيريس قد عادت بعد. عند عودتها استجمعت قواي لأكذب عليها. تظاهرت بأنّني أصبت بصداع نصفي بعد أن تركتها وأنّني لم أذهب إلى باريس في النهاية. صدّقتني بكلّ سهولة لا سيّما أنّها لحظت أنّني كنت في حالة مزرية وأصرّت على الاتّصال بطبيب. وصل في الصباح، لحظة دخول رجال شرطة هافر المنزل، برفقة جدّي، باتريس فيرنوي. هو الذي نعى لي رسميًّا عائلتي. وهنا توقّف دماغي عن العمل وأغمي عليّ.

حين استعدت وعيي بعد يومين، لم يكن لدي أيّ ذكرى عن تلك الأمسية. كنت أظنّ فعلًا أنّ والـديّ وتيو قد قتلوا في غيابي. يصعب تصديق ذلك عند سماع القصّة، لكنّ هذا ما حدث بالفعل. فقدان فعليّ للذاكرة دام ثمانية عشر عامًا. لا شكّ في أنّه الحلّ الوحيد الذي وجده ذهني كي أستمرّ في العيش. حتى قبل المجزرة، كنت أعيش في قلق دائم، لكنّ الصدمة المروّعة تسبّبت في توقّف دماغي عن العمل. في ردّ فعل وقائي، انفصلت ذاكرتي عن مشاعري. خلال السنوات التي تلت، شعرت بأنّ هناك خطبًا ما. كنت أحمل عذابًا حقيقيًّا نسبته، بشكل خاطئ جزئيًّا، إلى فقدان أسرتي. فقد قمعت طبعًا هذه الذكريات، لكنّها كانت تتعفّن في داخلي، وأرزح تحت عبئها الخفي.

أدّت وفاة جدّي قبل أسبوعين إلى تمزيق غشاء جهلي. قبل وفاته، أرسل إليّ باتريس فيرنوي ظرفًا كبيرًا تضمّن رسالة شرح فيها أنّه مقتنع تمامًا بأنّك المُرتكب الحقيقي لعمليات القتل التي وقعت

تلك الليلة. أخبرني بغضبه من السرطان الذي سيقضي عليه، ويمنعه من المجيء لقتلك بنفسه. احتوى الظرف أيضًا على ذاكرة فلاشية تحوي مقطعي الفيديو لاستجواب شابوي وعمراني، إضافة إلى الصور كافّة التي كانت في الكاميرا المفقودة قبالة ساحل هاواي. عندما اكتشفت صوري هناك في تلك الليلة الشهيرة، تحرّر ذهني وطفت الذكريات بقوّة مياه ينبوع متدفّقة. عادت إلى ذاكرتي لمحات عنيفة حملت معها الذنب والغضب والعار. اجتاحت هذه المشاعر كياني وشعرت بأنّها لن تتوقّف أبدًا. كسدّ من الخرسانة المسلّحة انفجر فجأة فأغرقت مياهه الوادي.

لقد فقدت السيطرة كلّيًا: أردت أن أصرخ، وأختفي، أعدت النظر في كلّ التفاصيل كما لو أنّني عدت إلى الماضي. لم يكن تحرّرًا على الإطلاق. كان شيئًا مُخيفًا. انفجارٌ ذهنيٌّ مُزعج أغرقني مرّة أخرى في حالة من الرعب. كانت الصور والأصوات والروائح التي انهالت عليّ دقيقة وقاسية إلى درجة أنّني شعرت بأنّني أعيش المشهد نفسه مُضاعفًا عشر مرّات: دويّ الطلقات النارية المُصِمّة للآذان، قطرات الدم، الصراخ، أجزاء الدماغ المتناثرة على الجدران، والشعور بالرعب الذي انتابني لدى رؤية تيو وهو يهوي أمامي. ما الجرم الذي ارتكبته لأستحقّ عيش هذا الجحيم مرّتين؟

.3

بلّل رشق من البول آنج أغوستيني. بقي الشرطي البلدي متماسكًا وأنهى تبديل حفّاظ ابنته ليفيا. كان على وشك العودة إلى الفراش حين رنّ هاتفه الخلوي. كان جاك بارتوليتي، صيدلي الجزيرة، وهو يتّصل به ليخبره بحادث شهد وقوعه. في الصباح الباكر، استغلّ بارتوليني انتهاء الحصار وأبحر بقاربه ليتصيّد السمك. لكنّ الأمطار

والرياح دفعته إلى العودة في وقت أبكر ممّا كان متوقّعًا. وهو يتجاوز رأس سافرانييه، رأى سيّارة تخرج عن المسار وتتحطّم على الجرف. بارتوليتي، الذي أصيب بالذعر، بلّغ على الفور خفر السواحل. وجاء الآن ليستمع إلى الأخبار.

أجابه آنج بأنّه لم يكن على علم بذلك. بعد أن أنهى المكالمة، وبينما كانت ليفيا تتقيّأ قليلًا من الحليب على قميصه الذي باتت تفوح منه رائحة البول، أجرى مكالمة ليتأكد أنّ فريق الإنقاذ البرّي قد تبلّغ هذه المعلومات، لكن لم يُجِب أحد على الهاتف في مركز رجال الإطفاء، ولا حتى على خلوي المقدّم بنحسي، المسؤول عن الجزيرة. انتاب آنج القلق، فقرّر الذهاب إلى هناك بنفسه. لكنّ الظروف لم تكن مثالية. كان دوره هذا الأسبوع في الاهتمام بالطفلين، وكانت الغيوم قد بدأت تتلبّد في السماء: أوّلًا، كان ابنه لوكا مصابًا بالتهاب اللوزتين وكان قابعًا في سريره؛ ثمّ كان الطقس سيّئًا ما جعل الطرقات خطيرة.

يا لها من مشقّة... ذهب آنج لإيقاظ لوكا برفق وساعده في ارتداء ملابس دافئة. حمل ابنته وابنه بين ذراعيه، هذان الطفلان يزنان طنًّا... وخرج من المنزل من الباب المؤدّي إلى المرأب. وضع لوكا في المقعد الخلفي للمركبة الثلاثية العجلات، وأنزل السقف، ثمّ ثبّت كرسيّ ليفيا بواسطة الحزام على مقعد الراكب. لم يكن رأس سافرانييه سوى على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من منزله، وهو كناية عن فيلّا بروفنسالية بناها على الأرض التي ورثها من والديه، لكنّ بولين، زوجته السابقة، وجدتها «صغيرة»، «لا تدخلها أشعّة الشمس»، «مُحاطة من كلّ الجهات ومظلمة».

– سنسير برويّة يا طفليّ.

في المرآة، رأى آنج ابنه الذي رفع له إبهامه مؤيّدًا. صعدت المركبة بصعوبة الدرب المتعرّج المؤدّي إلى الطريق العامّ. جعل

المطر المسار شديد الانزلاق، وكانت المركبة تواجه صعوبة في التقدّم في الأماكن الأكثر انحدارًا. انكمشت معدة آنج حين فكّر في المخاطر التي يُعرّض طفليه لها. تنفّس الصعداء ما إن بلغ الطريق السريع. ولكن لم تُستبعد المخاطر كلّها. فقد ضربت الجزيرة عاصفة بقوّة نادرة. لطالما كان آنج متخوّفًا من أيّام العواصف. فكانت جزيرته، المضياف للغاية بشكل عامّ، تظهر بصورة غير مستقرّة ومهدّدة، كالوجه المظلم الذي يُخفيه كلّ شخص داخله.

كانت المركبة الثلاثية العجلات تترنّح، وحبّات المطر تُطقطق على النوافذ. راحت الطفلة تصرخ، أمّا لوكا في الخلف فلم يكن مطمئنًّا. كانوا قد اجتازوا شاطئ آنس دارجان حين اعترض طريقهم عند المنعطف غصن صنوبر ضخم كسرته العاصفة. ركن آنج مركبته إلى جنب الطريق وأومأ لابنه لينضمّ إلى أخته في المقصورة الأمامية فيما يقوم هو بفتح الطريق.

ترجّل الشرطي من المركبة تحت المطر ودفع بجهد كبير الغصن والحطام اللذين كانا يعيقان المرور. كان على وشك الصعود إلى عربته عندما رأى فريق الإطفاء على بعد 50 مترًا، قُبيل تقاطع درب علماء النبات. أوقف المركبة بجانب الشاحنة، وطلب من لوكا أن يُلازم مكانه وهرع لينضمّ إلى رجال الإطفاء. لقد كان مبلّلًا، وفي حالة يُرثى لها نوعًا ما، فقد قطرت المياه داخل ياقة قميصه البولو وتدحرجت على ظهره. في الأسفل، رأى حطام سيّارة من دون أن يتمكّن من التعرف إليها.

برزت من وسط الضباب قامة نجيب بنحسي الطويلة – المقدّم الذي كان يتولّى قيادة رجال إطفاء بومون.

– مرحبا آنج.

تصافح الرجلان.

– إنّها سيّارة المكتبيّ، قال بنحسي مستبقًا السؤال.

– غريغوار أوديبير؟

أومأ رجل الإطفاء برأسه إيجابًا، ثمّ وضّح قائلًا:

– لم يكن بمفرده. كان الموظّف الشابّ الذي يعمل لديه معه في السيّارة.

– رافاييل؟

– رافاييل باتاي، صحيح، أجاب بنحسي، وهو يراجع ملاحظاته.

ساد الصمت بضع لحظات، ثمّ أضاف مشيرًا إلى فريقه:

– يُعمَل حاليًّا على انتشالهما. لقد توفّي الاثنان.

الشابّ المسكين!

تأثّر آنج جدًّا، وقد أخذه على حين غرّة ظهور شبح الموت مجدّدًا في الجزيرة في الوقت الذي بدأ رفع خناق الحصار. تشابكت نظراته بنظرات رجل الإطفاء وشعر بالقلق البادي على وجهه.

– بماذا تفكّر يا نجيب؟

بعد صمت، أعرب المقدّم عن حيرته:

– هناك أمر غريب جدًّا. كانت يدا الشابّ وقدماه مقيّدة.

– بماذا قُيّدت؟

– بحبال مطّاطية. كانت مكبّلة بحبال مطّاطية.

4.

هبّت عاصفة هوجاء في الخارج. كانت ماتيلد قد أنهت قصّتها منذ دقيقة تقريبًا. تملّكها الصمت فيما راحت تُهدّد فاولز مجدّدًا، مصوّبة نحوه البومب أكشن. كان الروائي قد نهض من مكانه. وقف جامدًا أمام الواجهة الزجاجية، واضعًا يديه خلف ظهره، متأمّلًا أشجار

الصنوبر وهي تنحني كأنّها تتلوّى من الألم تحت المطر. بعد برهة بدت طويلة، استدار بهدوء شديد نحو الشابّة وسألها:

– إن كنت قد فهمت جيّدًا، فأنت أيضًا تعتقدين أنّني أنا قتلت والديك؟

– تعرّفت إليك أبولين بشكل مؤكّد في المرأب. وأنا، حين كنت مختبئة تحت سريري، رأيت حذاءك بوضوح. لذا نعم، أعتقد أنّك قاتل.

فكّر فاولز في الحجّة من دون أن يُحاول دحضها. بعد التفكير قليلًا، تساءل:

– ولكن ما دافعي؟

– دافعك؟ كنت عشيق والدتي.

لم يستطع الروائي إخفاء دهشته.

– هذه سخافة. لم أقابل والدتك قطّ!

– لكنّك كتبت لها رسائل. رسائل استرددتها في الواقع مؤخّرًا.

بسبطانة البندقية أشارت ماتيلد إلى الرسائل التي ربطها فاولز بشريط ووضعها على الطاولة. شنّ الروائي هجومًا مضادًّا:

– كيف أصبحت هذه الرسائل في حوزتك؟

غاصت ماتيلد مُجدّدًا في الماضي. عادت إلى الليلة نفسها، وسلسلة الأحداث نفسها التي غيّرت مصير أشخاص كثيرين في غضون ساعات قليلة.

– ليل 11 يونيو 2000، قبل عشاء عيد الميلاد، بدّلت ملابسي لأرتدي زيًّا يليق بالمناسبة. كنت قد وجدت فستانًا صيفيًّا جميلًا في خزانة ملابسي، لكن لم يكن لديّ حذاء مناسب. كما كنت أفعل أحيانًا، ذهبت أفتّش في غرفة ملابس أمّي. كان لديها أكثر من مئة زوج مختلف من الأحذية. وهناك، في علبة من الكرتون عثرت على

هذه الرسائل. عندما قرأتها بسرعة، خالجتني مشاعر متضاربة. أوّلًا، شعرت بصدمة لاكتشافي أنّ لدى والدتي عشيقًا، ومن ثمّ، رغمًا عنّي تقريبًا، انتابتني الغيرة لأنّ رجلًا كتب لها نصوصًا تنبض بالشاعرية والشغف إلى هذه الدرجة.

– واحتفظت بالرسائل طوال عشرين سنة؟

– لأقرأها براحتي، أخذتها إلى غرفتي وأخفيتها في حقيبتي، وقطعت وعدًا على نفسي بأن أقرأها عندما أصبح وحدي في المنزل، ومن ثمّ أعيدها إلى مكانها. ولكن لم تُتح لي الفرصة. بعد وقوع المأساة، فقدت أثرها وذكراها. لا بدّ أنّ جدّي لأبي، الذي سكنت معه بعد المجزرة، قد أخفاها في مكان ما، كما فعل بعدد من الأشياء التي يمكن أن تعيدني بالذاكرة إلى تلك الأمسية. لكنّ باتريس فيرنوي لم ينسها، وربطها بك بعد المعلومات التي باحت بها أبولين. أرسلها إليّ مع الذاكرة الفلاشية. ليس هناك أدنى شكّ: إنّه خطّك وهي موقّعة باسمك.

– نعم، أنا كتبتها ولكن ما الذي يجعلك تظنّين أنّها كانت موجّهة إلى والدتك؟

– كانت موجهة إلى «ص». كان اسم أمّي صوفيا وكانت في غرفتها. إنّها مجموعة مذهلة من الأدلّة المتقاربة، أليس كذلك؟

لم يُجب فاولز. عوضًا عن ذلك، حرّك بيدقًا آخر:

– لماذا أتيتِ إلى هنا بالضبط؟ لقتلي؟

– ليس على الفور. أوّلًا، أودّ أن أقدّم لك هديّة.

بحثت في جيبها وأخرجت شيئًا دائريًّا وضعته على الطاولة. اعتقد فاولز في البداية أنّها بكرة شريط لاصق أسود قبل أن يدرك أنّها أسطوانة حبر للآلة الكاتبة.

توجّهت ماتيلد إلى الرفّ وحملت الآلة الكاتبة ماركة أوليفيتّي ووضعتها على الطاولة.

– أريد اعترافًا كاملًا يا فاولز.

– اعترافًا؟

– قبل أن أقتلك، أريد دليلًا مكتوبًا.

– دليلًا مكتوبًا عن ماذا؟

– أريد أن يعرف الجميع ما فعلته. أريد أن يعرف الجميع أنّ ناثان فاولز العظيم هو قاتل. لن تتذكّرك الأجيال المقبلة وأنت متربّع على العرش، صدّقني!

نظر إلى الآلة الكاتبة برهة، ثمّ رفع عينيه ونظر إليها مدافعًا عن نفسه:

– حتى وإن كنت قاتلًا، لا يمكنك أن تفعلي شيئًا ضدّ كتبي.

– نعم، أعلم ذلك، من الرائج حاليًا الرغبة في فصل الإنسان عن الفنّان: فقد ارتكب فلان الفظائع، ولكن يبقى فنّانًا رائعًا. أعتذر، ولكنّ بالنسبة إليّ، لا تسير الأمور على هذا النحو.

– إنّه جدل واسع، ولكن إذا تمكّنت من قتل الفنّان، فلن تقتلي أبدًا العمل الفنّي.

– اعتقدت أنّ كتبك مبالغ في تقديرها.

– المشكلة لا تكمن هنا. وأنت تعرفين في أعماقك أنّني مُحقّ.

– في أعماقي، أودّ أن أرديك بطلقتين يا ناثان فاولز.

بحركة مفاجئة، وجّهت له ضربة عنيفة بعقب البندقية أصابت كليته لإرغامه على الجلوس.

انهار فاولز على الكرسيّ، كازًّا على أسنانه.

– هل تظنّين أنّه من السهل قتل شخص ما؟ أنت... أنت تظنّين أنّ مجموعة الأدلّة المتقاربة التي تملكينها تمنحك الحقّ في قتلي؟ فقط لأنّك تستمتعين بذلك؟

– لا، يحقّ لك الدفاع عن نفسك، هذا صحيح. لهذا السبب أمنحك فرصة أن تكون محاميك الخاصّ. هذا ما كنت تحبّ تكراره في مقابلاتك: «منذ مرحلة المراهقة، كان سلاحي الوحيد قلمي البيك القديم ودفتر ملاحظات مزوّدًا بأوراق مقسّمة إلى مربّعات». حسنًا، إليك ما سيحصل: للدفاع عن نفسك، لديك آلة كاتبة، وماعون من الورق، ونصف ساعة.

– ماذا تريدين بالضبط؟

غاضبة، ثبّتت ماتيلد سبطانة البندقية على صدغ الروائي.

– الحقيقة! صرخت.

تحدّاها فاولز قائلًا:

– هل تظنّين أنّ الحقيقة ستسمح لك بطيّ صفحة الماضي والتحرّر من معاناتك وفتح صفحة جديدة؟ آسف، ولكن هذا وهم.

– دعني أنا وحدي أحكم على ذلك.

– لكنّ الحقيقة غير موجودة يا ماتيلد! أو بالأحرى بلى الحقيقة موجودة، لكنّها متحرّكة وحيّة دائمًا أبدًا ومتغيّرة دائمًا أبدًا.

– لقد سئمت سفسطائيّتك يا فاولز.

– سواء أعجبك ذلك أم لا، فإنّ الإنسانية ليست بهذه البساطة. نحن جميعًا في منطقة رمادية غير واضحة المعالم وغير مستقرّة حيث يمكن دائمًا الإنسان الأفضل أن يفعل الأسوأ. لماذا تودّين أن تُسبّبي لنفسك المعاناة؟ حقيقة لا يمكنك تحمّلها. فأنت تضعين رذاذًا حمضيًّا على جرح لم يلتئم بعد.

– لست بحاجة إلى الحماية. في أيّ حال، ليس منك أنت! قالت له.

ثمّ أشارت إلى الآلة الكاتبة.

– باشر بالكتابة. حالًا! أخبرني بجانبك من القصّة: الحقائق كما هي، الحقائق فقط. من دون أسلوب، ولا شعر، ولا استطرادات، ولا مبالغة. سآخذ ما ستكتب بعد نصف ساعة.

– لا، أنا...

لكنّ ضربة ثانية بعقب البندقية جعلته يستسلم. جفل وتلوّى إثر الصدمة، ثمّ أدخل الأسطوانة ببطء في الآلة.

في النهاية، إن كان سيموت اليوم، فمن الأفضل أن يكون جالسًا خلف آلة كاتبة. هذا هو المكان الذي ينتمي إليه. حيث لطالما شعر بأدنى مستويات السوء. أن يخلّص نفسه من خلال صفّ الكلمات بلوحة مفاتيح: كان ذلك تحدّيًا يمكنه رفعه.

ليستجمع أفكاره، استغلّ أوّل فكرة تبادرت إلى ذهنه. جملة لجورج سيمنون، أحد معلّميه، بدت له ملائمة لهذه الحالة.

«كم تختلف الحياة عندما نعيشها ونتأمّل تفاصيلها بعد فوات الأوان.»

بعد عشرين عامًا، أصيب بقشعريرة لدى قلقلة المفاتيح تحت أصابعه. اشتاق لذلك، طبعًا، لكنّ هذا الغياب عن لوحة المفاتيح لم يكن ذنبه. أحيانًا تبقى الإرادة عاجزة إن لم يكن هناك سلاح مصوّب نحو صدغك. فكتب:

«التقيت بصويزيك لو غاريك في ربيع العام 1996 خلال رحلة بين نيويورك وباريس. كانت جالسة في جواري بالقرب من النافذة غارقة في قراءة إحدى رواياتي.»

ها قد انطلقنا... تردّد بضع ثوانٍ أخرى، وألقى نظرة سريعة أخيرة على ماتيلد كأنّه أراد أن يقول لها: لم يفت الأوان بعد لإيقاف كلّ شيء، لم يفت الأوان بعد لعدم نزع فتيل القنبلة اليدوية التي ستنفجر في وجهينا وتقتلنا نحن الاثنين.

لكنّ نظرة ماتيلد حملت إجابة واحدة فقط: ارمِ قنبلتك اليدوية يا فاولز. ارمِ رذاذك الحمضي...



13

ملكة جمال سراييفو

كم تختلف الحياة عندما نعيشها ونتأمّل
تفاصيلها بعد فوات الأوان.

جورج سيمنون

التقيت بصويزيك لو غاريك في ربيع العام 1996 على متن رحلة بين نيويورك وباريس. كانت جالسة في جواري بالقرب من النافذة غارقة في قراءة إحدى رواياتي. كانت أحدث رواياتي، «بلدة أميركية صغيرة»، اشترتها في المطار. من دون أن أعرّف بنفسي، سألتها عمّا إذا كانت أحبّت الرواية – كانت قد قرأت حوالى مئة صفحة منها. هناك، وسط السحاب، أجابت بهدوء أنّها لم تعجبها قطّ، وأنّها لا تفهم ولع الناس بهذا الروائي. ذكّرتها بأن ناثان فاولز حاز توًّا جائزة بوليتزر، لكنّها أكدّت لي أنّها لا تعترف أبدًا بالتقدير الذي تمنحه الجوائز الأدبية، وأنّ الإشارة إليها على شكل وسام نصر على غلاف الكتب ليست سوى حيل لخداع السذّج. اقتبستُ كلامًا لبيرغسون لأثير إعجابها («نحن لا نرى الأشياء كما هي؛ نحن نكتفي فقط في

معظم الأحيان بقراءة الملصقات الموضوعة عليها»)، لكنّ المقولة لم تُثر إعجابها.

بعد حين، لم أستطع تمالك نفسي أكثر، فكشفت لها أنّني ناثان فاولز، لكن لم يَبدُ أنّها تأثّرت أيضًا. على الرغم من هذه البداية الصعبة بيننا، لم نتوقّف عن الدردشة خلال الساعات الستّ التي استغرقتها الرحلة. أو بالأحرى، أنا من خلال أسئلتي لم أتوقّف عن تشتيت انتباهها عن القراءة.

كانت صويزيك طبيبة شابّة في الثلاثين من عمرها. وكنتُ أنا في الثانية والثلاثين. أخبرتني بجزء من قصّتها بشكل متقطّع. في العام 1992، فور إنهاء دراستها، قصدت البوسنة لتوافي حبيبها في تلك الفترة، الذي كان مصوّرًا في قناة «أنتين 2». كانت تلك بداية ما سيصبح في ما بعد أطول حصار في الحرب الحديثة: قصّة حصاد الجماجم في سراييفو وسط صمت العالم المطبق. بعد بضعة أسابيع، عاد الشابّ إلى فرنسا أو ذهب لتغطية نزاعات أخرى. بقيت صويزيك هناك. وقد تقرّبت من المنظّمات الإنسانية الموجودة على الأرض. مدّة أربع سنوات، عاشت محنة السكّان الثلاثمئة والخمسين ألفًا، وكرّست مهاراتها لخدمة المدينة المحاصرة.

لن أتمكّن من إعطائك محاضرة عن الموضوع، ولكن إن كنت تريدين أن تفهمي هذه الرواية، وقصّتي، وبالتالي قصّة عائلتك، فعليك أن تتعمّقي في واقع تلك الحقبة: واقع تفكّك يوغوسلافيا في السنوات التي تلت سقوط جدار برلين وتفكّك الاتّحاد السوفياتي. منذ فترة ما بعد الحرب، أُعيدَ توحيد مملكة يوغوسلافيا السابقة من المارشال تيتو من خلال إنشاء اتّحاد شيوعي مؤلّف من ستّ دول من البلقان: سلوفينيا، وكرواتيا، والجبل الأسود، والبوسنة، ومقدونيا، وصربيا. مع انهيار الشيوعية، شهدت البلقان تصاعدًا في النعرات

القومية. في سياق التوتّرات المتزايدة، أعاد الرجل القوي في البلاد، سلوبودان ميلوسيفيتش، إحياء فكرة صربيا الكبرى التي ستعيد جمع الأقليات الصربية كافّة ضمن الإقليم نفسه. أعلنت على التوالي كلّ من سلوفينيا، وكرواتيا، والبوسنة، ومقدونيا استقلالها، ما أثار سلسلة من الصراعات العنيفة والمميتة. في ظلّ التطهير العرقي وعجز الأمم المتّحدة، باتت حرب البوسنة مجزرة أودت بحياة أكثر من مئة ألف شخص.

عندما التقيت بها، كانت صويزيك تحمل ندبات محنة سراييفو على جسدها وفي ذهنها. أربع سنوات من الرعب، والقصف المتواصل، والجوع، والبرد. أربع سنوات من أزيز الرصاص، وعمليات جراحية أُجريت في بعض الأحيان من دون مُخدّر. كانت صويزيك من الأشخاص الذين عاشوا عذابات العالم في أحشائهم. كلّ هذا زعزع كيانها. فبؤس العالم عبء يمكن أن يسحقك إذا جعلت منه مسألة شخصية.

*

حطّت الطائرة حوالى الساعة 7 صباحًا في مطار رواسي وسط أجواء مكفهرّة كئيبة. ودّع بعضنا بعضًا، ووقفت في صفّ الركّاب المنتظرين سيّارات الأجرة. كان كلّ شيء مُحبطًا: احتمال عدم رؤيتها، والرطوبة الجليدية في ذلك الصباح، والغيوم القذرة والملوّثة التي لبّدت السماء وجعلتني أشعر بأنّها الأفق الوحيد في حياتي. لكنّ القوّة المُرجعة حثّتني على أن أتحرّك. هل تعرفين مفهوم كايروس اليوناني؟ إنّها اللحظة الحاسمة المناسبة التي يجب عدم تفويتها. في كلّ حياة، حتى الأشدّ قرفًا منها، تمنحك السماء في الأقلّ مرّة واحدة فرصة حقيقية لتغيير مصيرك. مفهوم كايروس هو القدرة على التمسّك

بخشبة الخلاص التي ترميها لك الحياة. لكنّ اللحظة عادةً ما تكون قصيرة للغاية. والحياة لا تمنح الفرص مرّتين. حسنًا، في ذلك الصباح، علمت أنّ شيئًا مهمًّا كان يحصل. خرجت من صفّ الانتظار وعدت أدراجي. بحثت عن صويزيك في أنحاء المطار كافّة، ووجدتها أخيرًا تنتظر الحافلة. أخبرتها بأنّني دُعِيت لتوقيع كتبي وإهدائها في مكتبة جزيرة متوسّطية. وبصراحة، عرضت عليها أن ترافقني. كما يحدث في بعض الأحيان، قد يُصيب الكايروس شخصين في الوقت نفسه، وافقت صويزيك من دون تردّد وغادرنا في اليوم نفسه إلى جزيرة بومون.

بقينا خمسة عشر يومًا في الجزيرة ووقعنا في غرامها فيما أُغرم بعضنا ببعض. كانت لحظة خارج الزمن. من تلك اللحظات التي تمنحك أحيانًا إيّاها الحياة، وما أوقحها، لتجعلك تعتقد أنّ السعادة موجودة. عقد من اللحظات المتألّقة كاللآلئ. في ضرب من الجنون، صرفت عشر سنوات من حقوق النشر لأبتاع منزل لا كروا دو سود. تصوّرتنا هناك نمضي أيّامًا سعيدة واعتقدت أنّني وجدت المكان المثالي لمشاهدة أطفالنا وهم يكبرون. رأيت نفسي وأنا أكتب رواياتي المستقبلية هناك أيضًا. كنت مخطئًا.

*

طوال السنتين التاليتين، عشنا حياة ثنائي في تناغم تامّ، وإن لم نكن معًا دائمًا. عندما كنّا معًا، كنّا نمضي أوقاتنا في بروتاني، مسقط رأس صويزيك وحيث كانت تسكن عائلتها، وفي عشّ حبّنا «لا كروا دو سود». زادني هذا الحبّ الجديد حماسةً، كنت قد بدأت كتابة رواية جديدة بعنوان «صيف لا يُقهر». كانت صويزيك تمضي الوقت المتبقّي في الميدان. وعادت إلى هذه الأرض العزيزة على قلبها، البلقان، حيث كانت تشارك في بعثات للصليب الأحمر.

لسوء الحظّ، لم ينته هذا الجزء من العالم من أهوال الحرب. فمنذ العام 1998، جاء دور كوسوفو لكي تشتعل. اعذريني مرّة أخرى لأنّني مرغم على أداء دور أستاذ التاريخ ولكنّها الطريقة الوحيدة لكي تفهمي ما حدث. إقليم كوسوفو هو إقليم مستقلّ في صربيا، يسكنه الألبان بشكل رئيسي. منذ أواخر الثمانينيّات، بدأ ميلوسيفيتش سلب المقاطعة استقلاليتها، ثمّ حاولت صربيا إعادة استعمار المنطقة عبر إنشاء المستوطنات فيها.

طُرد جزءٌ من سكّان كوسوفو خارج الحدود. نُظِّمَت المقاومة، أوّلًا بشكل سلمي من زعيمها إبراهيم روغوفا، الملقّب «غاندي البلقان»، المعروف برفضه للعنف، ثمّ بواسطة السلاح مع إنشاء جيش تحرير كوسوفو الشهير الذي تقع قاعدته الخلفية في ألبانيا، حيث استغلّ انهيار النظام لنهب مخزونه من الأسلحة.

خلال حرب كوسوفو تلك، قُتلت صويزيك في أواخر أيّام شهر ديسمبر 1998. وفقًا للتقرير الذي أرسلته وزارة الخارجية الفرنسية إلى والديها، وقعت في كمين وهي ترافق مصوّر حرب إنكليزيًّا كان يُعدّ تقريرًا على بعد ثلاثين كيلومترًا من بريشتينا. أُعيد جثمانها إلى فرنسا ودفنت في 31 ديسمبر في مقبرة سانت مارين الصغيرة في بروتاني.

*

حطّمتني وفاة المرأة التي أحببتها. طوال ستّة أشهر، عشت مسجونًا في منزلي، وسط سديم الكحول والأدوية. في يونيو 1999، أعلنت أنّني اعتزلت الكتابة لأنّني لم أعد أرغب في أن يتوقّع منّي أحد شيئًا.

استمرّ العالم في الدوران. في ربيع 1999، بعد مماطلة طويلة، قرّرت الأمم المتّحدة أخيرًا التصويت للتدخّل في كوسوفو، وجاء

هذا التدخّل عبر حملة قصف جوي. في مطلع فصل الصيف التالي، انسحبت القوّات الصربية من كوسوفو، التي أصبحت تحت الحماية الدولية بتفويض من الأمم المتّحدة. خلّفت الحرب خمسة عشر ألف ضحية وآلاف المفقودين. وكان الكثير منهم من المدنيين. وقد حدث كلّ ذلك على بُعد ساعتين بالطائرة من باريس.

*

مع حلول فصل الخريف، قرّرت الذهاب إلى البلقان. إلى سراييفو أوّلًا، ثمّ إلى كوسوفو. كنت أرغب في رؤية الأماكن التي كانت تعني لصويزيك، تلك التي عاشت فيها السنوات الأخيرة من حياتها. في المنطقة، لم يكن الجمر قد خمد بعد. قابلت كوسوفيين، وبوسنيين، وصربيين. شعوب تائهة، ومرتبكة، أمضت السنوات العشر الأخيرة وسط النيران والفوضى، وكافحت بصعوبة من أجل إعادة بناء نفسها. كنت أبحث عن ذكرى صويزيك، وجدت روحها حاضرة على ناصية شارع، وحديقة، ومستوصف. روح كانت ترعاني وترافق حزني. كان الأمر مُفجعًا، لكنّني شعرت بالارتياح.

رغمًا عنّي تقريبًا، وبحسب الأحاديث، جمعت المعلومات من الأشخاص الذين التقوا بصويزيك قُبيل وفاتها. أدّت خافيةٌ من هنا إلى سؤال من هناك، وهكذا دواليك. شيئًا فشيئًا، اتّخذت هذه التشعّبات شكل شبكة عنكبوت حوّلت درب حدادي الأساسي إلى تحقيق شامل في الظروف التي قُتلت فيها صويزيك. لم أذهب في مهمّة منذ زمن بعيد، لكنّني حافظت على ردود الفعل ومعرفة الميدان المُكتسبة أثناء عملي في المجال الإنساني. كان لديّ بعض المعارف، والأهمّ، كان لديّ الوقت.

تساءلت دائمًا عمّا كانت تفعله صويزيك مع مراسل صحيفة «غارديان» الشابّ عندما قُتلت. كان اسم الشابّ تيموثي ميركوريو. لم أصدّق قطّ أنّه قد يكون عشيقًا عابرًا. علمت لاحقًا أنّ ميركوريو كان مثليًّا بشكل علني. لكنّني لم أصدق قطّ أنّ الثنائي كان هنا مصادفة. أجادت صويزيك اللغة الصربية الكرواتية. لا بدّ أنّ الصحافي طلب منها مرافقته لمقابلة الناس. تناهت شائعة إلى مسامعي مرّات عدّة: كان ميركوريو يجري تحقيقًا حول منزل الشيطان، وهو مزرعة قديمة تقع في ألبانيا حُوِّلَت إلى مركز اعتقال استُخدم في الإتجار بالأعضاء.

لم يشكّل وجود مراكز الاعتقال الكوسوفية في ألبانيا سبقًا صحافيًّا حقيقيًّا. كانت ألبانيا القاعدة الخلفية لجيش تحرير كوسوفو، الذي أنشأ معتقلات هناك. لكنّ بيت الشيطان كان شيئًا آخر. ووفقًا لما تهامسه البعض، فقد كان مكانًا يُحضَر السجناء إليه، ومعظمهم من الصربيين، ولكن أيضًا من الألبانيين المتّهمين بالتعاون مع صربيا، لفرزهم وفقًا للمعايير الطبّية. بعد هذا الفرز المروّع، يُقتل البعض برصاصة في الرأس وتُستأصَل أعضاؤهم. قيل إنّ هذا الإتجار الشنيع كان يتولّاه رجال جماعة كولشيدرا، وهي مافيا غامضة تنشر الرعب على الأراضي.

*

لم أكن أعرف كيف أحلّل هذه الشائعات. في البداية، بدت لي جنونية، ولحظت أنّ هذه الفترة كانت مناسبة للمبالغات بأنواعها كافّة بهدف تشويه سمعة هذه الجماعة أو تلك. لكنّني قرّرت أن أعيد إجراء التحقيق الذي بدأه ميركوريو وصويزيك منذ البداية، مقتنعًا بأنّ أحدًا غيري لن ينجح في فعل ذلك. في تلك الحقبة، كانت تعدّ يوغوسلافيا سابقًا عشرات الآلاف من المفقودين. تلاشت الأدلّة

بسرعة، وكان الناس يخشون التكلّم. ومع ذلك، أردت أن أصل إلى عمق هذه القصّة، وكنت كلّما تحرّيت أكثر، بدا لي وجود بيت الشيطان أمرًا معقولًا أكثر.

من خلال أبحاثي المكثّفة، تمكّنت من تحديد شهود محتملين للإتجار هذا، لكنّهم لم يكونوا كثيري الكلام قطّ عندما أردت الخوض في التفاصيل. كان الكثير من الأشخاص الذين قابلتهم من الفلّاحين أو الحرفيين الصغار الذين روّعهم رجال كولشيدرا. لقد سبق وأخبرتك عن كولشيدرا، هل تتذكّرين؟ في الفلكلور الألباني، هو تنّين شرّير له قرون. وحش شيطاني أُنثى له تسعة ألسن وعينان فضّيتان وجسم طويل مشوّه مُغطى بالأشواك ومُثقل بجناحين عملاقين. في المعتقدات الشعبية، يطالب كولشيدرا بالمزيد والمزيد من التضحيات البشرية، وإلّا ينفث لهبه ويُغرق البلاد في بحر من النيران والدماء.

ذات يوم، أتى إصراري بثماره: وجدت سائقًا ساهم في نقل السجناء إلى ألبانيا. وبعد مفاوضات لا نهاية لها، وافق على أن يقودني إلى بيت الشيطان. كان هيكلًا لمزرعة قديمة معزولة في وسط الغابة تكاد تكون مهدّمة. مشّطت المكان بشكل مكثّف ودقيق من دون العثور على أشياء حاسمة تُذكر. من الصعب التصديق أنّ العمليات الطبّية أُجريت هنا. كانت أقرب قرية تقع على بعد عشرة كيلومترات. كان السكّان المحلّيون عدائيين. كنت كلّما تطرّقت إلى الموضوع، شلّ الألسن الخوف من انتقام رجال كولشيدرا. كي يتجنّبوا التحدّث معي، كانوا يدّعون جميعهم أنّهم لا يجيدون تركيب جملة من ثلاث كلمات باللغة الإنكليزية.

قرّرت البقاء هناك أيّامًا عدّة. في النهاية، كرّرت زوجة مسؤول عن إصلاح الطرقات، كانت قد تأثرت بقصّتي وأشفقت عليّ، ما قاله

لها زوجها. كان بيت الشيطان مجرّد مكان عبور. هو نوع من محطّة فرز يخضع فيها السجناء لمجموعة كاملة من الفحوصات الطبّية وتحاليل الدم. ثمّ يُنقَل المتبرّعون قسرًا بالأعضاء المتطابقة إلى عيادة فينيكس، وهي مؤسّسة سرّية صغيرة في ضواحي إستوك.

*

بفضل التوجيهات التي أعطتها لي، تمكّنت في نهاية المطاف من العثور على موقع عيادة فينيكس. في كوسوفو في شتاء 1999، كانت كناية عن مبنى مهجور ومُتداعٍ نهب اللصوص معدّاته. كان هناك سريران أو ثلاثة أسرّة صدئة متبقّية، وأجهزة طبّية مُعطّلة، وسلل نفايات مليئة بأكياس بلاستيكية، وعلب أدوية فارغة. كانت النقطة الأكثر حسمًا لقائي مع أحد المشرّدين الذي كان يحتلّ المكان. قال وهو تحت تأثير المُخدّرات حتى النخاع إنّ اسمه كارستن كاتز. كان طبيب تخدير نمسويًّا عمل في العيادة حين كانت مفتوحة. اكتشفت لاحقًا أنّه كان يُعرف أيضًا باسمين غير مشرّفين: بائع النوم والصيدلي المُناوب.

سألته عن العيادة، لكنّ الرجل لم يكن في أفضل حالاته. كان يتلوّى من الألم وهو يتصبّب عرقًا، ونظراته أثقلتها الهلوسة. كان كاتز مُدمنَ مورفين، وكان مستعدًّا لفعل أيّ شيء كي يحصل على جرعته. وعدته بالعودة لاحقًا مع قدر محترم من المورفين. ذهبت إلى بريشتينا حيث أمضيت ما تبقّى من اليوم وأنا أبحث عن الموادّ القلويدية. كان لديّ ما يكفي من الدولارات لتُفتح أمامي الأبواب الصحيحة فأخذت كلّ المورفين الذي أمكنني العثور عليه.

كان الظلام قد حلّ منذ وقت عندما عُدت إلى العيادة. بدا كارستن كاتز مخيفًا كالأحياء الأموات. كان قد حوّل أحد مجاري الهواء إلى موقد وأشعل نارًا غذّاها بألواح الخشب. عندما رأى المورفين،

انقضّ عليّ كالمجنون. أعطيته الحقنتين بنفسي وانتظرته وقتًا طويلًا ليستعيد ما يُشبه الهدوء. ثمّ بدأ طبيب التخدير بالاعتراف وأخبرني بكلّ شيء.

أكّد لي أولًا وظيفة الفرز في بيت الشيطان. ثمّ نقل بعض السجناء إلى عيادة فينيكس. هناك كانوا يُعدمون بطلقة في الرأس قبل نزع أعضائهم، الكلى أوّلًا، لزرعها. ليس من المستغرب أن المتلقّين كانوا من المرضى الأجانب الأغنياء الذين يمكنهم دفع ما بين 50 و100 ألف يورو مقابل كلّ عملية. «كانت الأعمال تسير بشكل منتظم»، تابع كارستن كاتز. ادّعى طبيب التخدير أنّه حدّد هويّة رجال كولشيدرا، وهم مجموعة صغيرة يتولّى قيادتها ثلاثي شرّير. قائد عسكري من كوسوفو، ورجل مافيا ألباني وجرّاح فرنسي: ألكسندر فيرنوي. إن كان الرجلان اللذان ذكرتهما أوّلًا يعتقلان السجناء وينقلانهم، فإنّ والدك، ماتيلد، هو الذي أشرف على الشقّ «الطبّي» من العملية بأكمله. إضافة إلى كاتز، وظّف والدك فريقًا من الأطبّاء: جرّاح تركي، وآخر روماني، ورئيس ممرّضين يوناني. أشخاص بارعون في مجالهم على الصعيد الطبّي، لكن لم يكن موقفهم واضحًا جدًّا بالنسبة إلى قسَم إبقراط.

وفقًا لكاتز، أُجريت حوالى 50 عملية جراحية همجية في عيادة فينيكس. في بعض الأحيان، لم تُزرع الكلى في المكان عينه، ولكن شُحِنَت جوًّا إلى عيادات أجنبية. انتزعت أقصى حدّ من المعلومات من النمسوي، ووعدته بأن أُحضر له جرعات أخرى من المورفين. كان بائع النوم قاطعًا: كان ألكسندر فيرنوي العقل المدبّر الحقيقي للعملية، هو الذي تصوّر الإتجار وقاد العملية. أمّا الجزء الأسوأ فهو أنّ كوسوفو لم تكن مُحاولة يتيمة قام بها والدك، بل هي استئناف لعمليات اتجار راسخة ومنتظمة سبق أن أنشأها في مكان آخر،

أينما حلّ ضمن بعثاته الإنسانية. بفضل شبكة معارفه ومركزه، تمكّن فيرنوي من الوصول إلى قواعد بيانات في الكثير من البلدان للتواصل مع المرضى المصابين بحالات حرجة، وعلى استعداد لإنفاق أموال طائلة للاستحصال على عضو جديد. كانت كلّ المبالغ المطلوبة تُدفَع نقدًا بالطبع أو عبر حسابات مصرفية خارجية.

أخرجتُ جرعتين جديدتين من المورفين من جيب معطفي. نظر الطبيب إليهما بجنون.

– أريدك الآن أن تخبرني عن تيموثي ميركوريو.

– الشابّ الذي يعمل في صحيفة «غارديان»؟ تذكّر كاتز. لقد ظلّ يلاحقنا أسابيع عدّة. تعقّب السلسلة بفضل أحد المخبرين: ممرّض من كوسوفو عمل معنا في بداية العملية.

لفّ النمسوي سيجارة وراح يدخّنها كأنّ حياته كانت تعتمد عليها.

– خوّف رجال كولشيدرا ميركوريو مرّات عدّة لثنيه عن مواصلة التحقيق، لكنّ الصحافي أراد أداء دور البطل. ذات ليلة أمسك به الحرّاس هنا مع كاميرته. كان تصرّفًا متهوّرًا جدًّا منه.

– هل كان وحده.

– لا، جاء مع شقراء كانت مساعدته أو مترجمته على الأرجح.

– هل قتلتموهما؟

– تولّى فيرنوي تصفيتهما بنفسه. لم يكن هناك مخرج آخر.

– ماذا عن الجثّتين؟

– نُقِلَتا إلى منطقة بالقرب من بريشتينا ليبدو أنّ الشابّ والفتاة تعرّضا لكمين. إنّه أمر محزن، لكن لن أذرف الدموع عليهما. كان ميركوريو يدرك جيّدًا خطورة مُجازفته بمجيئه إلى هنا.

*

لقد أردت الحقيقة يا ماتيلد، حسنًا، هذه هي الحقيقة: لم يكن والدك الطبيب المُذهل والسخي كما كان يدّعي. كان مجرمًا وقاتلًا. وحش بغيض خلّف عشرات القتلى عبئًا وأثقل ضميره بهم... وهو الذي قتل بيده المرأة الوحيدة التي أحبتها على الإطلاق.

*

عندما عدت إلى فرنسا، كنت عازمًا على قتل ألكسندر فيرنوي. لكنّني أمضيت بعض الوقت في إعادة تدوين وتوثيق كلّ الشهادات التي جمعتها في البلقان. لقد ظهّرت وصنّفت الصور التي التقطتها كافّة، وحرّرت اللقطات التي صوّرتها وأجريت أبحاثًا مطوّلة عن مواقع العمليات الأخرى التي عمل فيها والدك، لتشكّل ملفّ الدعوى الأكثر تفصيلًا. لم أودّ فقط أن يموت فيرنوي، بل أردت أيضًا أن أكشف الوحش الذي كان يمثّله. وهو بالضبط ما اعتقدتِ أنّك تفعلينه معي، باختصار.

بعد أن أنهيت إعداد قرار الاتّهام، وحين دقّت ساعة العمل، بدأت ألاحقه، وأتعقّب جميع تنقّلاته تقريبًا. كنت ما زلت أجهل بالضبط ما عليّ فعله. أردت أن يستمرّ عذابه فترة طويلة، أن يشرب الكأس حتى الثمالة. ولكن كان كلّما مرّ الوقت، بات الأمر أكثر وضوحًا: كان انتقامي عذبًا للغاية. من خلال قتلي فيرنوي، كنت أجازف بتحويله إلى ضحية، ووضع حدّ سريع للعذاب الذي أردت أن يعيشه.

في 11 يونيو 2000، توجّهت إلى مطعم دوم، في شارع مونبارناس، وهو المطعم الذي اعتاد والدك أن يقصده. تركت لرئيس النادلين نسخة من ملفّ الاتّهام، وطلبت منه أن يسلّمه إلى فيرنوي. اختفيت قبل أن يلمحني. كنت مُصمّمًا على تسليم المعلومات التي

اكتشفتها والأدلّة التي جمعتها إلى العدالة ووسائل الإعلام في اليوم التالي. ولكن قبل ذلك، أردت أن يرتعب فيرنوي وأن يتأكّله الخوف. أردت أن أمنحه تلك الساعات القليلة سلفًا كي يكون لديه الوقت ليتخيّل الخناق وهو يضيق عليه ويطحن عظامه ببطء. بضع ساعات مؤلمة من اليقظة يجتاحه خلالها القلق وهو يتخيّل التسونامي الذي هو على وشك أن يضربه، مدمّرًا حياته، وحياة زوجته، وأولاده، ووالديه. فيقضي عليه.

في هذه الأثناء، عدت إلى المنزل، منهكًا، وشعرت بأنّ صويزيك تموت مرّة ثانية.

*

– زيدان رئيسًا! زيدان رئيسًا!

قُبيل الساعة 11 مساءً، استيقظت مضطربًا والعرق يتصبّب منّي على أصوات مشجّعي كرة القدم الذين يحتفلون بفوز المنتخب الفرنسي. أمضيت فترة بعد الظهر وأنا أشرب وذهني مشوّش. ولكنّ هناك فكرة قضّت مضجعي. كيف سيكون ردّ فعل كائن شيطاني مثل فيرنوي؟ كانت الفرص ضئيلة بأن يبقى مكتوف الأيدي. لقد تصرّفت من دون تفكير في تداعيات أفعالي. من دون تفكير بالتحديد في زوجته وطفليه.

شعرت بنذير شؤم فخرجت من بيتي مسرعًا. ركبت سيّارتي المركونة في موقف سيّارات مونتالامبير وعبرت نهر السين إلى حديقة رانلاغ. حين وصلت إلى جادّة بوسيجور، أمام المبنى الذي سكن فيه والداك، أدركت على الفور أنّ هناك أمرًا غير طبيعي. كانت بوّابة المرأب تحت الأرض الكهربائية مفتوحة. عبرت البوّابة وأوقفت سيّارتي البورش فيه.

ثمّ تسارعت الأحداث كلّها. وأنا أطلب المصعد سمعت دويّ طلقتين ناريتين في الطوابق. توجّهت بسرعة نحو السلالم وصعدت الدرجات إلى الطابق الثاني. كان الباب نصف مفتوح. عندما دخلت الشقّة، صادفت والدك مسلّحًا يحمل بندقية بومب أكشن. كانت أرضيّة الردهة والجدران مخطّطة برذاذ قرمزي. رأيت جثّة والدتك وجثة أخيك في نهاية الرواق. وكنتِ أنت التالية. كآخرين قبله، كان والدك ضحية جنون القتل: كان يقضي على أسرته قبل أن يقتل نفسه. انقضضت عليه محاولًا نزع سلاحه. تعاركنا على الأرض وانطلقت رصاصة من البندقية فجّرت جمجمته.

وهكذا، من دون أن أدري، أنقذت حياتك.



14

ناجيان من العدم

الجحيم فارغ، كلّ الشياطين هنا.

وليم شكسبير

.1

أضاء الغرفة وميض البرق المتتالي، وسرعان ما تلته دمدمة الرعد. جلست ماتيلد إلى طاولة الصالون، وكانت تُنهي قراءة اعترافات ناثان فاولز. وفيما كانت مسترسلة في القراءة، بدا لها مرّات عدّة أنّها عاجزة عن التنفّس، كما لو أنّ الأكسجين أصبح نادرًا في الغرفة وأنّها كانت معرّضة لخطر الإصابة بسكتة قلبية.

لدعم أقواله، لم يكتفِ فاولز بسرد قصّته. فقد أخرج من الخزانة الأدلّة التي أسفر عنها تحقيقه، وهي كناية عن ثلاثة ملفّات كرتون كبيرة كان قد أرفقها بحزمة أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة.

كان أمام عيني ماتيلد البرهان على انتهاكات والدها الرهيبة. لقد طالبت بالحقيقة، لكنّ الحقيقة، التي كانت لا تُحتمل، جعلتها تنهار. كان قلبها ينبض بعنف شديد إلى درجة أنّها شعرت بأنّ

شرايينها ستتمزّق. وعدها فاولز برذاذ حمضي. لم يحتفظ بوعده فحسب، بل صوّبه نحو العينين.

لامت نفسها. كيف يمكن أن تكون عمياء إلى هذه الدرجة؟ لم تشكّك قطّ في مصدر ثروة عائلتها، لا خلال فترة المراهقة ولا بعد وفاة والديها. الشقّة التي تبلغ مساحتها مئتي متر مربّع في جادّة بوسيجور، وشاليه فال ديزير، وبيت العطل في كاب دانتيب، وساعات والدها، وغرفة ملابس والدتها المزدوجة، والتي كانت بمساحة منزل مؤلّف من غرفتين. كان من المفترض أن تكون صحافية، وقد أجرت تحقيقات ادّعاء حول سياسيين يشتبه بأنّهم أساؤوا استخدام الممتلكات العامّة، أو شخصيات متّهمة بالتهرّب من الضرائب، أو سلوك غير أخلاقي لبعض مديري شركات، لكنّها لم تكلّف نفسها عناء أن تتحرّى عن نفسها. القصّة الأبدية للقشّة والخشبة.

نظرت عبر الزجاج إلى فاولز الذي خرج إلى التراس. وقف جامدًا يُحدّق في الأفق وقد حمته ألواح الفناء الخشبية من المطر. وقف برونكو الوفي بالقرب منه يحرسه. أمسكت ماتيلد بالبندقية التي كانت قد وضعتها على الطاولة أثناء القراءة. البندقية ذات الأخمص المصنوع من خشب الجوز والسبطانة الفولاذية المزيّنة بنقش كولشيدرا المرعب. البندقية التي باتت تعرف الآن أنّها قضت على أسرتها.

ماذا الآن؟ تساءلت ماتيلد.

يمكنها أن تضع في رأسها رصاصة لإكمال اللوحة. في تلك اللحظة بالذات، بدا هذا التصرّف مريحًا. فقد شعرت في أحيان كثيرة بالذنب لأنّها لم تمت مع شقيقها. يمكنها أيضًا أن تقتل فاولز، وتحرق اعترافه وملفّه الاستقصائي لحماية ذاكرة عائلة فيرنوي مهما كلّف الأمر. سرّ عائلي كهذا يشكّل وصمة عار لا يمكن أبدًا تخطّيها.

انفجار يمنعك من الإنجاب. عيبٌ، مجرّد أن يصبح علنيًّا، يلوّث سمعة نسبك وأحفادك قرونًا عدّة. أمّا الحلّ الثالث فهو قتل فاولز ثمّ الانتحار للقضاء على الشهود كافّة في هذه القضيّة. القضاء نهائيًّا على الآفّة في «قضيّة فيرنوي».

في ذهنها، لم تدعها صور تيو وشأنها. ذكريات سعيدة. مؤثّرة. وجه شقيقها الظريف الذي كان يشعّ لطفًا. نظّارته الملوّنة والفراغ بين سنّيه. كان تيو متعلّقًا جدًّا بها. لقد وثق فيها كثيرًا. في كثير من الأحيان عندما كان يشعر بالخوف، من الليل، ووحوش القصص، ومتنمّري الصفّ الخامس الصغار في الملعب، كانت تطمئنه وتردّد له طوال الوقت ألّا يقلق وأنّها ستكون دائمًا إلى جانبه عندما يحتاج إليها. كلمات لم تلزمها بأيّ وعد إذ إنّ المرّة الوحيدة التي كان فيها في خطر حقيقي، لم تستطع فعل أيّ شيء. بل أسوأ من ذلك، فهي لم تُفكّر سوى في نفسها وذهبت لتختبئ في غرفتها. كانت هذه الفكرة لا تُحتمل بالنسبة إليها. فكرة لن تتمكّن أبدًا من التعايش معها.

عبر الزجاج رأت فاولز رغم الأمطار المنهمرة وهو ينزل الدرج الحجري المؤدّي إلى النتوء الصخري حيث رسا مركب ريفا. في برهة، اعتقدت أنّه سيحاول ركوب القارب، لكنّها تذكّرت أنّها رأت المفاتيح في السلّة بالقرب من المدخل.

كانت أذناها تطنّان ودماغها يغلي. انتقلت من فكرة إلى أخرى ومن شعور إلى آخر. ليس صحيحًا أنّه لم يراودها أيّ تساؤل عن أسرتها. منذ سنّ العاشرة – وربّما حتى قبل ذلك – مرّت بمراحل مُضيئة وأخرى حالكة بالتناوب. أوقات التهمها فيها القلق وتملّكتها تعاسة تجهل سببها. ثمّ أصيبت بالاضطرابات الغذائية التي استلزمت دخولها المستشفى في دار المراهقين.

أدركت الآن أنّه في ذلك الوقت، كان سرّ الحياة المزدوجة التي عاشها والدها قد بدأ يتعفّن داخلها. وبدأت هذه العدوى تنتقل إلى أخيها. فجأة بدأت ترى جزءًا من حياتها في ضوء جديد: حزن تيو، والربو الذي أصابه، وكوابيسه الفظيعة، وفقدان ثقته في نفسه، ونتائجه المدرسية المتراجعة. تغلغل السرّ فيهما منذ الطفولة، كسمّ راح يقتلهما ببطء. وراء صورة العائلة المثالية الملمّعة، اختبر الأخ والأخت المناطق الرمادية والروائح السامّة. حصل كلّ ذلك بطريقة لاواعية. كأصحاب القدرات التخاطرية، لا بدّ أنّهما التقطا من دون تفكير بعض الكلمات الغامضة، وبعض المواقف، وكلمات غير منطوقة، وصمتًا حقنهم بقلق مستشرٍ.

وما الذي تعرفه والدتها فعلًا عن جرائم زوجها؟ ربّما ليس الكثير، ولكن ربّما صوفيا قد تكيّفت بسهولة نوعًا ما مع تدفّق المال الوفير ومن دون أن تطرح الكثير من الأسئلة.

شعرت ماتيلد بأنّها كانت تغرق: فقدت في بضع دقائق كلّ المراجع التي توجّهها، وكلّ العلامات التي حدّدت هويّتها فترة طويلة. عندما كانت على وشك أن تُوجّه البُندقية نحوها، حاولت يائسة التمسّك بشيء ما، فقفز إلى ذهنها تفصيل في رواية فاولز: ترتيب سقوط الجثث. وفجأة بدأت ماتيلد تُشكّك في رواية الكاتب لمجرى الأمور. بعد فقدان ذاكرتها المؤلم، استرجعت الذكريات بدقّة مذهلة. وكانت واثقة في أنّ والدها مات أوّلًا.

.2

هزّ دويّ الرعد المنزل، كما لو أنّه كان على وشك السقوط من أعلى الجرف. مُسلّحة ببندقيتها، عبرت ماتيلد التّراس ونزلت الدرج لتوافي فاولز وكلبه بالقرب من الرصيف.

وصلت إلى البلاطة الصخرية الكبيرة التي امتدّت أمام المستوى الأرضي للمنزل. اختبأ الكاتب تحت مظلّة الواجهة المصنوعة من حجر الصوّان، وقد اخترقتها سلسلة من الفتحات المُعتمة. لمّا رأت ماتيلد هذه الفتحات أوّل مرّة، أثارت فضولها. أمّا الآن، فأدركت أنّه يمكن استخدامه كحظيرة لمركب ريفا، حتى وإن أغرقت بعض الأمواج رصيف الميناء في أيّام العواصف وارتفعت لتصل إلى هذا المستوى.

– هناك تفصيل في قصّتك يتناقض مع الواقع.

مُرهقًا، دلّك فاولز رقبته.

– ترتيب سقوط الجثث، أصرّت ماتيلد. أنت تدّعي أنّ والدي قبل وفاته قتل أمّي أوّلًا ثمّ أخي.

– هذا ما حدث.

– لكن ليس هذا ما أذكره على الإطلاق. عندما استيقظت على الطلقة الأولى، خرجت من غرفتي ورأيت جثّة والدي في الرواق. عندذاك شهدت مقتل والدتي وأخي.

– هذا ما تظنّين أنّك تذكرينه. لكنّها ذكريات أعيد بناؤها.

– أنا أعرف ما رأيت!

بدا أنّ فاولز مسيطر على الوضع:

– تبدو الذكريات التي نسترجعها بعد عقود من قمعها أنّها دقيقة، ولكنّها في الواقع غير موثوقة. هي ليست بالضرورة خاطئة، لكنّها مقتطعة مجزّأة وقد أعيد بناؤها.

– هل أنت طبيب أعصاب؟

– لا، أنا روائي وقد قرأت عن هذا الموضوع. في بعض الأحيان تُصاب الذاكرة بعد الصدمة بقصور، هذا أمر بدهيّ. احتدم الجدل

حول ما يُسمّى «الذكريات الزائفة» سنوات عدّة في الولايات المتّحدة. كان ذلك يُسمّى «حرب الذكريات».

هاجمته ماتيلد على جبهة أخرى:

– تحقيق كوسوفو هذا، لماذا كنت أنت الوحيد الذي أجريته؟

– لأنّني كنت هناك، ولأنّني بشكل خاصّ لم أطلب إذنًا من أحد لإجرائه.

– إن وُجدَ هذا الإتجار بالأعضاء بالفعل، فلا بدّ أنّه ترك آثارًا. لما تمكّنت السلطات من إخفاء قضيّة كهذه.

أطلق فاولز ضحكة حزينة.

– لم يسبق لك أن كنت في ساحة حرب أو قصدت البلقان، أليس كذلك؟

– هذا صحيح ولكن...

– لقد أُجريت تحقيقات أوّلية، قاطعها قائلًا. ولكن في تلك الحقبة، أعطيت الأولوية لاستعادة ما يشبه سيادة القانون، وليس لإحياء الجراح التي خلّفها الصراع. ومن ثمّ من الناحية الإدارية، كانت تعمّ حال من الفوضى العارمة. بين بعثة الأمم المتّحدة للإدارة الموقّتة في كوسوفو، التي كانت تتولّى إدارة كوسوفو في تلك الفترة، والسلطات الألبانية، كان الجميع يتقاذف المسؤولية. وكان الأمر سيّان بالنسبة إلى المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة ومهمّة بعثة الاتّحاد الأوروبي المعنيّة بسيادة القانون في كوسوفو. فالموارد المتوفّرة لديهما لإجراء التحقيقات كانت محدودة للغاية. لقد شرحت لك التعقيدات التي واجهتني لكي أحصل على شهادات عدّة ومتطابقة ومدى سرعة اختفاء الأدلّة في هذا النوع من القضايا. هذا من دون ذكر حاجز اللغة.

كان في ما يبدو لدى فاولز إجابة عن كلّ شيء، لكنّه كان روائيًا، لذا هو في طبيعته – بقيت ماتيلد على موقفها – كذّاب مُحترف.

– لماذا كانت بوّابة مرأب المبنى الذي يسكنه والداي مفتوحًا مساء 11 يونيو 2000؟

رفع فاولز كتفيه.

– لقد خلعها من دون شكّ كريم وأبولين ليقصدا شقّة المتقاعدين. كان عليك أن تطرحي هذا السؤال على جدّيك الجلّادين.

– في ذلك المساء، بعد سماع الطلقتين، هرعت إلى شقّتنا؟ سألت وهي تواصل استخلاص المعلومات من رواية فاولز.

– نعم، كان والدك قد ترك البوّابة مفتوحة.

– هل هذا تصرّف منطقي بالنسبة إليك؟

– لا شيء منطقي بالنسبة إلى شخص قرّر أن يقتل عائلته!

– نسيت تفصيلًا واحدًا: المال.

– أيّ مال؟

– أنت تدّعي أنّ جزءًا من أموال الإتجار بالأعضاء حوِّل إلى حساب أو أكثر في الخارج.

– هذا ما قاله لي كارستن كاتز، نعم.

– ولكن ماذا حدث بهذه الحسابات؟ أنا وريثة أبي الوحيدة ولم أسمع بوجودها قطّ.

– يبدو لي أنّ ذلك يعود إلى مبدأ السرّية المصرفية وغموض هذا النوع من الهيكليات.

– قد يكون ذلك صحيحًا في تلك الفترة، ولكن منذ ذلك الحين، تمّ التخلّص من عدد من الملاذات الضريبية.

– أظنّ أنّ هذا المال مجمّدًا في مكان ما.

– وماذا عن رسائل صويزيك؟

– ما بها؟

– ماذا كانت تفعل في خزانة أمّي؟

– لا بدّ أنّ والدك وجدها مع صويزيك لحظة وفاتها.

– حسنًا، لكنّها دليل يُمكن أن يفضحه. لماذا قد يخاطر بالاحتفاظ بها؟

حافظ فاولز على تركيزه:

– لأنّها كانت مكتوبة بشكل مُتقن. لأنّها مُقارنة بنوعها، كانت تشكّل تحفة فنّية في فنّ التراسل الأدبي.

– أهلًا بالتواضع.

– أهلًا بالحقيقة.

– لكن لماذا كان سيعطيها لأمّي التي لا تعرف شيئًا عن حياته المزدوجة؟

هذه المرّة نضبت أفكار فاولز، مدركًا أنّ روايته بدأت تتداعى. وهرعت ماتيلد لتتسلّل عبر الثغرة.

.3

سكنت العاصفة الانتحارية والمُدمّرة للذّات. وعادت ماتيلد إلى طبيعتها. أو بالأحرى عادت ماتيلد التي أحبّتها. تلك المجبولة باللهب والنار، الباردة والصلبة التي تمكّنت منذ الطفولة، ومهما كان الثّمن، أن تتغلّب على الكثير من العقبات. كانت لا تزال في داخلها، حيّة، ومستعدّة للمعركة. لم يكن عليها سوى دفع العدو إلى الخروج من مخبّأه.

– لا أظنّ أنّك تخبرني بالحقيقة يا ناثان. أنا متأكّدة من أنّني رأيت جثّة والدي في الرواق قبل مقتل والدتي وتيو.

باتت الذكرى الآن واضحة تمامًا في ذهنها. واضحة، راسخة، دقيقة.

كان المطر قد توقّف تقريبًا عن التساقط. خرج فاولز من ملجئه وخطا بضع خطوات على المرسى، واضعًا يديه في جيبيه. حلّقت طيور الغاق والنورس في السماء مُطلقة زعيقًا مُخيفًا.

– لماذا تكذب عليّ؟ سألته ماتيلد وقد انضمّت إليه في المرسى.

نظر فاولز في عينيها. لم يُهزم، بل استسلم.

– أنت مُحقّة. قتلت الطلقة الأولى في تلك الليلة الشخص الذي رأيته في الرواق، لكنّه لم يكن والدك.

– بل كان هو!

هزّ رأسه وضيّق عينيه.

– كان والدك حذرًا للغاية، ودقيقًا للغاية إلى درجة أنّه استبق كلّ ذلك. دفعته الفظائع التي ارتكبها إلى التوقّع بأنّ حياته ستكون عاجلًا أم آجلًا عُرضة للانقلاب رأسًا على عقب. لكي يحمي نفسه من هذه الكارثة، نظّم إمكانيّة فراره بين ليلة وضحاها.

جمدت ماتيلد في مكانها.

– إلى أين؟

– كان ألكسندر فيرنوي ينوي أن يُعيد بناء حياته بهويّة أخرى. ولهذا السبب، لم تكن الحسابات الخارجية باسمه، ولكن باسم شخصيته الافتراضية.

– عمّن تتحدّث؟ لمن كانت الجثّة في الرواق يا ناثان؟

– اسمه داريوس كورباس. كان بولونيًّا عاش مُشرّدًا في الشوارع مع كلبه. صادفه والدك في شارع مونبارناس قبل عام. هو من عمره، ويتمتّع بالمورفولوجيا نفسها. أدرك على الفور كيف يمكنه

الاستفادة من هذا الشبه. تحدّث معه، وقابله مُجدّدًا في اليوم التالي وأمّن له مكانًا في مركز استقبال نهاري.

بـدأت الـريـاح تُـبـدّل اتّجـاهـها، ما أدّى إلـى تساقط حبّات المطر الأخيرة.

حرص فيرنوي على دعوة داريوس إلى المطعم بشكل متكرّر، شرح لها فاولز. كان يهبه ملابس لم يعد يرتديها ويُسهّل حصوله على الرعاية الطبّية. من دون أن تعرف دوافع والـدك، استقبلته والدتك هي أيضًا مرّات عدّة بشكل مجّاني في عيادتها.

– ولكن ما كان هدفه من كلّ هذا؟

– حتى يتمكّن داريوس من أن يحلّ مكانه حين يحكم فيرنوي أنّ الوقت قد حان لكي ينتحر.

شعرت ماتيلد بأنّ الأرض تميد تحت قدميها، كما لو أنّ المرسى الخشبي يتهاوى في البحر.

تابع فاولز:

– في 11 يونيو من العام 2000، طلب فيرنوي من داريـوس كورباس أن يأتي لرؤيته قُبيل منتصف الليل وأن يحضر معه حقيبة سفره، بحجّة أنّه سيوصله بالسيّارة إلى فلورون سان جان.

– فلورون سان جان؟

– إنّها بارجة رست في رصيف جافيل حُوِّلَت إلى مأوًى، حيث يمكن المشرّدين أن يبيتوا على متنها برفقة كلابهم. كانت خطّة والدك بسيطة: قتل كورباس قبل التخلّص منك أنت وأمّك وأخيك. وهذا ما حدث. عندما وصل داريـوس، طلب والدك من والدتك أن تُعدّ له القهوة. انتهز الفرصة ليفتّش ممتلكاته. ثمّ، لحظة المغادرة إلى المأوى المزعوم، أطلق فيرنوي النار على وجهه من مسافة قريبة.

اعترضت ماتيلد على الفور: تذكّرت بشكل جيّد أنّه قد تمّ التعرّف إلى جثّة والدها.

– هذا صحيح، وافق فاولز. تعرّف جدّك باتريس فيرنوي وجدّتك إلى الجثّة في اليوم التالي. تمّ التعرّف إلى الجثّة وسط موجة من الألم والارتباك، وذلك لاستيفاء إجراء شكلي أكثر من كشف فخّ لم يكن في الحسبان.

– ماذا عن رجال الشرطة؟

– قاموا بعملهم بأمانة وإخلاص: تحليل أسنان الجثّة، مقارنة الحمض النووي الموجود على مشط وفرشاة أسنان في حمّام والدك.

– كان المشط والفرشاة لداريوس.

أومأ فاولز إيجابًا.

– كان هذا الهدف من حقيبة السفر.

– ماذا عن الأسنان؟

– كان التحايل على هذا الموضوع الأمر الأصعب، لكنّ والدك فكّر في كلّ شيء: بما أنّه كان يتعالج هو وداريوس في عيادة والدتك، كان يكفي أن يبدّل في فترة بعد الظهر من اليوم نفسه صورتَي الأشعّة البانورامية الخاصّة بالأسنان ليخدع فنّيي الطبّ الشرعي.

– والرسائل الموجّهة إلى صويزيك؟ لماذا وضعها في خزانة أمّي؟

– ليدفع المحقّقين إلى الاعتقاد بأنّه كان لدى والدتك عشيق. وأنّ خيانة زوجته كانت سبب هذه المجزرة. كان حرف الـ«ص» يثبت هذه الفرضية.

نفض فاولز قطرات المطر من شعره. عاد الماضي ليُحاصره بدوره وكانت مواجهته لا تزال صعبة.

– عندما وصلت إلى الشقّة، كان والدك قتل داريوس كورباس وأمّك وأخاك. لا شكّ في أنّه ترك الباب مفتوحًا، ليلوذ بالفرار بسهولة أكبر. لكن قبل أن يفعل ذلك، كان سيقتلك أنت. أنا أعرف ذلك الآن. لقد تعاركت معه لأنتزع منه سلاحه وضربته على وجهه بعقب البندقية مرّات عدّة لأفقده القدرة على التسبّب في الأذى. ثمّ ألقيت نظرة في غرفتك، لكنّني لم أرَ أحدًا هناك.

– لهذا السبب تعرّفت إلى حذائك.

– ثمّ عدت إلى الصالون. والدك كان قد تعرّض لضرب مبرح، وفقد وعيه، لكنّه كان ما زال في قيد الحياة. أنا كنت مصدومًا بما عشته توًّا. كانت ستتوضّح لي الأمور في وقت لاحق. في حرارة تلك اللحظة، قرّرت أخيرًا النزول في المصعد برفقة جسد فيرنوي الفاقد للوعي. عندما وصلت إلى المرأب، حملته إلى السيّارة حيث أجلسته في مقعد الراكب.

أدركت ماتيلد الآن لماذا أقسمت أبولين شابوي أنّها رأت شخصين يركبان سيّارة البورش الخاصّة بالروائي.

– غادرت المبنى وتوجّهت إلى المستشفى الذي بدا الأقرب لي: أمبرواز باريه، في بولوني بيلانكور. ولكن، على بُعد أمتار قليلة من قسم الطوارئ، واصلت طريقي من دون أن أتوقّف. قدت السيّارة طوال الليل: اجتزت البولفار الدائري، والطريق السريع أ6 ثمّ الطريق البروفنسالي وصولًا إلى طولون. لم أستطع إقناع نفسي بضرورة توفير العلاج لفيرنوي. لا يستحقّ أن يكون الناجي الوحيد من هذه المأساة في حين كان المسؤول الوحيد عن وقوعها.

.4

– وصلت إلى هيريس في الصباح الباكر. في تلك الأثناء، كان فيرنوي بالكاد استعاد وعيه، لكنّني كبّلته بحزامي الأمان قبل أن أحتجزه في الصندوق.

بدأ فاولز يتكلّم كما كان عليه أن يقود في تلك الليلة: بسرعة ومن دون توقّف.

– واصلت رحلتي إلى ميناء سان جوليان لي روز حيث كان قاربي راسيًا. حملت فيرنوي ووضعته في مركب ريفا، ثمّ أبحرت حتى وصلت إلى هنا.

أردت قتله بنفسي، كما كنت أنوي أن أفعل عندما عدت من كوسوفو. لو فعلت ذلك لتجنّبت المجزرة التي شهدتها. لكنّني لم أتصرّف على الفور. لم أودّ أن تكون هذه الميتة غاية في الراحة. أردتها أن تكون بطيئة، وفظيعة، ومظلمة.

وهو يمشي، اقترب فاولز من حظيرة القارب. بدا الآن أنّ الحمّى تملّكته:

– لكي أنتقم لموت صويزيك ولكلّ الذين قتلهم فيرنوي، كان عليّ أن أرسله إلى الجحيم. لكنّ الجحيم الحقيقي ليس رصاصة في الرأس أو طعنة في القلب. الجحيم الحقيقي هو الجحيم الأبدي، المعاناة الأزلية، العقاب نفسه الذي يُنزل به بشكل متواصل. أسطورة بروميثيوس.

لم تفهم ماتيلد بعد إلى ما كان يرمي فاولز.

– لقد احتجزت فيرنوي في لا كروا دو سود، قال مُتابعًا، وبعد أن انتزعت منه الإجابات التي كانت تنقصني، لم أكلّمه قطّ. ظننت أنّني سأكون قادرًا على إشباع حاجتي للانتقام على المدى الطويل،

انتقام بحجم الألم الذي كان يسكنني. ومرّت الأيّام فالأسابيع فالأشهر فالسنوات. سنوات من الوحدة والعزلة. سنوات من التوبة والعذاب، والتي في النهاية لم تُسفر سوى عن استنتاج رهيب: بعد هذا الوقت كلّه، كنت أنا السجين الحقيقي، وليس فيرنوي. أصبحت أنا سجّانًا لنفسي...

مصدومة، تراجعت ماتيلد خطوة إلى الوراء، فوجئت بالحقيقة المروّعة: سنوات عدّة، احتجز ناثان فاولز والدها في حظيرة القارب. في هذا الجزء من المبنى المحمي بكوّات مُعتمة، في هذا الجزء الذي لا يطأه أحد.

تأمّلت بيت القارب المُنصهر مع الجرف. يُمكن النفاذ إليه من فتحة جانبية ضيّقة أو من باب معدني مقطعي كبير، كما هي الحال في المرائب. نظرت إلى فاولز، بحثًا عن تأكيد. أخرج الروائي من جيبه جهاز تحكّم من بعد صغيرًا ووجّهه نحو البوّابة. فُتِحَت ببطء، بشكل عمودي، مُصدرة صريرًا.

.5

اندفعت الرياح إلى داخل عرين الوحش ودارت في أرجائه، حاملة رائحة رهيبة امتزجت فيها نتانة الأرض المتفحمّة بالكبريت والبول.

استجمعت ماتيلد ما تبقّى لديها من قوّة وعزم، وتقدّمت نحو الهاوية للمواجهة الأخيرة. حرّرت مفتاح الأمان وألصقت سبطانة البندقية بجسدها. كانت الرياح تصفع وجهها، لكنّ هذا الانتعاش منحها شعورًا جيّدًا.

انتظرت وقتًا طويلًا. امتزجت قعقعة المعدن بنسمات الرياح الشمالية. غرق عرين كولشيدرا في الظلام. علات قعقعة السلاسل، ثمّ ظهر الشيطان من وسط الظلام.

لم يعد ألكسندر فيرنوي يتمتّع بشكله البشري. كان جلده شاحبًا وجافًّا ومرقّشًا كجلد الزواحف، وشعره الأبيض تحوّل إلى شوشة مُخيفة، وأظافره باتت حادّة وطويلة كالمخالب، وبرزت ثغرتان وسط وجهه الأرجواني اللون والمغطّى بالبثور: عينان تقطران جنونًا وهلوسة.

شعرت ماتيلد بأنّ الأرض تميد تحت قدميها أمام الوحش الذي تحوّل إليه والدها. في بضع ثوان، عادت الطفلة الصغيرة التي تخاف من الذئاب والغيلان. بلعت ريقها. في اللحظة التي خفضت فيها بندقيتها، أدّت ثغرة في السماء إلى لألأة النقوش الجميلة التي زركشت السبطانة: كولشيدرا منتصرة فضّية العينين فاردةً جناحيها العملاقين. سرت رعشات متتالية في جسدها. تشبّثت بعقب البندقية، ولكن...

*

– ماتيلد! أنا خائف!

زارها صوت من طفولتها. ذكرى قديمة قابعة في إحدى زوايا ذهنها. صيف العام 1996. جون الصنوبر، على بعد بضعة كيلومترات من هنا. الرياح الدافئة وظلّ أشجار الصنوبر وعبق أشجار الكينا المُسكر. رنين ضحكات تيو المتعاقبة. كان عمره سبع سنوات. صعد بمفرده عند أوّل مُرتفع صخري في بونتا ديل أغو، وهي الجزيرة الصخرية الصغيرة الشامخة قُبالة الشاطئ. ولم يعد الآن واثقًا تمامًا في أنّه يملك الشجاعة الكافية للغوص. على بعد أمتار قليلة كانت ماتيلد تسبح في المياه الفيروزية. رفعت رأسها صوب النتوء الصخري، وصرخت لتشجيعه:

– هيّا يا تيو! أنت الأقوى!

وبما أنّ شقيقها كان لا يزال متردّدًا، راحت تلوّح بذراعيها في اتّجاهه، وتصرخ بكلّ ما أوتيت من قوّة إقناع:

– ثق فيّ!

الكلمات السحرية. تلك التي لا يجب نطقها بخفّة. تلك الكلمات التي بثّت فجأة البريق في عيني تيو وجعلته يستعيد ابتسامته. انطلق وراح يجري ثمّ رمى نفسه في البحر. بقيت الصورة جامدة وهو لا يزال معلّقًا في الهواء، كقرصان لحظة تصادم سفينتين. إنّها لحظة خفيفة وسعيدة لكنّها تحمل في جعبتها حنينها الخاصّ. لحظة محمية من كلّ ما ستؤول إليه الحياة لاحقًا من ثقل، وحزن، وألم.

*

تفتّتت الذكرى وامتزجت في النهاية بالدمع وتلاشت.

مسحت ماتيلد خدّها واقتربت من التنّين. لم يعد الشيطان الذي يرتعد أمام عينيها شرّيرًا أو مُخيفًا. كان مجرّد رعشة شنيعة بجناحين مكسورين تجرّ نفسها على البلاطة الحجرية كخرقة كسيحة. خيال أعماه نور النهار.

عصفت الرياح الشمالية.

توقّفت ماتيلد عن الرجفان.

ثبّتت البندقية على كتفها.

همس شبح تيو في أذنها.

ثقي فيّ.

توقّف المطر. كشحت الريح الغيم.

لم تُسمع سوى طلقة واحدة فقط.

دويّ خشن وسريع اصطفق وسط صفحة السماء الباهتة.



خاتمة

«ما هو مصدر الإلهام؟»

تعليق على هامش «حياة الكاتب السرّية»

بقلم غيّوم ميسّو

في الربيع الماضي، بُعيد صدور روايتي الجديدة، دُعيت للمشاركة في حفل توقيع نُظِّم في المكتبة الوحيدة في جزيرة بومون. بعد أن توفّي صاحب المكتبة السابق، استلم الوردة القرمزية ثنائي نسائي من بوردو متخصّص في بيع الكُتب. شابّتان متحمّستان راهنتا على تحديث هذه العلامة القديمة وإنعاشها وكانتا ترغبان في أن أكون عرّابًا لها.

لم يسبق لي أن زرت بومون ولم أكن أعرف الكثير عن جغرافيا الجزيرة. في ذهني، كنت أخلط بشكل مُبهم الجزيرة ببوركيرول. لكن رغم ذلك قبلت العرض لأنّ المكتبيتين كانتا لطيفتين ولأنّني كنت أعلم أنّ كاتبي المفضل ناثان فاولز عاش في بومون مدّة عشرين عامًا تقريبًا.

لقد قرأت في كلّ مكان أنّ سكّان الجزيرة حذرون وغير مضيافين، لكنّ الندوة وحفل التوقيع الذي تلاها تميّزا بالأجواء الدافئة بالفعل وكانت المحادثات التي دارت مع أهالي جزيرة بومون مُمتعة للغاية. كان لدى كلّ شخص نادرة يُخبرها وشعرت بالراحة في وجودي بينهم. وأكّدت لي المكتبيتان أنّه «لطالما كان مُرحّبًا بالكتّاب في بومون». حجزتا لي غرفة رائعة في نزل للمبيت والإفطار في جنوب

الجزيرة لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، بالقرب من دير تعيش فيه راهبات البينديكتيين.

استفدت من هذين اليومين لأستكشف الجزيرة وسرعان ما أغرمت بهذه القطعة من فرنسا التي لم تكن تشبه فرنسا فعليًا. قل إنّها أشبه بكوت دازور أزلية، من دون سيّاح، وبهرجة، وتلوّث، وإسمنت. لم أستطع اتّخاذ قرار بمغادرة الجزيرة. فقرّرت تمديد إقامتي وبدأت البحث عن منزل صغير لشرائه أو استئجاره. هكذا علمت أنّه ما من مكاتب عقارية في بومون: كان يُنقَل جزء من العقارات من عائلة إلى أخرى وما تبقّى كان يُنقَل من طريق تحويل الملكية. أخبرتني صاحبة النزل حيث مكثت، وهي امرأة إيرلندية مسنّة اسمها كولين دنبار، كنت قد أخبرتها عن مشاريعي، عن احتمال وجود منزل معروض للبيع: لا كروا دو سود، الذي كان في السابق ملكًا لناثان فاولز. ساعدتني لكي أتواصل مع الشخص المفوّض لإجراء عملية البيع.

كان هذا الشخص جاسبر فان ويك، أحد آخر الأساطير في عالم النشر في نيويورك. كان فان ويك وكيل فاولز وغيره من الكتّاب البارزين. عُرف على وجه الخصوص بأنّه تمكّن من نشر «لوريلاي سترابنج» بعد أن رفضت الرواية معظم دور النشر في مانهاتن. كلّما نُشرت مقالة في الصحف والمجلّات حول فاولز، كان فان ويك هو الذي يتحدّث دائمًا عنه ما جعلني أتساءل عن نوع العلاقة التي تربط بين الرجلين. فقبل أن يلتزم فاولز بالصمت التامّ، كان يكره الكلّ: الصحافيين والناشرين وحتى زملاءه الكتّاب. عندما اتّصلت بفان ويك كان في إجازة في إيطاليا، لكنّه وافق على قطعها يومًا واحدًا ليصطحبني في جولة إلى لا كروا دو سود.

حُدِّدَ الموعد، وفي اليوم التالي، جاء جاسبر ليصطحبني من بيت كولين دنبار وراء مقود ميني موك مُستأجرة مموّهة اللون.

ذكّرني الوكيل بجسمه الممتلئ وطيبته ببيتر أوستينوف حين أدّى دور هيركول بوارو: ملابس ريترو أنيقة، وشاربين مفتولين، ونظرة ماكرة.

قادني إلى رأس سافرانييه، ثمّ غامر ودخل متنزّهًا برّيًّا شاسعًا حيث امتزجت رائحة نسيم البحر بعبير الكينا والنعناع. ثمّ التفّ مع المسار في اتّجاه مُنحدر حادّ فظهر البحر فجأة مع منزل فاولز في الوقت نفسه، وهو مبنى بأشكال هندسية من الحجر الأمغر والزجاج والإسمنت.

وقعت تحت سحره على الفور. كنت أحلم دائمًا بالعيش في مكان مماثل: فيلّا مُعلّقة بالجرف واللون الأزرق على مدّ العين والنظر. تخيّلت أطفالًا يركضون على الترّاس، تخيّلت مكتبي مواجهًا للبحر، حيث أنكبّ على كتابة الروايات من دون أيّ صعوبة، كما لو أنّ جمال المنظر الطبيعي يمكن أن يُشكّل مصدر إلهام لا ينضب. لكنّ فان ويك طلب مبلغًا طائلًا، وقال إنّني لست الزبون الوحيد المُهتمّ. سبق أن زار رجل أعمال خليجي مرّات عدّة المكان وقدّم عرضًا ملزمًا. «من المؤسف أن تفوتك هذه الفرصة، قال لي جاسبر، فقد بُني هذا المنزل ليسكنه روائيّ.» رغم أنّني لا أعرف حقًّا كيف يكون منزل الروائي، خشيت جدًّا أن أخسر هذه الفرصة إلى درجة أنّني استسلمت وأنفقت هذا المبلغ الطائل.

*

انتقلت للعيش في لا كروا دو سود في أواخر فصل الصيف. كان المنزل في حالة جيّدة، لكنّه استحقّ التحديث بشكل مكثّف. وكان الظرف مؤاتيًا لأنّني كنت بحاجة إلى إعادة استخدام مهاراتي اليدوية والقيام بأمور مفيدة. انكببت على العمل. كنت أستيقظ كلّ صباح

عند السادسة وأبدأ الكتابة حتى يحين وقت الغداء. خصّصت فترة ما بعد الظهر لتجديد الفيلّا: أجريت أعمال الطلاء، والسباكة، والكهرباء. في البداية، كان العيش في لا كروا دو سود أمرًا مُرعبًا بعض الشيء. فقد باعني فان ويك المنزل مفروشًا، لذا مهما فعلت، فقد كان شبح فاولز يُلاحقني في كلّ مكان: لقد تناول الكاتب فطوره على هذه الطاولة، وطها في هذا الفرن، وشرب قهوته من هذا الفنجان. وبسرعة، أصبحت مهووسًا بفاولز وتساءلت عمّا إذا كان سعيدًا في هذا المنزل وعن سبب بيعه أخيرًا.

بالطبع، منذ لقائنا الأوّل، طرحت هذا السؤال على فان ويك الـذي، على الرغم من لطافته، لم يـتردّد في أن يقول لي من دون مقدّمات إنّ هذا الموضوع لا يعنيني. أدركت أنّه إذا أعدت طرح هذا السؤال مرّة أخرى، فلن يُصبح المنزل ملكي أبـدًا. لقد أعدت قراءة روايات فاولز الثلاث، ونزّلت المقالات كافّة التي أمكنني العثور عليها، وبشكل خاصّ، تحدّثت مع سكّان الجزيرة الذين قابلوه. أعطاني أهالي بومون صورة عن الكاتب جديرة بالثناء إلى حدّ ما. من الواضح أنّه كان شخصًا كئيبًا بعض الشيء، لا يثق في السيّاح ويرفض دائمًا أن تُلتَقَط صورة له أو أن يجيب عن أسئلة حول كتبه، ولكنّه كان يُعامل السكّان بتهذيب ولباقة. بعيدًا من صورة المُنعزل الفظّ، كان يتحلّى بروح الفكاهة، وكان اجتماعيًّا وودودًا إلى حدّ ما ويتردّد كثيرًا إلى فلور دو مالت، حانة الجزيرة. انتقاله المفاجئ صدم معظم الناس. كما أنّ ظروف رحيله لم تكن واضحة جدًّا، حتى لو أجمع الكلّ على أنّ فاولز في الخريف السابق اختفى فجأة بعد مقابلة صحافية سويسرية جاءت إلى الجزيرة في إجازة. امرأة شابّة تواصلت معه لتُعيد له كلبه، وهو غولدن ريتريفر يدعى برونكو كان قد اختفى أيّامًا عدّة. لم يكن أحد يعرف المزيد، وإن لم يُعبّروا عن ذلك بصراحة، شعرت بأنّ سكّان

الجزيرة قد خاب أملهم بعض الشيء لأنّه رحل من دون أن يودّعهم. «إنه خجل الكُتّاب»، شرحت لهم. لكن لا أعلم ما إذا كانوا صدّقوني.

*

حلّ فصل الشتاء.

واصلت بإصرار إنجاز الأعمال في المنزل خلال فترات بعد الظهر بينما كنت أعمل صباحًا على كتابي الحالي. في الواقع، لم أكن أكتب الكثير. لقد بدأت كتابة رواية «خجل القمم» التي كنت أجد صعوبة في إكمالها. طاردني ظلّ فاولز المهيب في كلّ مكان. فعوضًا عن الكتابة، أمضيت صباحاتي وأنا أجري الأبحاث عنه. لقد تقفّيت أثر الصحافية السويسرية، كان اسمها ماتيلد. قالت لي هيئة التحرير حيث كانت تعمل، أنّها استقالت، لكنّني لم أحصل على المزيد من التفاصيل. تواصلت مع والديها في كانتون فود. فأجابا أنّ ابنتهما بخير وأن أدعهما وشأنهما.

من ناحية الأعمال في الفيلّا، كنت أحرز تقدّمًا بمعدّل أسرع لحسن الحظّ. بعد تجديد الغرف الرئيسية، انتقلت إلى الأجزاء الفرعية، بدءًا بحظيرة القارب حيث كان يرسو على الأرجح سابقًا مركب فاولز من طراز ريفا. حاول جاسبر أن يبيعه لي، لكنّني لم أكن أدري ما أفعل بقارب مماثل فرفضت العرض. كان بيت القارب المكان الوحيد في المنزل الذي شعرت بأنّه مشحون بموجات سلبية. مُظلم، وبارد، ومتجمّد. لقد أعدت إدخال النور إليه من خلال إعادة تأهيل النوافذ الجميلة البيضاوية الشكل التي بدت كوّات مسدودة. لم أكن أشعر بالرضا بعد، فهدّمت جدرانًا نصفية عدّة كانت تُضيّق الغرفة. في أحد أقسام البناء، فوجئت باكتشاف عظام مصبوبة داخل الخرسانة.

شعرت بالذعر في الحال. هل كانت عظامًا بشرية؟ إلى متى تعود هذه الإنشاءات؟ هل كان فاولز متورّطًا بجريمة قتل؟

لكن من طبيعة الروائيين حبك القصص حول أيّ شيء. كنت مُدركًا ذلك وقرّرت أن أهدأ.

بعد خمسة عشر يومًا، عندما استعدت بعضًا من هدوئي، اكتشفت شيئًا آخر – هذه المرّة في إحدى زوايا السقف. آلة كاتبة باللون الأخضر الفاتح من ماركة أوليفيتّي إضافة إلى مجلّد من كرتون احتوى على أوّل مئة صفحة ممّا بدا أنّه رواية غير مكتملة كان فاولز يكتبها.

شعرت بحماسة لم تنتبني منذ فترة طويلة، فنزلت إلى الصالون، حاملًا كنزي تحت إبطي. كان الليل قد أسدل ستاره وكان المنزل مُتجمّدًا. أشعلت نارًا في المدفأة المعلّقة في وسط الغرفة وصببت كأس بارا نو نيوا – كان فاولز قد ترك زجاجتين من الويسكي المفضّل لديه في البار. ثمّ تموضعت في المقعد المواجه للبحر لقراءة الصفحات المطبوعة بالآلة الكاتبة. قرأتها مرّة أولى بنهم ومرّة ثانية لأستمتع بالنصّ وأقوّمه بالكامل. إنّها واحدة من أهمّ ذكريات القراءة التي لن أنساها في حياتي. كانت مُختلفة، ولكن يُمكن مقارنتها من حيث زخمها بذكرى قراءاتي في مرحلتي الطفولة والمراهقة عندما اكتشفت روايات «الفرسان الثلاثة»، أو «مولن العظيم»، أو «أمير المدّ والجزر». كانت تلك أولى صفحات «صيف لا يقهر»، رواية انكبّ فاولز على كتابتها قبل أن يعتزل الكتابة. لقد ذكرها بشكل خاصّ في مقابلته الأخيرة مع وكالة فرانس برس. كان من المُتوقّع أن تكون الرواية نهرًا دافقًا من السرد، زاخرة بالقوّة والإنسانية، وتستند إلى مجموعة من الشخصيات نشهد تطوّرها على مدى السنوات الأربع تقريبًا التي دام خلالها حصار سراييفو. ما قرأته كان مجرّد بداية،

مسوّدة، غير مُصحّحة، وغير مصقولة، ولكنّها كانت شعلة نار مُتأجّجة، تميّزت إلى حدّ كبير بمستوى كتابات فاولز نفسه حتى الآن.

في الأيّام التي تلت، كنت أستيقظ كلّ صباح وقلبي يملأه إحساس بالقوّة، فكنت أردّد لنفسي أنّني ربّما الشخص الوحيد في العالم الذي لديه امتياز الوصول إلى هذا النصّ. ولكن مع تلاشي هذه الثمالة، تساءلت لماذا تخلّى فاولز عن نصّه في منتصف الطريق. النسخة التي قرأتها تعود إلى أكتوبر 1998. لقد انطلقت الرواية بشكل جيّد. لا شكّ في أنّ فاولز كان راضيًا عن عمله. لا بدّ أنّ شيئًا ما قد حدث في حياته فجعله يتخلّى عن الكتابة بهذا الشكل المفاجئ. اكتئاب شديد؟ قصّة حبّ فاشلة؟ خسارة أحد الأحبّة؟ هل لهذا القرار علاقة بالعظام التي وجدتها في جدار حظيرة القارب؟

لكي أتأكّد من ذلك، قرّرت أن أعرضها على أخصائي. قبل بضع سنوات، أثناء إجرائي أبحاثًا لكتابة رواية بوليسية، التقيت بفريديريك فوكو، عالمة أنثروبولوجيا طبّ شرعي كانت تُشارك في تحليل بعض مواقع الجرائم. عرضت عليّ أن أزورها في مكتبها في باريس في المعهد الوطني للبحوث الأثرية الوقائية. قصدت شارع أليسيا حاملًا حقيبة صغيرة من الألمنيوم جمعت فيها عيّنة من العظام. ولكن في اللحظة الأخيرة، وأنا في الردهة، خانتني شجاعتي وغادرت. بأيّ حقّ كنت سأخاطر بتلطيخ سمعة فاولز؟ لم أكن قاضيًا ولا صحافيًّا. كنت روائيًّا. كنت أيضًا من قرّاء فاولز، وحتى لو كان تفكيري ساذجًا، فقد كنت متأكّدًا أنّ كاتب «لوريلاي سترايتنج» و«المحطّمون» لم يكن وغدًا أو قاتلًا.

*

تخلّصت من العظام وذهبت لرؤية جاسبر فان ويك في نيويورك، في مكتبه الصغير في مبنى فلاتيرون الغارق تحت المخطوطات. كانت الجدران مغطّاة بنقوش الحبر البنّي الداكن التي صوّرت مشاهد قتال بين تنانين كلّ واحد أكثر بشاعة وتوعّدًا من الآخر.

«فنّ رمزي لعالم النشر؟» سألته.

«أو لعالم الكُتّاب»، أجابني وقد ردّ لي الضربة على الفور.

كان هذا قبل أسبوع واحد من عيد الميلاد. كان مزاجه جيّدًا ودعاني لأتناول معه المحار في بار بيرل أويستر في شارع كورنيليا.

«آمل أن يكون المنزل ما زال يروقك؟» سألني. أومأت برأسي، لكنّني أخبرته أيضًا عن الأعمال التي كنت أقوم بها والعظام التي وجدتها عندما هدّمت أحد جدران حظيرة المركب. متّكئًا على المنضدة، عقد جاسبر حاجبيه بشكل خفيف، وإن لم يظهر أيّ تعبير آخر على وجهه. صبّ لي كأسًا من نبيذ سانسير، وأخبرني بأنّه مُطّلع على هندسة المنزل جيّدًا، وأنّ تاريخ بنائه يعود إلى خمسينيّات القرن الماضي وستّينيّاته، أيّ قبل أن يشتريه فاولز بفترة طويلة، وهذه العظام كانت بالتأكيد تعود إلى ماشية أو كلاب.

– «هذا ليس اكتشافي الوحيد»، قلت له وأنا أخبره عن الصفحات المئة لرواية «صيف لا يقهر». في البداية، اعتقد جاسبر أنّني أمازحه، ومن ثمّ راودته الشكوك. فأخرجت من حقيبتي الصفحات العشر الأولى من المخطوطة. قرأها فان ويك بسرعة والبريق ظاهر في عينيه. «هذا الوغد كان يردّد لي دائمًا أنّه أحرق بداية المخطوطة!»

– «ماذا تريد مقابل ما تبقّى؟»، سألني. فقلت له: «لا شيء»، وسلّمته الصفحات المتبقّية، «أنا لست مبتزًا». نظر إليّ بامتنان، وأمسك بالصفحات المئة كما لو أنّها قطعة أثرية. عندما غادرت

المطعم، سألته مرّة أخرى عمّا إذا كان لديه أيّ خبر عن فاولز، لكنّه تجاهل سؤالي.

غيّرت الموضوع وأخبرته بأنّني أبحث عن وكيل أميركي ليتسلّم مشروع كتاب جديد: أردت أن أسرد بشكل روائي أيّام ناثان فاولز الأخيرة في جزيرة بومون. «إنّها فكرة سيّئة للغاية»، قال جاسبر قلقًا. «ليس العمل سيرة ذاتية أو كتابًا طفيليًا، حاولت طمأنته، إنّه قصّة خيالية مستوحاة من شخصية فاولز. ولقد اخترت لها عنوانًا: «حياة الكاتب السرّية».

بقي جاسبر متصلّبًا كالصخر. لم أكن مُهتمًّا بالحصول على بركته، لكن لم أودّ أن ينتهي اللقاء ببرود وجفاء. «لا أرغب في الكتابة عن أيّ موضوع آخر، ردّدت له. بالنسبة إلى الروائي، ما من ألم أعظم من حمل قصّة في قلبك وعدم التمكّن من إخبارها.» أومأ جاسبر برأسه هذه المرّة، قبل أن يقول لي الجملة التي ردّدها على مسامع الصحافة «لغز ناثان فاولز هو أنّه ما من لغز في الأساس».

«لا تقلق، أجبته، سأبتكر واحدًا، هذا هو عملي.»

*

قبل أن أغادر نيويورك، اشتريت عددًا من بكرات الحبر من تاجر يبيع آلات كاتبة مستعملة في بروكلين.

وصلت إلى لا كروا دو سود في وقت مُبكر من مساء الجمعة، قبل يومين من عيد الميلاد. كان الجوّ باردًا، لكنّ مشهد الشمس وهي تغرب وراء الأفق كان يخطف الأنفاس كالعادة، حتّى أنّه كاد يكون غير واقعيّ. أوّل مرّة شعرت بأنّني عُدت إلى دياري.

شغّلت أسطوانة الموسيقى التصويرية لفيلم البندقية القديمة في جهاز الأسطوانات الدوّار، وأشعلت النار في الموقد بعد جهد

جهيد، ثمّ صببت لنفسي كأس بارا نو نيوا. بعد ذلك جلست إلى طاولة الصالون أمام الأوليفتّي المصنوعة من الباكليت ووضعت فيها إحدى البكرات.

أخذت نفسًا عميقًا. شعرت بالارتياح لدى جلوسي مجدَدًا أمام لوحة المفاتيح. هذا هو المكان الذي أنتمي إليه. حيث لطالما شعرت بأدنى مستويات السوء. لأستجمع أفكاري، استغللت أوّل فكرة تبادرت إلى ذهني.

صفة الكاتب الرئيسية، هي أن يتمتّع بمؤخّرة جيّدة.

أصبت بقشعريرة لدى طقطقة المفاتيح تحت أصابعي. فتابعت:

الفصل 1.
الثلاثاء 11 سبتمبر 2018
كانت الرياح تصفِقُ الأشرعة فتلوح مُرفرفة في سماء مشرقة. غادر المركب الشراعي شواطئ الريفييرا الفرنسية بُعيد الساعة الواحدة بعد الظهر وهو يُبحر الآن بسرعة خمس عقد في اتّجاه جزيرة بومون.

وانطلقت في الكتابة، ولكن ما إن أنهيت تلك الجمل الأولى حتى قاطعتني رسالة نصّية طويلة من جاسبر فان ويك. أطلعني أوّلًا على أنّه وافق على قراءة روايتي فور إنهائي كتابتها (كان ذلك لمراقبة كتاباتي، لم يخدعني). أكّد لي بعد ذلك أنّ فاولز بخير وأنّ الروائي طلب منه أن يشكرني لأنّني أعدت له هذه الصفحات المئة، التي يدّعي أنّه قد نسيها. أرفق جاسبر برسالته، وقد وثق فيّ، صورة التقطها سائح الأسبوع الماضي في مراكش. كان هذا السائح لوران

لافوري، وهو شبه صحافي فرنسي، قد تعرّف إلى فاولز في المدينة والتقط له سلسلة من الصور. بعد أن ارتجل دور الباباراتزي، حاول الصحافي صاحب القلم الرديء بيع صوره لمواقع أو لمجلّات الصحافة الصفراء، لكنّ جاسبر نجح في الحصول عليها قبل نشرها.

تملّكني الفضول فدقّقت في تفاصيل الصورة التي ظهرت في هاتفي. تعرفت إلى المكان لأنّني سبق أن زرته عندما قصدت المغرب في إجازة: إنّه سوق الحدّادين، وهي منطقة تجمع الحرفيين المتخصّصين في الحديد والحدّادين. تذكّرت هذا المكان الذي يُشبه متاهة من الشوارع الضيّقة في الهواء الطلق اكتظّت بالمحالّ والأكشاك حيث يعالج الحرفيون بأدواتهم ومكاوي اللحام المعدن، وصهره وتشكيله لتحويله إلى مصابيح وفوانيس وستائر وأثاث من الحديد المُزخرف.

في وسط شرارات اللحام المُتطايرة، كان بالإمكان تمييز ثلاثة أشخاص بوضوح: ناثان فاولز، وماتيلد الشهيرة، وطفل يبلغ من العمر حوالى عام واحد وهو جالس في عربة للأطفال.

في الصورة، كانت ماتيلد ترتدي فستانًا قصيرًا بحبكة جاكار وجاكيت جلد، وتنتعل صندالًا عالي الكعب. وقد وضعت يدها على كتف فاولز. تدفّق من وجهها شعور غريب جمع بين الإحساس المُرهف والحيوية والإشراق. أمّا فاولز فكان واقفًا في الواجهة، وقد ارتدى بنطالًا من الجينز، وقميصًا من الكتّان الأزرق الباهت وفوقه جاكيت. كان لا يزال وسيمًا: عيناه ملوّنتان وقد سفعت الشمس وجهه باللون الأسمر. نظّارته الشمسية مرفوعة على جبهته. يبدو في الصورة أنّه لمح المصوّر، ورمقه بنظرة تعني تقريبًا: اللعنة عليك، لن تتمكّن أبدًا من الوصول إلينا. كانت يداه ممسكتين بمقود عربة الأطفال. نظرتُ إلى وجه الطفل وقد شعرت بالانزعاج لأنّه ذكّرني

بنفسي حين كنت صغيرًا. وجه أشقر، ونظّارة مستديرة ملوّنة، وفراغ بين الأسنان العلوية. التقطت هذه الصورة، رغم انتهاكها الخصوصية، شيئًا لا يمكن إنكاره: شراكة، لحظة هدوء، توازن مثالي للحياة.

*

في لا كروا دو سود، كان الليل قد أسدل ستاره. شعرت بالوحدة الشديدة وببعض الحزن في وسط الظلام. نهضت لأضيء الأنوار وأتمكّن من مواصلة الكتابة.

عندما عدت إلى مكتبي، نظرت مجدّدًا إلى الصورة. لم أقابل ناثان فاولز قطّ، لكنّني شعرت بأنّني أعرفه لأنّني قرأت كتبه وعشقتها ولأنّني أسكن في منزله. امتصّ وجه الطفل ورنين ضحكته المشرقة نور الصورة. وفجأة أصبحت واثقًا في أنّ لا الكتب ولا الكتابة هي التي أنقذت فاولز. فقد تعلّق الروائي بالشرارة التي لمعت في عيني الصبي. للعودة إلى الحياة والسير قدمًا.

فرفعت كأس الويسكي صوبه لأشرب نخبه.

ارتحت لمعرفتي أنّه سعيد.

Loreleï Strange

Nathan Fawles

A Mathilde
Nathan Fawles
10 Mars 1998

LB
Little, Brown and Company
New York Boston London

بين الحقيقة والخيال

«ما مصدر الإلهام؟»

يُطرح دائمًا هذا السؤال عاجلًا أم آجلًا عندما أقابل القرّاء أو المكتبيين أو الصحافيين. ومع ذلك، فهو ليس عاديًّا كما يبدو. هذه الرواية، «حياة الكاتب السرّية» هي شكل من أشكال الإجابات المُحتملة، إذ توضّح العملية الغامضة التي تجعل الكتابة تُبصر النور: كلّ شيء يشكّل مصدر إلهام ومواد خيالية مُحتملة، ولكن لا شيء في الرواية يشبه بالفعل ما رأيناه أو اختبرناه أو تعلّمناه. كما هي الحال في حلم غريب، يمكن أن يتعرّض كلّ تفصيل من تفاصيل الواقع للتحريف فيصبح عنصرًا أساسيًّا لقصّة في طور الصوغ. وبالتالي تتّخذ هذه التفاصيل طابعًا روائيًّا، فهي تبقى دائمًا صحيحة، لكنّها تُصبح أكثر واقعية.

على سبيل المثال، قصّة هذه الكاميرا التي بفضلها اعتقدت ماتيلد أنّها كشفت قاتلًا، هي مستوحاة من خبر منشور. عُثر على كاميرا باور شوت من ماركة كانون على شاطئ في تايوان بعد أن جرفها الموج مدّة ستّ سنوات من هاواي. لم تحتوِ الكاميرا الحقيقية سوى على صور عطلة. لكنّ الكاميرا في الرواية كانت أخطر بكثير...

مثال آخر، «الملاك الذهبي الشعر»، عنوان الجزء الثاني من الرواية، هو اللقب الجميل الذي أعطاه فلاديمير نابوكوف لزوجته العزيزة فيرا، في إحدى الرسائل الكثيرة التي كتبها لها. كنتُ أفكّر في جمال هذه الرسائل، والمراسلات المؤثّرة بين ألبير كامو وماريا كاساريس حين كتبت عن الرسائل بين ص وناثان فاولز.

أمّا جزيرة بومون فهي جزيرة خيالية استوحيت جزءًا منها من مدينة أثيرتون المذهلة في كاليفورنيا والجزء الآخر الأكثر جاذبية من بوركيرول ومن رحلاتي إلى هيدرا في كورسيكا أو إلى جزيرة سكاي. تعود أسماء المحالّ الموجودة في الرواية، التي تتميّز بالتلاعب المُبتكر بالكلمات (فلور دو مالت، وبريد بيت...) إلى مؤسّسات صادفتها أثناء رحلة أو بحث.

يُدين المكتبيّ غريغوار أوديبير لفيليب روث بالكثير من إحباطه وتشاؤمه حول مستقبل القراءة.

وأخيرًا، ناثان فاولز، الشخصية التي أحببت أن أرافقها في هذه الصفحات، راح يبحث عن حاجته إلى العزلة، واعتزاله الكتابة، وانسحابه من المشهد الإعلامي، ومواقفه الفظّة، تارة لدى ميلان كونديرا، و ج. د. سالينجر، وطورًا لدى فيليب روث، الكاتب نفسه مجدّدًا، وإيلينا فيرانتي... أصبحت أشعر بأنّه موجود بالفعل كشخصية مستقلّة، وعلى غرار غيّوم ميسّو الخيالي في الخاتمة، سأُسرّ بمعرفة أنّه تمكّن من استعادة شغفه بالحياة في مكان آخر في العالم.

المحتويات

حياة الكاتب السريّة — عام 1999، بعد ثلاث روايات حظيت بنجاح غير مسبوق، يعلن الروائي الشهير ناثان فاولز اعتزاله الكتابة ويلجأ إلى جزيرة بومون المتوسطية الخلابة بحثًا عن الهدوء.

في خريف 2018، تكسر الصحافيّة ماتيلد مونّي تلك العزلة، مدفوعة بالفضول حول اختفاء الكاتب لحوالي عشرين عامًا، وبالتصميم على كشف سرّه. يوم وصولها، تصحو الجزيرة على زلزال. ثمة جثة لامرأةٍ على الشاطئ. تضرب السلطات طوقًا أمنيًا حول الجزيرة، ويبدأ التحقيق... تبدأ أيضًا مواجهة حادّة بين الروائي والصحافيّة، بين كذبة موثّقة وحقيقة لا لبس فيها، بين ماضٍ قاتم وثقيل وحاضر مفتوح على كلّ الاحتمالات.

وقائع تخطف الأنفاس. نص أدبي آسر. مشهد أخير يكشف عن سيناريو جهنّمي.

«لكلّ منّا حيوات ثلاث: حياة خاصّة، وحياة عامّة، وحياة سريّة.»

— غابريل غارسيا ماركيز


© Emanuele Scorcelletti

غيوم ميسو — كاتب وروائـي فرنسي برتبة عالميّة (مواليد أنتيب، 1974) يعشق الأدب والمسرح منذ نعومة أظافره. تحتلّ كتاباته قوائم أكثر الكتب مبيعًا في فرنسا والعالم، وقد بلغ ذروة نجاحاته برواية «وبعد»، فاكتسب شُهرة كبيرة، لا سيّما أنّها حُوّلت فيلمًا حقّق نجاحًا كبيرًا في دور السينما.

في رصيده أكثر من عشر روايـات، تُرجم معظمها إلى أربعين لغة. «حياة الكاتب السرية» هي الرواية الثانية له التي تصدر عن نوفل من بعد «الصبيّة واللّيل».


ISBN 978-614-469-655-2
9 786144 696552

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان